مرآة الأصفياء

دينا

في صفات الملامتية الأخفياء وعلو شأن الأولياء

ويحتوي أيضاً ذكر قطب الأقطاب وظهور المهدي ونزول عيسى والختم ابن عربي

لشيخ الإسلام عبد الله البسنوي ١٠٥٤هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الناشر

دار الحقيقة

للبحث العلمي والنشر والتوزيع

مطبوعات

دار الحقيقة

سيدنا محمد ﷺ

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ- ٢٠٠٧م

دار الحقيقة

للبحث العلمي والنشر والتوزيع

القاهرة- مصر

٠٠٢/٠١٠١٤٦٣٠٢٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:

٢٠٠٧/٢٤٧٣٩م

الترقيم الدولي/ isbn

٩٧٧-٦١٥٦-٧٠ E

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي اختار من عباده عبادًا جعلهم أئمة في بلاده، فزيَّن بعبادته ظواهرهم، ونوَّر بواطنهم بمعرفته ومحبته، ودلهم على معرفة أنفسهم، ومكنهم من تذليلها، وعرفهم مكرها، وأعانهم على تصغيرها وتحقيرها، فهم العلماء بالله وأحكامه، والقائمون بأمره وإنعامه، والله يختص برحمته من يشاء.

وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة أرتقي بها إلى مقام حقيقة الإحسان.

وأشهد أن سيدنا محمدًا ﷺ صاحب الطهر والرحمة والإنابة والإيقان، فاللَّهُمَّ صلِّ عَلَى الذات المحمدية، اللطيفة الأحدية، شمس سماء الأسرار، ومظهر الأنوار، ومركز مدار الجلال، وقُطب فلك الجمال، اللَّهُمَّ بسره لديك وسيره إليك آمن خوفي وأقل عثرتي، وأذهب حزني وحرصي وكُلي، وخذني إليك مني، وارزقني الفناء عنّي، ولا تجعلني مفتونًا بنفسي، محجوبًا بجمسي، واكشف لي عن كل سرِ مكتوم، وَعَلَى آلِهِ وصحبه وسلم، يا حي يا قيوم يا الله. وبعد ...

من وقت أن أنشلني الله من بحار الشوك بدعوى الجمود الزائف الغفيل المتمثل في اعتقاد أن الظاهر والمظاهر هي الأساس المتين في معرفة هذا الدين، وأنا وقتئذ أبحث عن طريق الله على نهج سبيل من أناب إلى الله بإخلاص وصدق يقين، فوجدت السر في سلوك الطريق الملامي، والأمر يحتاج إلى دليل مسطور ومرشد منظور؛ فضلاً عن معارف أهل البطون في الظهور، فأمدني الله بشيخ الطريق ورأس ملامتية التحقيق شيخي ﷺ، فإذا بالقدر يأذن أن يكون أول يوم أحضر فيه بين الإخوان، يتمّ فيه قراءة منـزل الملامتية من فتوحات الشيخ الأكبر الممدود بنور الحق، ونور الحقيقة، فسألني ﷺ لم نحن دون غيرنا؟ فرددت ما خلاصته لأنكم أهل الحقيقة ورأس الملامتية؛ وقد أجبتم عما لم أنطق به إلا باطنًا فأطلعكم الله على ما فيّ فأجبتموني بالجواب الصفي الجلي الخفي الطاهر النقي، فبعد ما قلت ما هذا معناه، ردّ عليّ بقوله: نعم والله نعم، وتبسم قائلاً: «بتاع ربنا» أي كلٌّ من عند الله.

وهذا المرشد ﷺ بالدليل الذي هو «الفتوحات المكية»، قد أتم ذلك بأن أهداني هذا الكتاب المستمد من حضرة الشيخ الأكبر – قدس الله سره – ودعاني إلى معرفته وتحقيقه، والتحقق به، فظللت فترة أقرأه وأتبع موارد ما فيه، وأتلقى بعض النور الذي فتح عليَّ من المرشد ﷺ والدليل.

حتى أذن الله لي بتحقيقه وإتمامه على صورته هذه، وكان خروجه لعالم الطباعة للمرة الأولى على يدي، والحمد والفضل والمنة من الله، وإني لأروي كتب الشيخ الأكبر بإجازات وأسانيد عدة، هذا ظاهرًا، أما باطنًا فمن حضرة شيخي، عن الشيخ الأكبر مباشرة.

وما هي إلا حُلل وصور من الحضرة المحمدية، وما العبرة إلا بذكر الحضور، وأصعب الذكر العلم، وإسقاط الإرادة فلا عبرة بجهلة المتصوفة.

ولله در أبي حفص عمرو بن سلمة الحدَّاد النيسابوري من أول من أسس هذه الطريق بخراسان المتوفى ٢٧٠ هـ قال: «مريدو أهل الملامة متقلبون في الرجولة لا خطر لأنفسهم، ولا لما يبدو منها عليهم إلى مقامهم سبيل؛ لأن ظواهرهم مكشوفة وحقائقهم مستورة، ومريدو الصوفية يظهرون من رعونات الدعاوي والكرامات ما يضحك منه كل متحقق؛ لكثرة دعاويهم وقلة حقائقهم» انتهى.

هذا .. وإني أعلم أني لست من أهل هذا المقام ولا من أبناء هذا الغرام ولا من ندماء هذا المدام للعباد لعدم الاستعداد، وقلة التوجه للأمداد، والإفلاس من الصناعة واتخاذ التكاسل والجهالة بضاعة، وغير ذلك من الأوصاف الوضيعة؛ والله يهدي السبيل.

وهذا الكتاب المخطوط كان في طي الخزائن، صعب خطه، مغلق لفظه، وقد أذن الكمّل به فما أيسر فتحه، فضبطه وصححته وخرجت أحاديثه، وعلقت على بعض مواضعه، وللبعض وثقته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمدٍ خير الخلق أجمعين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه المقربين المكرمين، وسلم كثيرًا.

ترجمة المصنف

هو سيدي العلامة الفقيه المحقق الأصولي المحقق الحجة: عبد الله عبدي بن محمد أفندي البسنوي الرومي، البيرامي. المشهور بين العلماء بشارح الفصوص.

من علماء السادة الصوفية.

ولد سنة ٩٩٢، وتوفي ١٠٥٤ هـ بمدينة قونية.

من تصانيفه الكثيرة:

- تجليات عرائس النصوص في منصات الفصوص للشيخ الأكبر (بتحقيقنا).
- مواقف الفقراء.
- تجلي النور المبين في مرآة إياك نعبد وإياك نستعين.
- الوصول إلى الحضرات الإلهية لا يمكن إلا بكمال العبودية.
- قرة عين الشهود ومرآة عرائس معاني الغيب والوجود في شرح التائية الكبرى.
- مطالع النور السني عن طهارة النسب العربي (بتحقيقنا).
- القرى الروحي الممدود شرح نظم مراتب الوجود للجيلي (بتحقيقنا).
- أنفس الواردات في شرح أول الفتوحات.
- تحقيق الجزء بصورة الكل وظهور الفرع على صورة الأصل.
- الدر المنظوم في بيان السر المعلوم.
- رفع الحجاب في آصال البسملة بفاتحة الكتاب.
- شرح خلع النعلين لابن قسي.
- ضياء اللمع والبرق في حضرة الجمع والفرق.
- مرآة الأصفياء في صفات الملامتية الأخفياء (كتابنا هذا).
- المستوى الأعلى في الشرب الأحلى.
- النفس الواردات في شرح أول الفتوحات.

وانظر: معجم المؤلفين (٢/ ٢٥٦)، وهدية العارفين (١/ ٢٤٨)، والجوهر الأسنى للخانجي (٩٤-١٠٠).

كتبه: أبو الحسن والحسين/ أحمد فريد المزيدي/ ٠١٠١٤٦٣٠٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه الطاهرين الطيبين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى من تابعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد.. فقد ورد في الحديث القدسي: «**أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري**»[(١)] فاعلم أن أولياء الله عرائس الله، ولا يرى العرائس إلا المحرمون؛ لأنهم كانوا من الأخفياء الأصفياء الأبرياء الذين تستروا بالزِّي العامي لا يعرفون من حيث هيئتهم وصورتهم، وأنهم من الخواص والعوام بأنهم لا يظهرون بعلامات يتميزون بها عن العامة كما وصفهم ومدحهم وأثنى عليهم الشيخ الهمام الكامل المكمل، قطب العارفين، قرة عيون المحققين محيي الدين بن العربي ﷺ في «الفتوحات المكية» فأردتُ أن أجمع هذه المدائح من أبواب «الفتوحات» وأكتبها تذكرة للسامعين القابلين ليجتنبوا من سوء الظن والطعن على هؤلاء الطائفة العلية، ويتصفوا بحسن الاعتقاد لهذه الضغائن السيئة؛ لينور الله قلوبهم بأنوار محبة أوليائه، ويكشف لهم أسرار حقيقة أصفيائه، ويحشرهم مع الأبرار وأصدقائه.

ورتبت هذه الرسالة على: مقالةٍ، ومكملةٍ، وخاتمةٍ، وختم الخاتمة.

أما المقالة: ففي ذكر وصف الملامتية الأخفياء.

وأما التكملة: ففي ذكر قطب الأقطاب في وقته، وأوصافه.

وأما الخاتمة: ففي ظهور المهدي ونزول عيسى عبد الله.

وأما ختم الخاتمة: ففي ذكر بعض أحوال الشيخ ﷺ ومنقبته وعقيدته، وعلو مكانته.

وسميتها: بـ «مرآة الأصفياء في الملامتية الأخفياء، وعلو شأن الأولياء» - قدس الله أسرارهم - وهم الذين ورد فيهم: «مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بارزني بالمحاربة، فإني ناصر أوليائي، وخاذل أعدائي»[(٢)] - قدس الله أسرارهم - ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣] ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١] ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا

---

(١) ذكره الشيخ المناوي في «التعاريف» (١/ ٦٧٦).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٩/ ١٣٩)، والقضاعي في «الشهاب» (٢/ ٣٢٦).

ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠]، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨].

يا رب، أسألك أن تنور قلوبنا بنور محبتك، وتملأ زجاجة مشكاة صدورنا بزيت معرفتك، واسلك بنا طريق السنة، وجنبنا طريق البدعة، ووفقنا بالفهم عنك، وحسن الاعتقاد بأوليائك وأصفيائك، واقطع بيننا وبين كل قاطع يقطع بيننا وبينك، وطهرنا من أدناس بشريتنا ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٢٨] بحرمة سيد المرسلين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، آمين.

***

أما المقالة ففي ذكر وصف الملامتية الأخفياء

قال الشيخ ﷺ في الباب الخامس من «الفتوحات المكية»: «قوله: ﴿الله﴾ من ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ ينبغي لك أيها المسترشد أن تعرف أولاً ما تحصل في هذه الكلمة الكريمة من الحروف وحينئذٍ يقع الكلام عليها إن شاء الله وحروفها: (ا ل ل ا الله) و فأول ما أقول كلامًا مجملاً مرموزًا ثم نأخذ في تبيينه ليسهل قبوله على عالم التركيب، وذلك أن العبد تعلق بالألف تعلق من اضطر والتجأ ظهرته اللام الأولى ظهورًا ورثه الفوز من العدم والنجاة فلما صح ظهوره، وانتشر في الوجود نوره، وصح تعلقه بالسمي، وبطل تخلقه بالأسماء أفنته اللام الثانية بشهود الألف التي بعدها فناء لم تبق منه باقية، وذلك عسى ينكشف له المعمي ثم جاءت الواو بعد الهاء لتمكن المراد، وبقيت الهاء لوجوده آخرًا عند محو العباد من أجل العناد فذلك أوان الأجل المسمى، وهذا هو المقام الذي تضمحل فيه أحوال السائرين، وتنعدم فيه مقامات السالكين حتى يفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل لا غير يثبت لظهوره ولا ظلام يبقى لنوره، فإن لم تكن تره اعرف حقيقة إن لم تكن تكن أنت إذ كانت التاء من الحروف الزوائد في الأفعال المضارعة للذوات وهي العبودية، يقول بعض السادة وقد سمع عاطسًا يقول: الحمد لله فقال له: ذلك السيد أتمها، كما قال الله رب العالمين فقال العاطس: يا سيدنا ومن العالم حتى يذكر مع الله؟ فقال له: الآن قله يا أخي، فإن المحدث إذا قرن بالقديم لم يبق له أثر، وهذا هو مقام الوصلة وحال وله أهل الفناء عن أنفسهم، وأما لو فني عن فنائه لما قال: الحمد لله؛ لأن في قوله: الحمد أثبت العبد الذي هو المعبر عنه بالرداء عند بعضهم وبالثوب عند آخرين، ولو قال: رب العالمين لكان أرفع من المقام الذي كان فيه فذلك مقام الوارثين ولا مقام أعلى منه؛ لأنه مشهود لا يتحرك معه

لسان، ولا يضطرب معه جنان أهل هذا المقام في أحوالهم، فاغرة أفواههم، استولت عليهم أنوار الذات، وبدت عليهم رسول الصفات هم عرائس الله المخبئون عنده المحجوبون لديه الذين لا يعرفهم سواه كما لا يعرفون سواه توجهم بتاج البهاء وإكليل السناء، وأقعدهم على منابر الفناء عن القرب في بساط الأنس ومناجاة الديمومية بلسان القيومية أورثهم ذلك قوله: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج:٢٣]، و﴿بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج:٣٣] فلم تزل القوّة الإلهية تمدهم بالمشاهدة فيبرزون بالصفات في موضع القدمين فلا وله إلا من حيث الاقتداء ولا ذكر إلا إقامة سنة أو فرض لا يحيدون عن سواء السبيل فهم بالحق، وإن خاطبوا الخلق وعاشروهم فليسوا معهم، وإن رأوهم لم يروهم إذ لا يرون منهم إلا كونهم من جملة أفعال الله فهم يشاهدون الصنعة والصانع مقامًا عمريًا كما يقعد أحدكم مع نجار يصنع تابوتًا فيشاهد الصنعة والصانع، ولا تحجبه الصنعة عن الصانع إلا أن شغل قلبه حسن الصنعة، فإن الدنيا كما قال ﷺ : «حلوة خضرة»[(١)] وهي من خضراء الدمن جارية حسناء في منبت سوء من أحسن إليها وأحبها أساءت إليه وحرمت عليه أخراه ولقد أحسن القائل:

إذا امـتَحَنَ الـدُّنيا لَبيـبٌ تَكَـشَّفَت لَـهُ عَـن عَـدوٌ في ثِيـابِ صَـديقِ

فهذه الطائفة الأمناء الصديقون إذا أيدهم الله بالقوة الإلهية وأمدهم فهم معه بهذه النسبة على وجه المثال، وهذا أعلى مقام يرقى فيه، وأشرف غاية ينتهي إليها هذه الغاية القصوى إذ لا غاية إلا من حيث التوحيد لا من حيث الموارد والواردات، وهو المستوى إذ لا استواء إلا الرفيق الأعلى فهنيئًا لهذه العصابة بما نالوه من حقائق المشاهدة، وهنيئًا لنا على التصديق والتسليم لهم بالموافقة والمساعدة بما ألهمنا من جواد اللسان في حلبة الكلام».

وقال ﷺ في هذا الباب من «الفتوحات»: «وصل في قوله: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ من البسملة الرحيم صفة محمد ﷺ قال تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، وبه كمال الوجود، وبـ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ تمت البسملة، وبتمامها تم العالم خلقًا وإبداعًا، وكان ﷺ مبتدأ وجود العالم عقلاً ونفسًا متى كنت نبيًا؟ قال: «وآدم بين الماء والطين»[(٢)] فبه بدئ الوجود باطنًا، وبه ختم المقام ظاهرًا في عالم التخطيط، فقال: «لا رسول بعدي ولا نبي»[(٣)]

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٩٨).

(٢) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ١٧٣)، وقال: لم يوجد بهذا اللفظ؛ لكن قال العلقمي في شرح الجامع الصغير: حديث صحيح.

(٣) روى البخاري (٣/ ١٢٧٣)، ومسلم (٣/ ١٨٧٠)، بنحوه.

فالرحيم هو محمد ﷺ و﴿بِسْمِ﴾ هو أبونا آدم عليه السلام وأعني في مقام ابتداء الأمر ونهايته، وذلك أن آدم عليه السلام هو حامل الأسماء قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١] ومحمد ﷺ حامل معاني تلك الأسماء التي حملها آدم عليه السلام وهي الكلم، قال ﷺ: «أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ»(١) ومن أثنى على نفسه أمكن وأتم ممن أثني عليه كيحيى وعيسى - عليهما السلام- ومن حصل له الذات فالأسماء تحت حكمه، وليس من حصل الأسماء أن يكون المسُمى محصلاً عنده، وبهذا فضلت الصحابة علينا؛ فإنهم حصلوا الذات، وحصلنا الاسم، ولما راعينا الاسم مراعاتهم الذات ضوعف لنا الأجر ولحسرة الغيبة التي لم تكن لهم فكان تضعيف على تضعيف فنحن الإخوان وهم الأصحاب وهو ﷺ إلينا بالأشواق، وما أفرحه بلقاء واحد منا وكيف لا يفرح وقد ورد عليه من كان بالأشواق إليه، فهل تقاس كرامته به وبره وتحفيه وللعامل منا أجر خمسين ممن يعمل بعمل أصحابه لا من أعيانهم لكن من أمثالهم، فذلك قوله: «بل منكم»(٢) فجدوا واجتهدوا حتى يعرفوا أنهم خلفوا بعدهم رجالاً لو أدركوه ما سبقوهم إليه، ومن هنا تقع المجازاة، والله المستعان».

وقال رضي الله عنه في خلال هذا الباب في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦] على الإيجاز، ثم قال: «بسط ما أوجزناه في هذا الباب: انظر كيف أخفى سبحانه أولياءه في صفة أعدائه، وذلك لما أبدع الأمناء من اسمه اللطيف وتجلى لهم في اسمه الجميل فأحبوه تعالى، والغيرة من صفات المحبة في المحبوب والمحب بوجهين مختلفين فستروا محبته غيرة منهم عليه كالشبلي وأمثاله وسترهم بهذه الغيرة عن أن يعرفوا فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ستروا ما بدا لهم في مشاهدتهم من أسرار الوصلة، فقال: لابد أن أحجبكم عن ذاتي بصفاتي فتأهبوا لذلك فما استعدوا فأنذرتهم على ألسنة أنبيائي الرسل في ذلك العالم فما عرفوا؛ لأنهم في عين الجمع، وخاطبهم من عين التفرقة، وهم ما عرفوا عالم التفصيل فلم يستعدوا، وكان الحب قد استولى على قلوبهم سلطانه غيرة من الحق عليهم في ذلك الوقت، فأخبر نبيه ﷺ روحًا وقرآنًا بالسبب الذي أصمهم عن إجابة ما دعاهم إليه فقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧] فلم يسعها غيره، ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ فلا يسمعون سوى كلامه على ألسنة العالم؛ فيشهدونه في العالم متكلمًا بلغاتهم، ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ من سناه، إذ هو النور وبهائه إذ له الجلال والهيبة يريد الصفة التي تجلى لهم فيها المتقدمة فأبقاهم غرقى

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٥٧٣)، ومسلم (١/ ٣٢٧).
(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٧/ ١١٧)، وفي الأوسط (٣/ ٢٧٢)، وفي الشاميين (١/ ٣٣).

في بحور اللذات بمشاهدة الذات، فقال لهم: لا بد لكم من عذاب عظيم، فما فهموا ما العذاب لاتحاد الصفة عندهم فأوجد لهم عالم الكون والفساد، وحينئذٍ علمهم جميع الأسماء، وأنزلهم على العرش الرحمانيّ وفيه عذابهم، وقد كانوا مخبوئين عنده في خزائن غيوبه فلما أبصرتهم الملائكة خرت سجودًا لهم فعلموهم الأسماء، فأما أبو يزيد فلم يستطع الاستواء، ولا أطاق العذاب فصعق من حينه، فقال تعالى: «ردوا عليّ حبيبي فإنه لا صبر له عني» فحجب بالشوق والمخاطبة، وبقي الكفار فنزلوا من العرش إلى الكرسي؛ فبدت لهم القدمان فنزلوا عليهما في الثلث الباقي من ليلة هذه النشأة الجسمية إلى سماء الدنيا النفسي؛ فخاطبوا أهل الثقل الذين لا يقدرون على العروج: «هل من داع فيستجاب له؟ هل من تائب فيتاب عليه؟ هل من مستغفر فيغفر له حتى ينصدع الفجر»، فإذا انصدع ظهر الروح العقلي النُّوري فرجعوا من حيث جاءوا، قال ﷺ: «**من كان مواصلاً فليواصل حتى السَّحر**»(1) فذلك أوان بعثر ما في القبور، فكل عبد لم يحذر مكر الله فهو مخدوع فافهم.

وقال الشيخ ﷺ في الباب الثالث والعشرين في معرفة الأقطاب المصونين، وأسرار منازل صونهم: «اعلم - أيدك الله- أن هذا الباب يتضمن ذكر عباد الله المسمين بالملامتية، وهم الرجال الذين تحلوا من الولاية في أقصى درجاتها، وما فوقهم إلا درجة النبوة، وهذا يسمى مقام القربة في الولاية، وآيتهم من القرآن: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٢] ينبه لنعوت نساء الجنة وحورها على نفوس رجال الله الذين أقتطعهم إليه، وصانهم وحبسهم في خيام صون الغيرة الإلهية في زوايا الكون أن تمتد إليهم عين فتشغلهم لا والله ما يشغلهم نظر الخلق إليهم لكنه ليس في وسع الخلق أن يقوموا بها لهذه الطائفة من الحق عليهم لعلو منصبها فتقف العباد في أمر لا يصلون إليه أبدًا، فحبس ظواهرهم في خيمات العادات والعبادات من الأعمال الظاهرة والمثابرة على الفرائض منها والنوافل، فلا يعرفون بخرق عادة فلا يعظمون ولا يشار إليهم بالصلاح الذي في عرف العامة مع كونهم لا يكون منهم فساد فهم الأخفياء الأبرياء الأمناء في العالم الغامضون في الناس، فيهم قال رسول الله ﷺ عن ربه ﷻ: «**إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِي عِنْدِي لَمُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنْ الصَّلَاةِ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ**»(2) يريد أنهم لا يعرفون بين الناس بكبير عبادة، ولا ينتهكون المحارم سرًا وعلنًا.

قال بعض الرجال في صفتهم لما سئل عن العارف قال: مسود الوجه في الدنيا

(١) رواه البخاري (٢/ ٦٩٣).
(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٥٢)، والترمذي (٤/ ٥٧٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٨).

والآخرة في تجليات الحق له، ولا يرى الإنسان عندنا في مرآة الحق إذا تجلى له غير نفسه ومقامه، وهو كون من الأكوان، والكون في نور الحق ظلمة، فلا يشهد إلا سواده؛ فإن وجه الشيء حقيقته وذاته.

ولا يدوم التجلي إلا لهذه الطائفة على الخصوص فهم مع الحق في الدنيا والآخرة على ما ذكرناه من دوام التجلي وهم الأفراد، وأما إن أراد بالتسويد من السيادة، وأراد بالوجه حقيقة الإنسان أي: له السيادة في الدنيا والآخرة فيمكن، ولا يكون ذلك إلا للرسل خاصة؛ فإنه كمالهم، وهو في الأولياء نقص؛ لأن الرسل مضطرون في الظهور لأجل التشريع، والأولياء ليس لهم ذلك ألا ترى الله سبحانه أكمل الدين كيف أمره في السورة التي نعي الله إليه فيها نفسه فأنزل عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ * وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ [النصر:١،٢] كمل ما أريد منه من تبليغ الرسالة، وطلب بالاستغفار أن يستره عن خلقه في حجاب صونه لينفرد به دون خلقه دائمًا، فإنه كان في زمان التبليغ والإرشاد وشغله بأداء الرسالة فإن له وقتًا لا يسعه فيه غير ربه وسائر أوقاته فيما أمر به من النظر في كان توابًا، أي: يرجع الحق إليك رجوعًا مستصحبًا لا يكون للخلق عندك فيه دخول بوجه من الوجوه.

ولما تلا رسول الله ﷺ هذه السورة بكى أبو بكر الصديق ﷺ وحده دون من كان في ذلك المجلس، وعلم أن الله تعالى قد نعى إلى رسول الله ﷺ نفسه، وهو كان أعلم الناس به وأخذ الحاضرون يتعجبون من بكائه ولا يعرفون سبب ذلك.

والأولياء الأكابر إذا تركوا وأنفسهم لم يختر أحد منهم الظهور أصلاً؛ لأنهم علموا أن الله ما خلقهم لهم ولا لأحد من خلقه بالتعلق من القصد الأول، وإنما خلقهم له سبحانه فشغلوا أنفسهم بما خلقوا له، فإن أظهرهم الحق عن غير اختيار منهم بأن يجعل في قلوب الخلق تعظيمهم فذلك إليه سبحانه ما لهم فيه تعمل، وإن سترهم فلم يجعل لهم في قلوب الناس قدرًا يعظمونهم من أجله فذلك إليه تعالى فهم لا اختيار لهم مع اختيار الحق، فإن خيرهم ولا بد فيختارون الستر عن الخلق والانقطاع إلى الله، ولما كان حالهم ستر مرتبتهم عن نفوسهم فكيف عن غيرهم تعين علينا أن نبين منازل صونهم. فمن منازل صونهم أداء الفرائض في الجماعات، والدخول مع الناس في كل بلد بزي ذلك البلد، ولا يوطن مكانًا في المسجد، وتختلف أماكنه في المسجد الذي تقام فيه الجمعة حتى تضيع عينه في غمار الناس، وإذا كلم الناس فيكلمهم ويرى الحق رقيبًا عليه في كلامه، وإذا سمع كلام الناس سمع كذلك، ويقلل من مجالسة الناس إلا من جيرانه حتى لا يشعر به، ويقضي حاجة الصغير والأرملة ويلاعب أولاده وأهله بما يرضي الله تعالى، ويمزح ولا يقول إلا

حقًا. وإن عرف في موضع انتقل عنه إلى غيره، فإن لم يتمكن له الانتقال استقصى من يعرفه وألح عليهم في حوائج الناس حتى يرغبوا عنه، وإن كان عنده مقام التحول في الصور تحول كما كان للروحاني التشكل في صور بني آدم فلا يعرف أنه ملك وكذلك عند الله؛ لأنهم صانوا قلوبهم أن يدخلها غير الله أو تتعلق بكون من الأكوان سوى الله فليس لهم جلوس إلا مع الله، ولا حديث إلا مع الله فهم بالله قائمون، وفي الله ناظرون، وإلى الله راحلون ومنقلبون، وعن الله ناطقون، ومن الله آخذون، وعلى الله متوكلون، وعند الله قانطون، فما لهم معروف سواه، ولا مشهود إلا إياه، صانوا نفوسهم عن نفوسهم، فلا تعرفهم نفوسهم، فهم في غيابات الغيب محجوبون هم ضنائن الحق المستخلصون، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق مشى ستروا كل حجاب.

فهذه حالة هذه الطائفة المذكورة في هذا الباب تتمة شريفة لهذا الباب.

قلنا: ومن هذه الحضرة بعثت الرسل سلام الله عليهم أجمعين مشرعين، ووجد معهم هؤلاء تابعين لهم قائمين بأمرهم من عين واحدة أخذ عنها الأنبياء والرسل ما شرعوا، وأخذ عنها الأولياء ما اتبعوهم فيه فهم التابعون على بصيرة العالمون بمن اتبعوه، وفيما اتبعوه وهم العارفون بمنازل الرسل، ومناهج السبل من الله، ومقاديرهم عند الله تعالى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

وقال الشيخ ﷺ في الباب الثلاثين في معرفة الطبقة الأولى والثانية في الأقطاب الركبان: «سميناهم بالركبان، فمنهم من يركب نُجُب الهمم، ومنهم: من يركب نُجُب الأعمال، فلذلك جعلناهم طبقتين: أولى وثانية، وهؤلاء أصحاب الركبان هم الأفراد في هذه الطريقة، فإنهم ﷺ على طبقات: فمنهم: الأقطاب، ومنهم: الأئمة، ومنهم: الأوتاد، ومنهم: الأبدال، ومنهم: النقباء، ومنهم: النجباء، ومنهم: الرجبيون، ومنهم: الأفراد، وما منهم طائفة إلا وقد رأيت منهم وعاشرتهم ببلاد المغرب وببلاد الحجاز والشرق، فهذا الباب مختص بالأفراد، وهي طائفة خارجة عن حكم القطب وحدها ليس للقطب فيهم تصرف، ولهم من الأعداد من الثلاثة إلى ما فوقها من الأفراد ليس لهم ولا لغيرهم فيما دون الفرد الأول الذي هو الثلاثة قدم فإن الأحدية وهو الواحد لذات الحق، والاثنان للمرتبة وهو توحيد الألوهية، والثلاثة أول وجود الكون عن الله فالأفراد في الملائكة: الملائكة المهيمون في جمال الله وجلاله، الخارجون عن الأملاك المسخرة والمدبرة اللذين هما في عالم التدوين والتسطير، وهم من القلم والعقل إلى ما دون ذلك.

والأفراد من الإنس مثل: المهيمة من الأملاك، فأول الأفراد الثلاثة، وقد قال ﷺ:

«الثلاثة ركب»[1] فأول الركب الثلاثة إلى ما فوق ذلك، ولهم من الحضرات الإلهية الحضرة الفردانية، وفيها يتميزون، ومن الأسماء الإلهية: الفرد، والمواد الواردة على قلوبهم من المقام الذي ترد منه على الأملاك المهيمة ولهذا يجهل مقامهم، وما يأتون به مثل ما أنكر موسى عليه السلام على خضر مع شهادة الله فيه لموسى عليه السلام وتعريفه بمنزلته وتزكية الله إياه وأخذه العهد عليه إذ أراد صحبته، ولما علم الخضر أن موسى عليه السلام ليس له ذوق في المقام الذي هو الخضر عليه كما أن الخضر ليس له ذوق فيما هو موسى عليه من العلم الذي علمه الله إلا أن مقام الخضر لا يعطي الاعتراض على أحد من خلق الله لمشاهدة خاصة هو عليها، ومقام موسى والرسل يعطي الاعتراض من حيث هم رسل لا غير في كل ما يرونه خارجًا عما أرسلوا به، ودليل ما ذهبنا إليه في هذا قول الخضر لموسى عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف:٦٨] فلو كان الخضر نبيًّا لما قال له: ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ فالذي فعله لم يكن من مقام النبوة، وقال له في انفراد كل واحد منهما بمقامه الذي هو عليه قال الخضر لموسى عليه السلام: يا موسى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، وافترقا وتميزا بالإنكار فالإنكار ليس من شأن الأفراد فإنّ لهم الأولية في الأمور، فهم ينكر عليهم ولا ينكرون.

قال الجنيد: لا يبلغ أحد درج الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق، وذلك لأنهم يعلمون من الله ما لا يعلمه غيرهم.

وهم أصحاب العلم الذي كان يقول فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين يضرب بيده إلى صدره ويتنهد: «أن هاهنا لعلوم جمة لو وجدت لها حملة» فإنه كان من الإفراد، ولم يسمع هذا من غيره في زمانه إلا أبو هريرة ذكر مثل هذا خرج البخاري في «صحيحه» عنه أنه قال: «حملت عن النبي ﷺ جرابين أما الواحد فبثثته فيكم وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم»[2] البلعوم: مجرى الطعام، فأبو هريرة ذكر أنه حمله عن رسول الله ﷺ فكان فيه ناقلاً عن غير ذوق ولكنه علم لكونه سمعه من رسول الله ﷺ، ونحن إنما نتكلم فيمن أعطى عين الفهم في كلام الله تعالى في نفسه، وذلك علم الأفراد، وكان من الأفراد عبد الله بن العباس البحر كان يلقب به لاتساع علمه فكان يقول في قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢] لو ذكرت تفسيره لرجمتموني، وفي رواية: لقلتم إني كافر.

وإلى هذا العلم كان يشير عليُّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب زين العابدين رضي الله عنه

(١) ذكره ابن قتيبة في «تأويل مختلف الحديث» (ص١٦٢)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٠/ ٧).

(٢) رواه البخاري (١/ ٥٦).

بقوله: فلا أدري هل هما من قيله أو تمثل بهما:

يـا رُبَّ جَـوهَرِ عِلـمٍ لَـو أَبـوحُ بِـهِ ... لِقيـلَ لي أَنـتَ مِمَّـن يَعبـدُ الوَثَنـا

وَلَاسَـتَحَلَّ رِجـالٌ مُـسلِمونَ دَمـي ... يَـرَونَ أَقـبَحَ مـا يَأتونَـهُ حَـسَنا

فنبه بقوله: (يَعبدُ الوَثَنا) على مقصوده ينظر إليه تأويل قوله ﷺ: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِه»[1] بإعادة الضمير على الله تعالى، وهو من بعض محتملاته بالله يا أخي أنصفني فيما أقوله لك لا شك إنك قد أجمعت معي على أنه كل ما صحَّ عن رسول الله ﷺ من الأخبار في كل ما وصف به فيها ربه تعالى من الفرح والضحك والتعجب والتبشبش والغضب والتردد والكراهة والمحبة والشوق إن ذلك وأمثاله يجب الإيمان به والتصديق، فلو هبت نفحات من هذه الحضرة الإلهية كشفًا وتجليًا وتعريفًا إلهيًا على قلوب الأولياء بحيث أن يعلموا بأعلام الله وشاهدوا بأشهاد الله من هذه الأمور المعبر عنها بهذه الألفاظ على لسان الرسول.

وقد وقع الإيمان مني ومنك بهذا كله إذا أتى بمثله هذا الوليّ في حق الله تعالى ألست تزندقه كما قال الجنيد: ألست تقول إن هذا مشبه هذا عابد وثن كيف وصف الحق بما وصف به المخلوق ما فعلت عبدة الأوثان أكثر من هذا كما قال علي بن الحسين ألست كنت تقتله أو تفتي بقتله كما قال ابن عباس فبأيّ شيء آمنت وسلمت لما سمعت ذلك من رسول الله ﷺ في حق الله من الأمور التي تحيلها الأدلة العقلية ومنعت من تأويلها، والأشعري تأولها على وجوه من التنزيه في زعمه فأين الإنصاف فهلا قلت: القدرة واسعة أن تعطي لهذا الوليّ ما أعطت للنبيّ من علوم الأسرار، فإن ذلك ليس من خصائص النبوّة، ولا حجر الشارع على أمّته هذا الباب، ولا تكلم فيه بشيء بل قال: «إِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مُحَدَّثُونَ فَعُمَرُ مِنْهُمْ»[2] فقد أثبت النبي ﷺ أن ثم من يحدث ممن ليس بنبي، وقد يحدث بمثل هذا فإنه خارج عن تشريع الأحكام من الحلال والحرام؛ فإن ذلك أعني التشريع من خصائص النبوة، وليس الاطلاع على غوامض العلوم الإلهية من خصائص نبوة التشريع بل هي سارية في عباد الله من رسول وولي وتابع ومتبوع يا ولي فأين الإنصاف؟!».

وبسط الشيخ في سياق هذا تنبيهات كثيرة، ثم قال ﷺ: «يا وليّ لقينا من أقطاب هذا

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢٩٩)، ومسلم (٤/ ٢٠١٧)، وقال الشيخ الأكبر: أي: الصورة التي يمثلها المحب لله في قلبه من صور المعتقدات، ولولا ذلك التصور ما صحت المحبة، إذ محبة الحق تعالى عينًا من حيث ذاته الأحدية لا يصح لانتفاء المجانسة، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٢٧٩)، ومسلم (٤/ ١٨٦٤).

المقام بجبل أبي قبيس بمكة في يوم واحد ما يزيد على السبعين رجلاً، وليس لهذه الطبقة تلميذ في طريقهم أصلاً، ولا يسلكون أحدًا بطريق التربية لكن لهم الوصية والنصيحة ونشر العلم فمن وفق أخذ به، ويقال: إن أبا السعود بن الشبل ﷺ كان منهم وما لقيته ولا رأيته؛ ولكن شممت له رائحة طيبة ونفسًا عطريًا، وبلغني أن عبد القادر الجيلي، وكان عدلاً قطب وقته شهد لمحمد بن قائد الأواني بهذا المقام كذا نقل إليّ - والعهدة على الناقل- فإن ابن قائد زعم أنه ما رأى هناك أمامه سوى قدم نبيه، وهذا لا يكون إلا لأفراد الوقت، فإن لم يكن من الأفراد، فلابدّ أن يرى قدم قطب وقته إمامه زائدًا على قدم نبيه إن كان إمامًا وإن كان وتدًا فيرى إمامه ثلاثة أقدام، وإن كان بدلاً يرى أربعة أقدام، وهكذا إلا أنه لابد أن يكون في حضرة الاتباع مقامًا فإذا لم يقم في حضرات الاتباع وعدل به عن يمين الطريق بين المخدع وبين الطريق فإنه لا يبصر قدمًا أمامه، وذلك هو طريق الوجه الخاص الذي من الحق إلى كل موجود، ومن ذلك الوجه الخاص تنكشف للأولياء هذه العلوم التي تنكر عليهم ويزندقون بها ويزندقهم بها ويكفرهم من يؤمن بها إذا جاءته عن الرسل، وهي العلوم عينها وهي التي ذكرناها آنفًا.

ولأصحاب هذا المقام التصريف والتصرف في العالم، فالطبقة الأولى من هؤلاء تركت التصرف لله في خلقه مع التمكن وتولية الحق لهم إياه تمكنًا لا أمرًا لكن عرضًا فلبسوا الستر ودخلوا في سرادقات الغيب واستتروا بحجب العوائد ولزموا العبودة والافتقار، وهم الفتيان الظرفاء الملامتية الأخفياء الأبرياء، وكان أبو السعود منهم كان - رحمه الله- ممن امتثل أمر الله في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل:٩] فالوكيل له التصرف، فلو أمر امتثل الأمر هذا من شأنهم، وأما عبد القادر فالظاهر من حاله أنه كان مأمورًا بالتصرف، فلهذا ظهر عليه هذا هو الظن بأمثاله، وأما محمد الأواني فكان يذكر أن الله أعطاه التصرف فقبله فكان يتصرف ولم يكن مأمورًا فابتلي؛ فنقصه من المعرفة القدر الذي علا أبو السعود به عليه، فنطق أبو السعود بلسان الطبقة الأولى من طائفة الركبان، وسميناهم أقطابًا لثبوتهم، ولأن هذا المقام - أعني: مقام العبودة- يدور عليهم لم أرد بقطبيتهم أن لهم جماعة تحت أمرهم يكونون رؤساء عليهم وأقطابًا لهم هم أجل من ذلك وأعلى فلا رياسة أصلاً لهم في نفوسهم لتحققهم بعبوديتهم، ولم يكن لهم أمر إلهي بالتقدم فما ورد عليهم فيلزمهم طاعته لما هم عليه من التحقق أيضًا بالعبودية فيكونون قائمين به في مقام العبودية بامتثال أمر سيدهم.

وأما مع التخيير والعرض أو طلب تحصيل المقام فإنه لا يظهر به إلا من لم يتحقق

بالعبودة التي خلق لها فهذا يا ولي قد عرفتك في هذا الباب بمقاماتهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وقال الشيخ: «وبقي التعريف بأصولهم، وتعيين أحوال الأقطاب المدبرين من الطبقة الثانية» - إن شاء الله تعالى- فشرع أن يبين لنا أصولهم - يعني: الأفراد والملامتية- فقال ﷺ في الباب الحادي والثلاثين في معرفة أصول الركبان: «اعلم - أيدك الله- أن الأصول التي اعتمد عليها الركبان كثيرة منها: التبرؤ من الحركة إذا أقيموا فيها، فلهذا ركبوا، فهم الساكنون على مراكبهم المتحركون بتحريك مراكبهم، فهم يقطعون ما أمروا بقطعه بغيرهم لا بهم فيصلون مستريحين مما تعطيه مشقة الحركة، متبرئين من الدعوى التي تعطيها الحركة حتى لو افتخروا بقطع المسافات البعيدة في الزمان القليل لكان ذلك الفخر راجعًا للمركب الذي قطع بهم تلك المسافة لا لهم فلهم التبرؤ وما لهم الدعوى فهجيرهم: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وآيتهم: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧].

يقال لهم: وما قطعتم هذه المسافات حين قطعتموها ولكن الركاب قطعتها فهم المحمولون، فليس للعبد صولة لا بسلطان سيده، وله الذلة والعجز والمهانة والضعف من نفسه.

ولما رأوا أن الله قد نبه بقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ [الأنعام:١٣] فأخلصه له علموا أن الحركة فيها الدعوى، وأن السكون لا تشوبه دعوى، فإنه نفي الحركة؛ فقالوا: إن الله قد أمرنا بقطع هذه المسافة المعنوية وجوب هذه المفاوز المهلكة إليه فإن نحن قطعناها بنفوسنا لم نأمن على نفوسنا من أن نمتدح بذلك في حضرة الاتصال فإنها مجبولة على الرعونة وطلب التقدم وحب الفخر فنكون من أهل النقص في ذلك المقام بقدر ما ينبغي أن نحترم به ذلك الجلال الأعظم؛ فلنتخذ ركابًا تقطع به، فإن أولدت الافتخار للركاب لا للنفوس فاتخذت من: (لا حول ولا قوة إلا بالله) نجبا لما كانت النجب أصبر عن الماء والعلف من الأفراس وغيرها، والطريق معطشة جدبة يهلك فيها من المراكب». فليراجع إلى محلها.

وقال الشيخ ﷺ في الباب الثالث والأربعين في معرفة الفتوة والفتيان: «فالفتى من لا خصم له؛ لأنه فيما عليه يؤديه، وفيما له يتركه، فليس له خصم، فالفتى من لا تصدر منه حركة عبثًا جملة واحدة، ومعنى هذا أن الله سمعه يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص:٢٧]، وهذه الحركة الصادرة من الفتى مما بينهما، وكذلك حركة

كل متحرك خلقه الله بين السماء والأرض فما هي عبث؛ فإن الخالق حكيم، فالفتى من يتحرّك أو يسكن لحكمة في نفسه.

ومن كان هذا حاله في حركاته فلا تكون حركته عبثًا لا في يده ولا في رجله ولا شمه ولا أكله ولا لمسه ولا سمعه ولا بصره ولا باطنه، فيعلم كل نفس فيه، وما ينبغي له، وما حكم سيده فيه، ومثل هذا لا يكون عبثًا.

وإذا كانت الحركة من غيره فلا ينظرها عبثًا، فإن الله خلقها أي: قدّرها، وإذا قدّرها فما تكون عبثًا ولا باطلاً فيكون حاضرًا مع هذا عند وقوعها في العالم، فإن فتح له بالعلم في الحكمة فيها فبخٍ على بخٍ وهو صاحب عناية، وإن لم يفتح له في العلم بالحكمة فيها فيكفيه حضوره في نفسه أنها حركة مقدرة منسوبة إلى الله، وإن لله فيها سرًّا يعلمه الله، فيؤديه هذا القدر من العلم إلى الأدب الإلهي، وهذا لا يكون إلا للفتيان أصحاب القوّة الحاكمين على طبائع النفوس والعادات، ولا يكون في هذا المقام من هذه الطائفة إلا الملامتية؛ فإن الله قد ولاهم على نفوسهم، وأيدهم بروح منه عليها، فلهم التصريف التام، والكلمة الماضية والحكم الغالب، فهم السلاطين في صور العبيد يعفرهم الملأ الأعلى فليس أحد مما سوى الأنس والجان إلا ويقول بفضله إلا بعض الثقلين، فإن الحسد يمنعهم من ذلك».

وقال الشيخ ﷺ في الباب الثامن والستين في معرفة أسرار الطهارة: «في نوع محل المسح، وهو ما يستر به الرجل من خف أو جورب، اعلم أن القائلين بالمسح على الخفين متفقون على المسح عليهما بلا شك، واختلفوا في المسح على الجوربين، فمن قائل بالمنع على الإطلاق، ومن قائل بالجواز على الإطلاق، ومن قائل بالجواز إذا كان على صفة خاصة، فإما أن يكون من الكثافة والثخانة بحيث ألا يصل ماء المسح إلى الرِّجل، أو يكون مبطنًا بجلد يجوز المشي فيه أي: يمكن المشي فيه وصل حكمه في الباطن، فأما حكم الباطن في ذلك فقد تقدم في الخوف، وبقي حكم الجورب.

فالمقرّر أن الجورب مثل الخف في الصفة الحجابية؛ فإن العبد حجاب دون خالقه، ولهذا ورد: «من عرف نفسه عرف ربه»[1] فإنه الدليل عليه، والدليل والمدلول وإن ارتبطا بالوجه الخاص فهما ضدّان لا يجتمعان، وقد قلنا فيما تقدم: إن الخف هو أدل على الرجل لا يقوى قوّة الخف للتخلل الذي فيه، فإن الماء ينفذ ويتخلل مسامه سريعًا والخف ليس كذلك، وحكمه في الباطن أن من العباد عباد الله من يكون في الدلالة على الله أقوى من

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٠٨) ومعناه أي: فكما لا يقدر على معرفتها فكذلك لا يقدر على معرفة ربه؛ فكأنها مرتبة تتجزأ للعبد، والله أعلم.

غيره فهو بمنزلة الجورب كما ثبت في الأثر عن الله في صفة أولياء الله، حدثني غير واحد عمن حدثه يبلغ به النبيّ ﷺ أنه قيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، مَن أولياء الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ اللهُ ﷻ»[1] ذكره الحافظ أبو نعيم في كتاب «حلية الأولياء» له، وذلك لما قلناه مما يرى عليهم من قوة الدلالة على الله تعالى من الاستهتار بذكره سبحانه، وما هم عليه من الذلة والطاعة والافتقار مع الأنفاس إلى الله، فإذا أراد الناس أن ينزهوهم لم يتمكن لهم تنزيههم إلا بتنزيه الله؛ فإنهم ما يذكرونهم إلا بالله لما تعطيهم أحوالهم الصادقة مع الله، فإن كان الخف مبطنًا بجلد فهو الملامي الذي يستر نفسه وحاله مع الله عن العالم السفليّ أن يدركوا مرتبة ولايته عند الله كما يستتر الجورب عن الأرض أن تدركه وتصيبه بالجلد الذي حال بين الأرض وبينه، وهو الصفة التي استتر بها هذا الملامي من المباحثات عن العالم الأسفل المحجوب فلم يدركوا منه إلا تلك فالصفة التي لم يتميز بها عن عامّة المؤمنين، وهو من خلف تلك الصفة في مقام الولاية مع الله، وبقى أعلى الجورب من جانب الأعلى مع الله سبحانه بلا حائل بينه وبين ربه ﷻ، وقد فتحت لك باب الاعتبار شرعًا وهو الجواز من الصورة التي ظهر حكمها في الحس إلى ما يناسبه في ذاتك أو في جناب الحق مما يدل على الحق هذا معنى الاعتبار فإنه من عبرت الوادي إذا قطعته وجزته».

وقال الشيخ ﷺ في الباب التاسع والستين في معرفة أسرار الصلاة في أواخر الباب: «فاعلم أن الله أمرنا بالصلاة على رسول الله ﷺ ولم يأمرنا بالصلاة على آله في القرآن، وجاء الإعلام في تعليم رسول الله ﷺ إيانا الصلاة عليه بزيادة الصلاة على الآل، فما طلب ﷺ الصلاة من الله عليه مثل صلاته على إبراهيم من حيث أعيانهما فإن العناية الإلهية برسول الله ﷺ أتم إذ قد خُصَّ بأمور لم يخص بها نبيّ قبله لا إبراهيم ولا غيره، وذلك من صلاته تعالى عليه فكيف يطلب الصلاة من الله عليه مثل صلاته على إبراهيم من حيث عينه، وإنما المراد من ذلك ما أبينه إن شاء الله.

وذلك أن الصلاة على الشخص قد تصلى عليه من حيث عينه ومن حيث ما يضاف إليه غيره، فكأن الصلاة من حيث ما يضاف إليه غيره هي الصلاة من حيث المجموع إذ للمجموع حكم ليس للواحد إذا انفردوا علم أن آل الرجل في لغة العرب هم خاصته الأقربون إليه، وخاصة الأنبياء وآلهم هم الصالحون العلماء بالله المؤمنون، وقد علمنا أن

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٢٧).

إبراهيم كان من آله أنبياء ورسل لله، ومرتبة النبوّة والرسالة قد ارتفعت في الشاهد في الدنيا فلا يكون بعد رسول الله ﷺ في أمّته نبيٌّ يشرِّع الله له خلاف شرع محمد ﷺ، ولا رسول وما منع المرتبة ولا حجرها من حيث لا تشريع ولاسيما، وقد قاله ﷺ فعين حفظ القرآن أن النبوّة أدرجت بين جنبيه أو كما قال ﷺ وقال في المبشرات: «إنها جزء من أجزاء النبوّة»[1] فوصف بعض أمّته بأنهم قد حصل لهم المقام وإن لم يكونوا على شرع يخالف شرعه.

وقد علمنا بما قال لنا ﷺ أن عيسى عليه السلام ينزل فينا حكمًا مقسطًا عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ولا نشك قطعًا أنه رسول الله ونبيه وهو ينزل فله عليه السلام مرتبة النبوّة بلا شك عند الله، وما له مرتبة التشريع عند نزوله، فعلمنا بقوله ﷺ إنه «لا نبي بعدي ولا رسول» وإن النبوّة قد انقطعت والرسالة إنما يريد بهما التشريع، فلما كانت النبوّة أشرف مرتبة وأكملها ينتهي إليها من اصطفاه الله من عباده علمنا أن التشريع في النبوّة أمر عارض بكون عيسى عليه السلام ينزل فينا حكمًا من غير تشريع وهو نبيّ بلا شك فخفيت مرتبة النبوّة في الخلق بانقطاع التشريع.

ومعلوم أن آل إبراهيم من النبيين والرسل الذين كانوا بعده مثل إسحاق ويعقوب ويوسف ومن انتسل منهم من الأنبياء والرسل – عليهم السلام – بالشرائع الظاهرة الدالة على أن لهم مرتبة النبوّة عند الله أراد رسول الله ﷺ أن يلحق أمّته وهم آله العلماء الصالحون منهم بمرتبة النبوّة عند الله وإن لم يشرعوا ولكن أبقى لهم من شرعه ضربًا من التشريع، فقال: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد» أي: صل عليه من حيث ما له [من] آل «كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»[2] أي: من حيث إنك أعطيت آل إبراهيم النبوّة تشريفًا لإبراهيم فظهرت نبوّتهم بالتشريع، وقد قضيت ألا شرع بعدي فصَلِّ عليّ وعلى آلي بأن تجعل لهم مرتبة النبوّة عندك وإن لم يشرعوا، فكأن من كمال رسول الله ﷺ أن نسخت الشرائع بعضها بعضًا.

وما علمنا رسول الله ﷺ الصلاة عليه على هذه الصورة إلا بوحي من الله، وبما أراه الله، وأن الدعوة في ذلك مجابة فقطعنا أن في هذه الأمّة من لحقت درجته درجة الأنبياء في النبوة عند الله لا في التشريع، ولهذا بين رسول الله ﷺ وأكد بقوله: «فلا رسول بعدي ولا نبيّ»[3] فأكّد بالرسالة من أجل التشريع، فأكرم الله رسوله ﷺ بأن جعل آله شهداء على أمم الأنبياء كما جعل الأنبياء شهداء على أممهم.

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٥٣٣)، وأحمد في المسند (٣/ ٢٦٧).

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٢٣٣)، ومسلم (١/ ٣٠٥).

(٣) تقدم تخريجه.

ثم إنه خصَّ هذه الأمّة – أعني: علماءها– بأن شرع لهم الاجتهاد في الأحكام، وقرّر حكم ما أدّاه إليه اجتهادهم وتعبدهم به، وتعبد من قلدهم به كما كان حكم الشرائع للأنبياء ومقلديهم، ولم يكن مثل هذا لأمّة نبيّ ما لم يكن نبي يوحى منزل، فجعل الله وحي علماء هذه الأمة في اجتهادهم، كما قال لنبيه ﷺ: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥] فالمجتهد ما حكم إلا بما أراه الله في اجتهاده، فهذه نفحات من نفحات التشريع ما هو عين التشريع فلآل محمد ﷺ وهم المؤمنون من أمته العلماء مرتبة النبوّة عند الله تظهر في الآخرة، وما لها حكم في الدنيا إلا هذا القدر من الاجتهاد المشروع لهم، فلم يجتهدوا في الدين والأحكام إلا بأمر مشروع من عند الله، فإن اتفق أن يكون أحد من أهل البيت بهذه المثابة من العلم والاجتهاد وهم هذه المرتبة كالحسن والحسين وجعفر وغيرهم من أهل البيت فقد جمعوا بين الأهل والآل، فلا تتخيل أن آل محمد ﷺ هم أهل بيته خاصة ليس هذا عند العرب، وقد قال تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر:٤٦] يريد خاصته فإن الآل لا يضاف بهذه الصفة إلا للكبير القدر في الدنيا والآخرة؛ فلهذا قيل لنا: «**قولوا اللهمّ صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم**»[(١)] أي: من حيث ما ذكرناه لا من حيث أعيانهما خاصة دون المجموع، فهي صلاة من حيث المجموع.

وذكرناه لأنه تقدّم بالزمان على رسول الله ﷺ فرسول الله ﷺ قد ثبت أنه سيد الناس يوم القيامة، ومن كان بهذه المثابة عند الله كيف تحمل الصلاة عليه كالصلاة على إبراهيم من حيث أعيانهما؟! فلم يبق إلا ما ذكرناه، وهذه المسألة هي عن واقعة إلهية من وقائعنا، فلله الحمد والمنة.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**علماء هذه الأمة كأنبياء سائر الأمم**»، وفي رواية: «**أنبياء بني إسرائيل**»[(٢)] وإن كان إسناد هذا الحديث ليس بالقائم؛ ولكن أوردناه تأنيسًا للسامعين أن علماء هذه الأمة قد التحقت بالأنبياء في الرتبة، وأما قول النبي ﷺ في قوم يوم القيامة «**تنصب لهم منابر يوم القيامة ليسوا بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الأنبياء والشهداء**»[(٣)] ويعني بالشهداء هنا الرسل؛ فإنهم شهداء على أممهم فلا نريد بهؤلاء الجماعة من ذكرناهم وغبطهم إياهم فيما هم فيه من الراحة وعدم الحزن والخوف في ذلك الموطن والأنبياء والرسل وعلماء هذه الأمة الصالحون الوارثون درجات الأنبياء خائفون وجلون على أممهم، وأولئك لم يكن لهم أمم، ولا اتباع وهم آمنون على أنفسهم مثل الأنبياء على أنفسهم

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٨٣).
(٣) رواه أبو داود (٣/ ٢٨٨)، وأحمد (٥/ ٣٤١).

آمنون، وما لهم أمم ولا أتباع يخافون عليهم، فارتفع الخوف عنهم في ذلك اليوم في حق نفوسهم وفي حق غيرهم كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٣] يعني: على نفوسهم وغيرهم من الأنبياء والعلماء ولكن الأنبياء والعلماء يخافون على أممهم وأتباعهم ففي مثل هذا تغبطهم في ذلك الموقف فإذا دخلوا الجنة وأخذوا منازلهم تبيَّنت المراتب، وتعينت المنازل، وظهر عليون لأولي الألباب، فهذه مسألة عظيمة الخطر جليلة القدر لم نر أحدًا ممن تقدّمنا تعرض لها ولا قال فيها مثل ما وقع لنا في هذه الواقعة إلا إن كان وما وصل إلينا فإن لله في عباده أخفياء لا يعرفهم سواه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فقد تبين لك أن صلاة الحق على عباده باختلاف أحوالهم فالله يجعلنا من أجلهم عنده قدرًا ولا يحول بيننا وبين عبوديتنا، وتلخيص ما ذكرناه هو أن يقول المصلي: اللهم صل على محمد بأن نجعل آله من أمّته كما صليت على إبراهيم بأن جعلت آله أنبياء ورسلاً في المرتبة عندك، وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم بما أعطيتهم من التشريع والوحي فأعطاهم الحديث فمنهم محدّثون، وشرع لهم الاجتهاد، وقرّره حكمًا شرعيًا فأشبهت الأنبياء في ذلك، فحقق ما أومأنا إليه في هذه المسألة تر الحق حقًا، وﷺ على إمام الجمع، وسر الأصل والفرع محمد وآله وصحبه أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا طيبًا مباركًا، كما يحب ربنا ويرضى».

قال الشيخ ﷺ في الباب الحادي والسبعين في أسرار الصوم في فصل صيام سر الشهر: « اعلم إنه صوم يوم ورد به الأمر من النبي ﷺ رويناه من طريق أبي داود عن عبد الله بن العلاء عن المغيرة بن قرّة قال: قام معاوية في الناس يوم مسحل الذي على باب حمص فقال: يا أيها الناس، إنا قد رأينا الهلال يوم كذا وكذا، وأنا متقدّم بالصوم فمن أحب أن يفعل فليفعله، قال فقام إليه مالك بن هبيرة السلمي فقال: يا معاوية، أشيء سمعته من رسول الله ﷺ أم شيء من رأيك؟ قال: فقال: سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «صُومُوا الشَّهْرَ وَسِرَّهُ»[1].

فاعلم أن السرَّ ضدّ الشهرة، وبها سمي الشهر شهرًا لاشتهاره وتمييزه، واعتناء المسلمين به وأصحاب تسيير الكواكب، فرغب في الصوم في حال السرِّ والإعلان.

واعلم أن سرَّ الشهر هو الوقت الذي يكون فيه القمر في قبضة الشمس تحت شعاعها، كذلك العبد إذا أقيم في مشهد من مشاهد القرب الذي تطلبه عيون الأكوان فيه

---

(١) رواه أبو داود (٢/ ٢٩٩)، وانظر: «الفتوحات المكية» (٢/ ٢٧٦).

فلا تبصره، وذلك مقام الأخفياء الأبرياء الذين لم يتميزوا في العامّة في هذه الدار تحققًا بصفة سيدهم حيث لم يجعل سبيلاً إلى رؤيته في هذه الدار لحصول دعاوى الكون في المرتبة الإلهية، فقالوا: ينبغي ألا نظهر إلا بظهور مولانا، وذلك في الآخرة حيث يقول: «لمن الملك اليوم» فلا يجرأ أحد يدّعيه، فهناك تظهر هذه الطبقة أن لله أخفياء في عباده وضغائن اكتنفهم في صونه، فلما تشبهوا بسيدهم في هذه الصفة من الستر وعدم الظهور لزمهم صوم سر الشهر؛ فإن الصوم صفة صمدانية فاتصفوا بصفة الحق في هذا التقريب كما اتصفوا به في الإعلان في صوم الواجب كشهر رمضان فإنه ظهر هناك باسمه رمضان، وسمي به الشهر حجابًا عنه تعالى، والعامة تقول: صمت رمضان، والعارف يقول: شهر رمضان معلنًا، فإن الله قال لهم: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] وهو إعلان رمضان وشهرته: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾».

وقال الشيخ ﷺ في أواخر هذا الباب في فصل ما يكون عليه المعتكف في نهاره: «ذكر أبو أحمد من حديث عبد الله بن ورقاء المكي عن عمر بن دينار عن ابن عمر عن عمر – رضي الله عنهما: أنه نذر أن يعتكف في المسجد الحرام، فقال له رسول الله ﷺ: «اعتكف وصم»[١] اعتباره أمر رسول الله ﷺ من أراد الإقامة مع الله أن يقيم معه بصفة هي الله، وهي الصوم ليكون مع الله بالله الله فلا يرى منه شيء إلا الله.

وهذه حالة أهل الله، قيل لرسول الله ﷺ: من أولياء الله؟ قال: «الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ اللهُ ﷻ»[٢] أي: لتحققهم بالله يغيبون به عنهم، وعن عيون الخلق فإذا رآهم الناس لم يروا غير الله فتذكرهم بالله رؤيتهم مثل الآيات المذكرات، وهذا هو المقام الذي سأله رسول الله ﷺ في دعائه: «واجعلني نور»[٣] فأجاب الله دعاءه فأخبرنا أنه بعثه إلى الناس ﴿شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥، ٤٦] فجعله نورًا كما سأل، فإن قوله لربه: «واجعلني نورًا» فأكون بذاتي عين الاسم الإلهي النور، ومن كان الحق سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله ولا ينطق عن الهوى فما هو وما بقي لمن يراه ما يرى إلا الله عرف ذلك الرائي أو لم يعرفه هكذا يشاهدونه أهل العلم بالله من المؤمنين الخلفاء يظهر في العالم والسوقة بصفات من استخلفها.

قالت بلقيس في عرشها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل:٤٢] وما كان إلا هو ولكن حجبها

---

(١) رواه أبو داود (٣/ ٣٣٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه مسلم (١/ ٥٢٨).

بُعد المسافة وحكم العادة، وجهلها بقدر سليمان عليه السلام عند ربه، فهذا حجبها أن تقول: هو هو فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ وأيّ مسافة أبعد من ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١] ممن مثله أشياء.

قال الكامل ﷺ: «إنما أنا بشر مثلكم»[(١)] عن أمر الله، قيل له: قل، فقال قل: «إنما أنا بشر مثلكم» وبهذا علمنا أنه عن أمر الله؛ لأنه نقل الأمر لنا كما نقل المأمور، وكان هذا القول دواء للمرض الذي قام بمن عبد عيسى عليه السلام من أمته فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة:١٧] وفاتهم علم كثير حيث قالوا: ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ وما شعروا؛ ولهذا قال الله تعالى في إقامة الحجة على من هذه صفته: ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡ﴾ [الرعد:٣٣] فما يسمونهم إلا بما يعرفون به من الأسماء حتى يعقل عنهم ما يريدون، فإذا سموهم تبين في نفس الاسم أنه ليس الذي طلب منهم الرسول المبعوث إليهم أن يعبدوه، وإنما قلنا: هو هو لما يعطيه الكشف الصحيح في الخصوص والإيمان الصريح في العموم كما ورد به الخبر النبويّ الإلهيّ من: «أن الله إذا أحب عبده كان سمعه وبصره...»[(٢)] وذكر قواه وجوارحه، والإنسان ليس غير هذه الأمور المذكورة الذي جعل الحق هويته عينها، فإن كنت مؤمنًا عرفت بمن أنت، وإن كنت صاحب شهود صحيح عرفت من شاهدت، وأكثر من هذا البيان النبويّ عن الله ما يكون في قوّة الإنسان حتى يكون المؤمن صاحب حال عيان فيعرف عند ذلك من هو عين هذه الأكوان والأعيان».

وقال الشيخ رضي الله عنه في الباب الثالث والسبعين في ذكر الأقطاب والأوتاد وأصناف رجال الله في خلال ذكرهم ومنهم رضي الله عنهم الملامتية: «وهم سادات أهل طريق الله وأئمتهم، وسيد العالم فيهم ومنهم وهو سيدنا محمد رسول الله ﷺ، وهم الحكماء الذين وضعوا الأمور مواضعها، وأحكموها، وأقروا الأسباب في أماكنها، ونفوها في المواضع التي ينبغي أن تنفى عنها، ولا أخلوا بشيء مما رتبه الله في خلقه على حسب ما رتبوه فما تقتضيه الدار الأولى تركوه للدار الأولى، وما تقتضيه الدار الآخرة تركوه للدار لآخرة فنظروا في الأشياء بالعين التي نظر الله إليها لم يخلطوا بين الحقائق، فإنه من رفع السبب في الموضع الذي وضعه فيه واضعه وهو الحق فقد سفه واضعه وجهل قدره، ومن اعتمد عليه فقد أشرك وألحد، وإلى أرض الطبيعة أخلد، فالملامتية قررت الأسباب ولم تعتمد عليها، فتلامذة الملامتية الصادقون يتقلبون في أطوار الرجولية، وتلامذة غيرهم يتقلبون في أطوار الرعونات النفسية، فالملامتية مجهولة أقدارهم لا يعرفهم إلا سيدهم الذي حباهم وخصهم بهذا المقام، ولا عدد يحصرهم بل يزيدون وينقصون.

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٥٦)، ومسلم (١/ ٤٠١).

(٢) أصل الحديث رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٤).

ومنهم ﷺ: الفقراء ولا عدد يحصرهم أيضًا بل يكثرون ويقلون.

ومنهم ﷺ: الأمناء، قال النبي ﷺ: «إن لله أمناء»[1] وقال في أبي عبيدة بن الجراح: «إنه أمين هذه الأمة»[2].

وَمُسْتَخبِرٍ عَنْ سِرِّ لَيلى رَدَدتُهُ ... بِعَمياءَ مِن رَيّا بِغَيرِ يَقينِ

يقولونَ: خَبرنَا، فأنتَ أمينُهَا ... ومَا أنَا إنْ خَبَّرتهمْ بأمينِ

هم طائفة من الملامتية لا تكون الأمناء من غيرهم، وهم أكابر الملامتية وخواصهم فلا يعرف ما عندهم من أحوالهم لجريهم مع الخلق بحكم العوائد المعلومة التي يطلبها الإيمان بما هو إيمان، وهو الوقوف عندما أمر الله به، ونهى على جهة الفرضية، فإذا كان يوم القيامة وظهرت مقاماتهم للخلق وكانوا في الدنيا مجهولين بين الناس قال النبي ﷺ: «إن لله أمناء»[3].

وكان الذي آمنوا عليه ما ذكرناه، ولولا أن الخضر أمره الله أن يظهر لموسى عليه السلام بما ظهر ما ظهر له بشيء من ذلك، فإنه من الأمناء.

ولما عرض الله الأمانة على الإنسان وقبلها كان بحكم الأصل ظلومًا جهولاً، فإنه خُوطب بحملها عرضًا لا أمرًا، فإن حملها جبرًا أعين عليها مثل هؤلاء، فالأمناء حملوها جبرًا لا عرضًا، فإنه جاءهم الكشف، فلا يقدرون أن يجهلوا ما علموا، ولم يريدوا أن يتميزوا عن الخلق؛ لأنه ما قيل لهم في ذلك أظهروا شيئًا منه، ولا لا تظهروه، فوقفوا على هذا الحد فسموا: أمناء.

ويزيدون على سائر الطبقات أنهم لا يعرف بعضهم بعضًا بما عنده، فكل واحد يتخيل في صاحبه أنه من عامة المؤمنين، وهذا ليس إلا لهذه الطائفة خاصة لا يكون ذلك لغيرهم».

وقال الشيخ ﷺ في الباب السادس والسبعين في المجاهدة في أول هذا الباب: «اعلموا - وفقكم الله- أني لما شرعت في الكلام على هذا الباب أريت مبشرة عرفت فيها أن الناس لا بد أن ينزل بهم أمر ألهي عارض يحتاجون فيه إلى حمل مشقة وجهد نفسي

---

(١) ذكره ابن الأشكل في «الكرامات الجبرتية» (ص ٦٨) بتحقيقنا، فالأمناء علمٌ على طائفة الملامتية من أكابرهم وخواصهم ويزيدون على سائر الطبقات أنه لا يعرف بعضهم بعضًا بما عنده، فكل واحد يتخيل في صاحبه أنه من عامة المؤمنين.

(٢) رواه البخاري (٤/ ١٥٩٢)، ومسلم (٤/ ١٨٨١).

(٣) تقدم.

وحسي، وقيل لي: لا تغفل في كل باب أن تدرج فيه الحروف الصغار وتبين أن بإشباعها تكون الحروف الثلاثة التي هي حروف العلة وهي حروف المد واللين، وهي الحروف المركبة من علة ومعلول، ويكون كلامك فيها وإشارتك إلى أربعة أصناف وهم العارفون الذين لهم العوارف الإلهية الوجودية الجودية في معرفتهم، وأهل المواقف عند الحدود الإلهية لتلقي الأدب بين كل مقامين عند الانتقال في حال لا يتصفون فيه بالمقام الأول ولا بالثاني، وهم أهل البرازخ، وكذلك أيضًا أهل الوصال والأنس تعين ما لهم من الدرجات في كل مقام كما تبين ما لأهل المواقف سواء حتى لا يختلط على السالك، وكذلك أيضًا المنكرة أحوالهم وهم الملامتية الذين يعرفون ولا يُعرفون، تميزهم من أهل عوارف المعارف، وتظهر ما لهم من الكمال، وهم العلماء بالله فهؤلاء الأربعة لابد من تمشية أحوالهم في كل مقام، وهم العارفون والملامتية وأهل الأُنس والوصال، وأصحاب المواقف والقول، وهم الأدباء فإنك مأمور بالنصح لعباد الله عن أمر الله و«الدِّينُ النَّصِيحَةُ لله وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»(1) فلما فرغ وارد البرزخ في الواقعة قمنا من مرقدنا، وسألنا الله تعالى العصمة في القول والعمل والحال».

وقال ﵁ في سياق هذا المحل في الحروف الصغار ومراتب أولادها بعد تبيين بعض التحقيق: «اعلم - أيدك الله- أن المجاهدين هم أهل الجهد والمشقة والمكابدة، وهم أربعة أصناف: مجاهدون من غير تقييد بأمر وهو قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [النساء:٩٥].

والصنف الثاني: مجاهدون بتقييد في سبيل الله وهو قوله: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٩٥].

والصنف الثالث: المجاهدون فيه وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] أي: نبين لهم حتى يعلموا فيمن جاهدوا، فيجاهدون عند ذلك أو لا يجاهدون.

والصنف الرابع: المجاهدون في الله حق جهاده، فميزهم عن المجاهدين من غير هذا التقييد، كالذين يتقون الله حق تقاته، ويتلون الكتاب حق تلاوته، فهي مرتبة رابعة في الجهاد، وهذه المجاهدة من المقامات المستصحبة للتكليف، فما دام التكليف موجودًا كانت المجاهدة قائمة العين، فإذا زال حكم التكيف زالت المجاهدة، ولهذا نفس الله عن المكلفين بصنف المباح لما شفعت فيهم الصورة التي خلقوا عليها؛ لأنها غير محجور عليها فلما رأت

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٠)، ومسلم (١/ ٧٤).

من يشبهها قد حجر عليه سألت فيه رفع الحجر عنه، فقيل لها إلى ذلك مآله في الآخرة، فقالت: فلا بد له أن يكون له حكم في الحياة الدنيا؛ ليكون لي بشرى بقبول الشفاعة، فإنك القائل لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فإن هذه الصورة متنزهي وموضع نظري، فإذا رأيت عليها التحجير أرى الانكسار فيها، ولا نرى أثر العناية فيها مع كونها مخلوقة على صورتي، ولا تحجير عليَّ فشرع الله لها في الدنيا المباح، فلا تنظر إليها الصورة الإلهية إلا في وقت تصرفها في المباح، وهو أرفع أحوال النفس في الدنيا فإنه من الحياة الأخرى التي لا تحجير فيها، فإذا انتقلت من المباح إلى مكروه أو مندوب أعرضت الصورة عن المكلف قليلاً، ونأت بجانبها مع بعض التفات إليها، فإذا انتقلت إلى محظور أو فعل واجب أسدلت الحجاب وأعرضت بالكلية عن ذلك المكلف، فلما رأى ذلك من كلفها وحجر عليها، وهو الله تعالى أوجب على نفسه ما أوجبه مثل قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤] و﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧] فرفع الحجاب، ونظرت الصورة إلى كل واحد في كل حال من أحوال الأحكام، فانظر يا ولي ما ألطف الله، وما أرأفه بعباده حيث شرك نفسه معهم في حكم الوجوب، وما أسقط الوجوب عنهم بل أدخل نفسه معهم فيه إذ قد اتصفوا به ابتداء، فلو أزاله عنهم لم يقم عندهم مقام إدخال نفسه معهم فيه، أي: ذقنا ما ذوقناكم هذا، وغاية اللطف في الحكم والتنزل الإلهي، كما نزل معهم في العلم المستفاد إذ كان علمهم مستفادًا فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد:٣١] وهو العليم بأنفسهم، وفيه حكم إيمان يقصد به من يسمع ممن لا يعرف الله قولهم: إن الله لا يعلم الجزئيات، وإن كانوا قصدوا بذلك التنزيه، وهذه مسألة لا يمكن تحقيقها بالعقل ما لم يكن الكشف بكيفية تعلق العلم الإلهي بالمعلومات، وأنه ليس في حق الحق ماضٍ ولا آتٍ، وأنه مازال ولا يزال، لا يتصف بأنه لم يكن ثم كان، ولا بانقضاء بعدما كان، وربما يعطي الله هذه القوة لمن شاء من عباده، وقد ظهر منها نفحة على محمد ﷺ علم بها علم الأولين والآخرين، فعلم الماضي والمستقبل في الآن، فلولا حضور المعلومات له في حضرة الآن لما وصف بالعلم بها؛ فهذا يعلم أن الله يعلم الجزئيات علمًا صحيحًا غاب عنه من قصد التنزيه بنفيه عن جناب الحق.

ثم نرجع ونقول: إن المجاهدة حمل النفس عن المشاق البدنية المؤثرة في المزاج وهنًا وضعفًا، كما أن الرياضة تهذيب الأخلاق النفسية بحملها على احتمال الأذى في العرض والخارج عن بدنه مما لا حركة فيه بدنية، ثم إن هذه الحركات البدنية المحمودة شرعًا منها حركات في سبيل الله مطلقًا، وهي أنواع سبيل كل بر مشروع، فمنه ما فيه مشقة فيسمى مجاهدة، ومنه ما لا مشقة فيه فيرتفع عنها حكم هذا الاسم، وهذا الباب مخصوص بما فيه

مشقة لهذا سميناه: «باب المجاهدة» فنظرنا إلى أعظم المشاق، فلم نجد أعظم من إتلاف المهج في سبيل الله، وهو الجهاد في سبيل الله الذي وصف الله قتلاه بأنهم: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] ونهى أن يقال فيهم أموات، ونفى العلم عمن يلحقهم بالأموات للمشاركة في صورة مفارقة الإحسان وعدم وجود الأنفاس، وهذا من أدل دليل على إبطال القياس؛ لأن المعتقدين موت المجاهدين المقتولين في سبيل الله إنما اعتقدوه قياسًا على المقتول في غير سبيل الله بالعلة الجامعة في كونهم رأوا كل واحد من المقتولين في صورة واحدة من عدم الأنفاس والحركات الحيوانية، وعدم الامتناع مما يراد من الفعل بهم من قطع الأعضاء، وتمزيق الجلود، وأكل سباع الطير والسباع، واستحالة أجسامهم إلى الدود والبلى؛ فقاسوا فأخطئوا القياس، ولا قياس أوضح من هذا ولا أدل في وجود العلة منه، ومع هذا أكذبهم الله وقال لهم ما هو الأمر في المقتول في سبيلي كالمقتول في غير سبيلي: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] فقال لهم: ذلك الحكم الذي حكمتم به علي المقتولين في سبيل الله ليس بعلم، وإذا لم يكن علمًا لم يكن صحيحًا، وإذا لم يصح لم يجز الحكم به من علمنا بإخبار الله أن ذلك ليس بصحيح، ثم قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤] فنفى عنهم العلم الذي أعطاهم القياس.

فإذا كان حكم هذا القياس على وضوحه وعدم الريب فيه وتوفر أسبابه وظهور علله الجامعة بينه وبين غيره من القتلى - وهو باطل بإخبار الله- فما ظنك بقياس الفقهاء في النوازل، وقياس العقلاء بحكم الشاهد على الغائب في معرفة الله هيهات صدق الله وكذب أهل القياس على الله، والله لا أشبه من ليس كمثله شيء من مثله الأشياء.

فلما كان إتلاف المهج أعظم المشاق على النفوس لهذا سمى: جهادًا، فإن النفوس نفسان: نفس ترغب في الحياة الدنيا؛ لألفتها بها، فلا تريد المفارقة وتشق عليها، ونفس ترغب في الحياة الدنيا لتزيد بذلك طاعة وأفعالاً مقربة، ومعرفة إلهية وترقيًا دائمًا مع الأنفاس، فشق عليها مفارقة الحياة الدنيا، فلهذا سمى جهادًا في حق الطائفتين.

فأما المجاهدون في سبيل الله، وهي الطريق إلى الله أي: إلى الوصول إليه من كونه إلهًا فهو جهاد لنيل معرفة المرتبة التي عنها ظهر العالم والأحكام فيه، وعنها تكون الخلائف في الأرض، فينالهم في هذه السُّبل من المشقة ما يناله المسافر في طريق المخوفة، فإنه في طريق عرض نفسه في السلوك فيه إلى إتلاف ماله ونفسه ويتم أولاده وفقد مألوفاته، قال تعالى: ﴿وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٧٢]، وقال: ﴿يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة:١١١].

ولما علم الله من العباد أنه يكبر عليهم مثل هذا لدعواهم أن نفوسهم وأموالهم لهم كما أثبتها الحق لهم، والله لا يقول إلا حقًا، فقدم شراء الأموال والنفوس منهم حتى يرفع يدهم عنها، فبقي المشترى يتصرف في سلعته كيف يشاء، والبائع وإن أحب سلعته فالعوض الذي أعطاه فيها وهو الثمن أحب إليه مما باعه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة:١١١] وبعد هذا الشراء أمر أن يجاهد بها في سبيل الله ليهون ذلك عليهم، فهم يجاهدون بنفوس مستعارة، أعني: النفوس الحيوانية القائمة بالأجسام، والأموال مستعارة فهم كمن سافر على دابة معارة ومال غيره، وقد رفع عنه الحرج مالكها عندما أعاره أن نفقت الدابة وهلك المال فهو مستريح القلب، فما بقي عليه مشقة نفسية إن كان مؤمنًا إلا ما يقاسي هذا المركب الحيواني من المشقة من طول الشقة وتعب الطريق، وإن كان في قتال العدو فما ينال من الكر والفر والطعن بالرماح والرشق بالسهام والضرب بالسيوف، والإنسان مجبول على الشفقة الطبيعية، فهو يشفق على مركوبه من حيث إنه حيوان لا من جهة مالكه، فإن مالكه قد علم منه هذا المعير أنه يريد إتلافه، فذلك محبوب له فلم يبقى له عليه شفقة إلا الشفقة الطبيعية، فالنفوس التي اشتراها الحق في هذه الآية إنما هي النفوس الحيوانية اشتراها من النفوس الناطقة المؤمنة، فنفوس المؤمنين الناطقة هي البائعة المالكة لهذه النفوس الحيوانية التي اشتراها الحق منها؛ لأنها التي يحل بها القتل وليست هذه النفوس بمحل الإيمان، وإنما الموصوف بالإيمان النفوس الناطقة ومنها اشترى الحق نفوس الأجسام، فقال: اشترى من المؤمنين وهي النفوس الناطقة الموصوفة بالإيمان أنفسهم التي هي مراكبهم الحسية، وهي الخارجة للقتال بهم والجهاد، فالمؤمن لا نفس له في الشفقة عليها إلا الشفقة الذاتية التي في النفس الناطقة على كل حيوان.

وأما المجاهدون الذين لم يقيدهم الله بصفة معينة لا في سبيل الله ولا فيه ولا بحق جهاد فهم المجاهدون بالله الذي ليس من صفته التقييد، فجهاده في كل شيء، وهو الجهاد العام، ونسبة الجهاد إليه فيه الذي هو المشقة لكونه سماه مجاهد ولم يقيد في ماذا يجاهد؟

فهو حكم القضاء والقدر في الأشياء التي يحصل منه الكره في المقضي عليه بما قضى به عليه، والحق لا يريد مساءته لما له بهذا العبد من العناية، فقال في هذا المقام: «ما ترددت في شيءٍ أنا فاعله ترددي في قبض نسمة عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولابد له من لقائي»[1] يقول: «ولا بد له من الموت» لما سبق به العلم، فيقبضه عن مجاهدة مطلقة غير

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٤)، والنسائي (٤/ ٩).

مقيدة بأذى ولا غيره، ولكن تنبيهه تعالى بالتردد دليل على حكم مناسب حكم المجاهدة، فإنه ما جاء به ألا ليقيدنا العلم بالأمر على ما هو عليه، فإنه سبحانه المعلم عباده العنم وهو قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾ [القصص:٨٠].

وهو الذي أعطاهم العلم من اسمه (الرحمن) الذي قال فيه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥].

فالمجاهدون من العباد الذين لا يتقيدون كما أطلقهم الله هم المترددون في الأفعال الصادرة أعيانها فيهم هل ينسبونها إلى الله؟! ففيها ما لا ينبغي أن ينسب إليه أدبًا وتبرأ الحق منها كما قال: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١] أو ينسبونها لأنفسهم ففيها ما ينبغي أن ينسب إلى الله أدبًا مع الله ونسبة حقيقته ورأوا الله يقول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال:١٧] فنفي وأثبت عين ما نفى، ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ فجعل الإثبات بين نفيين، فكان أقوى من الإثبات لما له من الإحاطة بالمثبت، ثم قال: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في نفس هذه الآية، فعلمنا أن الله خيَّر المؤمنين وهو ابتلاؤه بما ذكر من نفي الرمي وإثباته وجعله بلاء حسنًا أي إن نفاه العبد عنه أصاب وإن أثبته له أصاب، وما بقي ألا أي الإصابتين أولى بالعبد، وإن كان كله حسنًا، وهذا موضع الحيرة؛ ولذلك سمَّاه بلاء أي: موضع اختبار، فمن أصاب الحق وهو مراد الله أي الإصابتين أو أي الحكمين أراد حكم النفي أو حكم الإثبات كان أعظم عند الله من الذي لا يصيب ذلك، فهؤلاء هم المجاهدون الذين فضلهم الله على القاعدين عن هذا النظر أجرًا عظيمًا، وما عظم الله فلا يقدر قدره درجات منه، وما جعلها درجة واحدة كما قال في المجاهدين في سبيل الله حيث جعل لهم درجة واحدة ثم زادهم ما ذكر في تمام الآية، فهذان صنفان قد ذكرنا.

وأما الصنف الثالث: وهم الذين ﴿وَجَٰهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج:٧٨] فالهاء من ﴿جِهَادِهِ﴾ تعود على الله أي: يتصفون بالجهاد أي: في حال جهاده صفة الحق كما ذكرنا في التردد الإلهي أي: لا يرون مجاهدًا ألا الله، وذلك لأن الجهاد وقع فيه، ولا يعلم أحد كيف الجهاد في الله ألا الله، فإذا ردوا ذلك إلى الله وهو قوله: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ فنسب الجهاد إليه بإضافة الضمير فكان المجاهد لا هم، وإن كانوا محل ظهور الآثار فهم المجاهدون لا مجاهدون، قال الله لموسى: «يا موسى أشكرني حق الشكر، قال: يا رب، ومن يقدر على ذلك؟ قال: إذا رأيت النعمة مني فقد شكرتني حق الشكر»(١) وهذا الحديث خرَّجه ابن ماجه في «سننه».

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في الزهد (٦٧)، والبيهقي في الشعب (٦/ ٥٢٢).

فكل عمل أضفته إلى الله عن ذوق وكشف ومشاهدة لا عن اعتقاد وحال بل عن مقام وعلم صحيح فقد أعطيت ذلك العمل حقه، حيث رأيته ممن هو له فحيث ما وقع لك مثل هذا فشرحه ما شرحه به الله على لسان رسوله فبلغه إلينا، وهي طريقة موصلة إلى الله سهلة لينة قريبة المأخذ مستوية لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا.

والصنف الرابع: هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] الذين قلنا لهم فيها: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣] يعني: السبيل التي لكم فيها السعادة وإلا فالسبيل كلها إليه؛ لأن الله منتهى كل سبيل فإليه يرجع الأمر كله، ولكن ما كل من رجع إليه سعد، فسبيل السعادة هي المشروعة لا غير، وإنما جميع السبل فغايتها كلها إلى الله أولاً ثم يتولاها الرحمن آخر، أو يبقى حكم الرحمن فيها إلى الأبد الذي لا نهاية لبقائه، وهذه مسألة عجيبة المكاشف لها قليل، والمؤمن بها أقل.

ولما كان سبب الجهاد أفعالاً تصدر من الذين أمرنا بقتالهم وجهادهم، وتلك الأفعال أفعال الله فما جاهدنا ألا فيه لا في العدو، وإذ لم يكن عدوًا إلا بها فإذا جاهدنا فيه وتبين لنا بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] أي: يبين لنا سبلها فندخلها فلا نرى إذا جاهدنا غيرها فاستغفرنا الله مما وقع منا، وكان من السبل مشاهدة ما وقع منا أنه الموقع لا نحن فاستغفرنا الله أي: طلبنا منه ألا نكون محلاً لظهور عمل قد وصف نفسه بالكراهية فيه، فقد ثبت أنه: «ما في الوجود إلا الله» فما جاهد فيه سواه؛ ولولا ما هدانا سبله ما عرفنا ذلك؛ ولذلك تمم الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإذا رأيته علمت أن الجهاد إنما كان منه وفيه، فهذا قد أعربت لك عن أحوال أهل المجاهدات وهم المجاهدون، والكلام يطول في تفاصيل هذا الباب، والكتاب كبير، فإن استقصينا إيراد ما يطلبه منا كل باب لا يفي العمر بكتابته، فإذًا ولا بد من الاقتصار فلنقتصر على ما يجري من كل باب مجرى الأمهات لا غير، وكل أم مثل حواء مع نبي آدم فإنهم بينوها كلهم، فلو أعطانا الله الكتابة الإلهية أبرزنا جميع ما يحويه هذا الكتاب على الاستيفاء في ورقة صغيرة واحدة كما خرج رسول الله ﷺ بكتابين في يده بالكتاب الإلهي الذي ليس لمخلوق فيه تعمل وأخبر أن في الكتاب الذي في يمينه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم وعشائرهم من أول خلقهم إلى يوم القيامة، والكتاب الآخر مثله في أسماء أهل الشقاء ولو كان ذلك بالكتاب المعهود ما وسع ورقة المدينة، فمثل ذلك لو وقع لنا أظهرناه في اللحظة، وقد رأينا تلك الكتابة وهي كالجنة في عرض الحائط والنار وكصورة السماء في المرآة، فلنذكر ما لهذه

الصفة التي هي المجاهدة من المقامات التي هي مراتبها ومنازلها الذين ينزلها أهلها، وهم الملامتية، وهم قسمان: أهل أدب بوقوف عند حد، وأهل أنس ووصال، وكذلك ما للعارفين من هذا الباب، وهم قسمان: أهل أدب ووقوف عند حد، وأهل أُنس ووصال، وهذا سار في كل مقام، فالذي للملامتية منه من الصنف الذي له أدب الوقوف عند الحدود فثلاث وخمسون درجة وإنما عدلنا إلى ذكر الدرجات لما سمعنا الله يقول بالدرجات في فضلهم فأتبعنا ما قال الله فهو أولى بنا، والتي للملامتية أهل الأُنس والوصال من الدرجات في هذا الباب أربعمائة درجة وثلاث وخمسون.

وأما درجات العارفين أهل الأنس والوصال فلهم أربعمائة درجة وأربع وثمانون درجة، وأما الذي لأهل الأدب والوقوف عند الحدود من العارفين فتسع وثمانون درجة تسعون إلا واحدة بينه وبين درجات الأسماء الإلهية عشرة».

وقال الشيخ ﷺ في الباب الثامن في الخلوة: «اعلم - وفقنا الله وإياكم- أن الخلوة أصلها في الشرع: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ»[1] فهذا حديث إلهي صحيح يتضمن الخلوة والجلوة، وأصل الخلوة من الخلاء الذي وجد فيه العالَم.

فَمَــنْ خَــلا وَلَمْ يَجِــد فَــمَا خَــلا   فَهِـي طَرِيـق حُكْمهَـا حُكْـمِ البِلَى

وقال رسول الله ﷺ: «كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ»[2]، وسُئل رسول الله ﷺ: «أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ قَالَ: كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ، وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ»[3].

ثم خلق الخلق، وقضى القضية، وفرغ من أشياء، وهو كل يوم في شأن، وسيفرغ من أشياء، ثم يعمر المنازل بأهلها إلى الأبد.

الخلوة أعلى المقامات، وهو المنزل الذي يعمره الإنسان ويملؤه بذاته فلا يسعه معه فيه غير، فتلك الخلوة ونسبتها إليه، ونسبته إليها نسبة الحق إلى قلب العبد الذي وسعه ولا يدخله، وفيه غير بوجه من الوجوه الكونية، فيكون خاليًا من الأكوان كلها، فيظهر فيه بذاته، ونسبة القلب إلى الحق أن يكون على صورته، فلا يسع فيه سواه.

وأصل الخلوة في العالم الخلاء الذي ملأه العالم، فأول شيء ملأه الهباء، وهو جوهر مظلم ملأ الخلاء بذاته، ثم تجلي له الحق باسمه النور فانصبغ به ذلك الجوهر، وزال عنه

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٦٩٤).
(٢) رواه بهذا اللفظ الحكيم في النوادر (٣/ ٤٤).
(٣) رواه أحمد (٤/ ١١).

حكم الظلمة وهو العدم، فاتصف بالوجود، فظهر لنفسه بذلك النور المنصبغ به، وكان ظهوره به على صورة الإنسان، وبهذا يسميه أهل الله: الإنسان الكبير، وتسمى مختصره: الإنسان الصغير؛ لأنه موجود أودع الله فيه حقائق العالم الكبير كلها؛ فخرج على صورة العالم مع صغر جرمه، والعالم على صورة الحق، فالإنسان على صورة الحق، وهو قوله: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»[1] ولما كان الأمر على ما قررناه لذلك قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧] لكن يعلم القليل من الناس فالإنسان عالم صغير والعالم إنسان كبير.

ثم انفتحت في العالم صور الأشكال من الأفلاك والعناصر والمولدات فكان الإنسان آخر مولد في العالم أوجده الله جامعًا لحقائق العالم كله، وليجعله خليفة فيه؛ فأعطاه قوة كل صورة موجودة في العالم؛ فذلك الجوهر الهبائي المنصبغ بالنور هو البسيط، وظهور صور العالم فيه هو الوسيط، والإنسان الكامل هو الوجيز، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:٥٣] ليعلموا أن الإنسان عالم وجيز من العالم يحوي على الآيات التي في العالم، فأول ما يكشف لصاحب الخلوة آيات العالم قبل آيات نفسه؛ لأن العالم قبله كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ﴾ ثم بعد هذا يريه الآيات التي أبصرها في العالم في نفسه، فلو رآها أولاً في نفسه ثم رآها في العالم ربما تخيل أن نفسه رأى في العالم، فرفع الله عنه هذا الإشكال بأن قدم له رؤية الآيات في العالم، كالذي وقع في الوجود فإنه أقدم من الإنسان، وكيف لا يكون أقدم وهو أبوه؟! فأبانت له رؤية تلك الآيات التي في الآفاق وفي نفسه أنه الحق لا غيره، وتبين له ذلك، فالآيات هي الدلالات له على أنه الحق الظاهر في مظاهر أعيان العالم، فلا يطلب على أمر آخر صاحب هذه الخلوة فإنه ما ثم جملة واحدة، ولهذا تمم تعالى في التعريف فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [فصلت:٥٣] من أعيان العالم ﴿شَهِيدٌ﴾ على التجلي فيه، والظهور.

وليس في قوة العالم أن يدفع عن نفسه هذا الظاهر فيه، ولا ألا يكون مظهرًا، وهو المعبر عنه بالإمكان، فلو لم يكن حقيقة العالم الإمكان لما قبل النور وهو ظهور الحق فيه الذي تبين له في الآيات ثم تمم وقال: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ [فصلت:٥٤] من العالم ﴿مُّحِيطٌۢ﴾ والإحاطة بالشيء تستر ذلك الشيء فيكون الظاهر المحيط لا ذلك الشيء، فإن الإحاطة به تمنع من ظهوره فصار ذلك الشيء وهو العالم في المحيط كالروح في للجسم والمحيط كالجسم للروح الواحد شهادة، وهو المحيط الظاهر، والآخر غيب، وهو المستور بهذه الإحاطة، وهو عين العالم.

---

(١) تقدم تخريجه.

ولمَّا كان الحكم للموصوف بالغيب في الظاهر الذي هو الشهادة، وكانت أعيان شيئيات العالم على استعدادات في أنفسها حكمت على الظاهر فيها بما تعطيه حقائقها؛ فظهرت صورها في المحيط، وهو الحق فقيل: عرش وكرسي وأفلاك وأملاك وعناصر ومولدات، وأحوال تعرض، وما ثم إلا الله، فالحق من كونه محيطًا كبيت الخلوة لصاحب الخلوة فيطلب صاحب الخلوة فلا يوجد، فإن البيت يحجبه فلا يعرف منه إلا مكانه، ومكانه يدل على مكانته فقد أعطيته مرتبة الخلوة التي نريد في هذا الكتاب لا الخلوة المعهودة عند أصحاب الخلوات، ودرجاتها ألف وسبع وستون درجة، فظهر في الدرجات صورة الوترية، وإذا لم يعمر الخلاء إلا العالم فهو في خلوة بنفسه، هذا أصله ثم إنه لما انصبغ بالنور كان في خلوة بربه، وبقي في تلك الخلوة إلى الأبد لا يتقيد بالزمان لا بأربعين يومًا، ولا بغير ذلك، فالعارف إذا عرف ما ذكرناه عرف أنه في خلوة بربه لا بنفسه، ومع ربه لا مع نفسه؛ فيرى من حيث أثره في المحيط به بالصور التي ظهر بها المحيط نفسه بنفسه، ومن حيث تعدد أعيانه رأى منه به.

وكانت كل عين مغايرة لصاحبتها، ولذلك اختلفت صور العالم وإن كان واحدًا كما اختلفت صورة الإنسان في نفسه، وإن كان الإنسان واحدًا فيده ما هي رجله، ورأسه ما هو صدره، وعينه ما هو أذنه ولا لسانه ولا فرجه، وعقله ما هو فكره ولا خياله، فهو متنوع متعدد العين بالصورة المحسوسة والمعنوية، ومع هذا يقال فيه: إنه واحد، ويصدق، ويقال فيه: كثير، ويصدق، فمن حيث أحديته نقول: رأى نفسه بنفسه، ومن حيث كثرته نقول: رأى بعضه ببعضه، فتكلم بلسانه، وبطش بيده، وسعى برجله، واستنشق بأنفه، وسمع بأذنه، ونظر بعينه، وتخيل بخياله، وعقل بعقله، فهذا بكثير وما ثم إلا هو، فمن حصل له هذا العلم كما قررناه كان صاحب خلوة، ومن حرمه فليس بصاحب خلوة، فقد تبين لك أن الحق بالعالم، والعالم بالحق، فهويته عين المجموعة كما أن المجموعة هو الإنسان بغيبه وشهادته ونطقه وحيوانيته، فهو واحد في الكثرة، وكثير في الأحدية، فالخلوة من المقامات المستصحبة دنيا وآخرة إلى الأبد، من حصلت له لا تزول، فإنه لا أثر بعد عين.

وأما الخلوة المعروفة المعهودة فليست مقامًا، ولا تصح إلا لمحجوب، وأما أهل الكشف فلا تصح لهم خلوة أبدًا فإنهم يشاهدون الأرواح العلوية والأرواح النارية، ويرون الكائنات ناطقة أكوان ذاته، وأكوان بيت خلوته، فهو في الملأ كما هو في نفس الأمر، فإذا أخذ الله عن بصره هذه المدركات، وفصل بين الحيوان والجماد والملائكة وعالم الصمت من عالم الكلام وعالم السكون من عالم الحركات، ويجب أن يخلو بربه حتى لا يشغله عنه نطق كون ولا حركة كون، فمن يطلب الخلوة لمزيد علم بالله من الله لا من نظره وفكره،

وهذا أتم المقاصد، فإنه مأمور بذلك والعمل على الأمر الإلهي هو غاية كما العمل، والله يقول له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

فمن تحدث في خلوته في نفسه مع كون من الأكوان فما هو في خلوة، قال بعضهم لصاحب خلوة: اذكرني عند ربك في خلوتك، فقال له: إذا ذكرتك فلست معه في خلوة، ومن هنا تعرف قوله تعالى: «أنا جليس لمن ذكرني»[1] فإنه لا يذكره حتى يحضر المذكور في نفسه إن كان المذكور ذا صورة في اعتقاده أحضره في خياله، وإن كان من غير عالم الصور أو لا صورة له أحضرته القوة الذاكرة، فإن القوة الذاكرة من الإنسان تضبط المعاني، والقوة المتخيلة تضبط المثل التي أعطتها الحواس، أو ما تركبه القوة المصورة من الأشكال الغريبة التي استفادت جزئياتها من الحس لا بد من ذلك، ليس لها تصرف إلا به فمن شرط الخلوة في هذا الطريق الذكر النفسي لا الذكر اللفظي، فأول خلوته الذكر الخيالي، وهو تصور لفظة الذكر من كونه مركبًا من حروف رقمية ولفظية يمسكها الخيال سمعًا أو رؤية؛ فيذكر بها من غير أن يرتقي إلى الذكر المعنوي الذي لا صورة له، وهو ذكر القلب ومن الذكر القلبي ينقدح له المطلوب والزيادة من العلوم، وبذلك العلم الذي انقدح له يعرف ما المراد بصور المثل إذا أقيمت له وأنشأها الحس في خياله في نوم ويقظة وغيبة وفناء؛ فيعلم ما رأى، وهو علم التعبير للرؤيا.

ومنهم: من يأخذ الخلوة لصفاء الفكر ليكون صحيح النظر فيما يطلبه من العلم، وهذا لا يكون إلا للذين يأخذون العلم من أفكارهم، فهم يتخذون الخلوات لتصحيح ما يطلبونه إذا ظهر لهم بالموازين المنطقية، وهو ميزان لطيف أدنى هواء يحركه فيخرجه عن الاستقامة فيتخذون الخلوات ويسدون المجاري إلا هواء لئلا تؤثر في الميزان حركة تفسد عليهم صحة المطلوب.

ومثل هذه الخلوة لا يدخلها أهل الله، وإنما لهم الخلوة بالذكر ليس للفكر عليهم سلطان، ولا له فيهم أثر، وأي صاحب خلوة استنكحه الفكر في خلوته فليخرج ويعلم أنه لا يراد لها، وأنه ليس من أهل العلم الإلهي الصحيح، إذ لو أراده الله لعلم الفيض الإلهي لحال بينه وبين الفكر.

ومنهم: من يأخذ الخلوة لما غلب عليه من وحشة الأنس بالخلق، فيجد انقباضًا في نفسه برؤية الخلق حتى أهل بيته حتى أنه ليجد وحشة الحركة؛ فيطلب السكون؛ فيؤديه ذلك إلى اتخاذ الخلوة.

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (ص٤٧).

ومنهم: من يتخذ الخلوة لاستحلاء ما يجد فيها من الالتذاذ.

وهذه كلها أمور معلومة لا تعطي مقامًا، ولا رتبة، وصاحب الخلوة لا ينتظر واردًا ولا صورة ولا شهودًا، وإنما يطلب علمًا بربه فوقتًا يعطيه ذلك في غير مادة، ووقتًا يعطيه ذلك في مادة ويعطيه العلم بمدلول تلك المادة الخلوة لها الدعوى، وصاحبها مسئول لها الحجاب الأقرب هي نسبة ما هي مقام، أعني: الخلوة المعهودة عند القوم لا الخلوة التي هي مقام التي ذكرناها في أول الباب، وهذه وإن لم تكن مقامًا فإنها تحصل لصاحبها بالذكر مقامات لها إحاطة بالملك والملكوت والجبروت عند العارفين والملامتية من الأدباء أرباب المواقف.

وأما أهل الوصال والأنس من العارفين والملامتية، فلا يرون لها في الملكوت دخولاً وأنها مخصوصة بعالم الجبروت والملك لا غير إلا أنها لها قرب من الملكوت ما بينها وبينه إلا درجتان، فالأدباء الواقفون من الملامتية يرون لها ستمائة درجة وإحدى وأربعين درجة، والعارفون من أهل الأنس يرون لها ألف درجة وسبعًا وستين درجة، والأدباء من العارفين الواقفين يرون لها ستمائة درجة، وسبعًا وستين درجة والملامتية من أهل الأُنس والوصال يرون لها ألف درجة وستة وثلاثين درجة».

وكذا ذكر الشيخ ﷺ في الباب الثمانين، والثاني والثمانين، وفي الباب الثاني ومائة، والثاني والعشرين ومائة، والرابع والعشرين ومائة في أواخر هذه الأبواب الملامتية ودرجاتهم، مَن أراد أن يطالع فليطالع مواضعها.

وقال ﷺ في الباب السادس والستين ومائة في معرفة مقام الحكمة والحكماء: «اعلم - أيدك الله- أن الحكمة علم بمعلوم خاص، وهي صفة تحكم بها ولا يحكم عليها، واسم الفاعل منها: حكيم، فلها الحكم، واسم الفاعل من الحكم الذي هو أثرها: حاكم وحكم، وبهذا سمى الرسن الذي يحكم به الفرس: حكمة، فكل علم له هذا النعت فهو الحكمة، والأشياء المحكومة عليها بكذا تطلب بذاتها واستعدادها ما يحتاج إليه فلا يعطيها ذلك إلا من نعته الحكمة، واسمه: (الحكيم) فهل للاستعدادات حكم في هذا المسمى حكيمًا أو الحكمة لها الحكم أو المجموع؟!

فأما الاستعداد على الانفراد فلا أثر له، فإنَّا نرى من يستحق أمرًا ما باستعداده وهو بين يدي عالم لكنه ليس بحكيم فلا يعطيه ما يستحقه لكونه جاهلاً، وقد يمنعه ما يستحقه مع كونه موصوفًا بالعلم بما يستحقه ذلك الأمر، وما يفعل فلا بالمجموع ولا بالانفراد، فعلمنا أن ذلك راجع إلى أمر رابع: ما هو الحكمة؟ ولا العليم بالحكمة ولا استعداد الأمر الذي يطلب الحكمة، وذلك الأمر الزائد هو الذي يبعثه على إعطاء ذلك الأمر حقه لعلمه

بما يستحقه، وحينئذٍ يسمى حكيمًا، وما لم يكن منه ذلك فهو عالم بالحكمة، وبما تستحقه وما يستحقه ذلك الأمر باستعداده فلا يسمى حكيمًا إلا بوجود هذا الاستعمال، وهو قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه:٥٠] من اسمه (الحكيم) فبالإعطاء الذي تعطيه الحكمة يسمى حكيمًا، فهو علم تفصيلي عملي، والعلم بالمجمل علم تفصيلي، فإنه فصله عن العلم التفصيلي ولولا ذلك لم يتميز المجمل من المفصل، فمن الحكمة العلم بالمجمل والتجميل والمفصل والتفصيل قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠] في المقال.

فالحكيم يجري مع كل حال وموطن بحسب ذلك الحال، وذلك الموطن وليس هذا إلا للملامتية خاصة، فهم المجهولون في الدنيا؛ لأنهم لا يتميزون بأمر يخرجهم عن حكم ما يعطيه موطن الدنيا، فإن قام به حال يناقض الموطن من وجه وهو حال النبوة أعني: الرسالة، فإنه لا بد أن يحكم عليه الحال، وهو الذي تعطيه الحكمة فيتميزون في موطن الدنيا بأنه عند الله بمكان، ولم يكن له ذلك، ولكن حال التبليغ يطلب الدلالة على صحة يدعو إليه.

فهذا هو حكم الحال، فإن كان وليًّا دون رسول تعيين عليه الجري بحكم الموطن لا بحكم الحال، فإن ظهر من هذا الولي ما يدل على منزلته من ربه بما يعطي من التمكن والتصرف في العالم وليس برسوله فهو رعونة وصاحب نقص، فإن ظهر بعلم غريب فهل يكون مثل صاحب الحال النفسي المؤثر أم لا؟ قلنا: لا، فإن العلم الذي لا يكون معه أثر كوني سوى نفسه لا يقوم عند العامة ولا عند الخاصة له ذلك الوزن، ولا لصاحبه ذلك الوزن ولا لصاحبه ذلك التميز إلا عند الأكابر من أهل الله.

وممن له تحقق واستشراف على ذلك المقام الأعلى ولذلك قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] من أجل الموطن، وما أظهر آية في دعائه إلى الله في كل وقت ولا عند كل مدعو مع حاجته إلى ذلك، ولكن لما كان مأمور بالتبليغ ما عليه إلا البلاغ، فإن شاء الحق أيده كان بالمعجزات، وإن شاء زاد دعاؤه من أرسل إليهم فرارًا مما دعاهم إليه من توحيده كنوح عليه السلام فأخبر فقال: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٥-٧].

وللحكماء السياسة في العالم بالطريقة المشروعة التي شرع الله لعباده ليسلكوا فيها فيقودهم ذلك السلوك إلى سعادتهم».

وقال الشيخ رضي الله عنه في الباب الثامن والسبعين ومائة في مقام الأدب وأسراره: «اعلم -

أيدك الله- أن الله يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] فالأديب إمعة لما عنده من السعة، فهو مع كل مقام بحسب ذلك المقام، ومع كل حال بحسب ذلك الحال، ومع كل خلق، ومع كل غرض فالأديب هو الجامع لمكارم الأخلاق، والعليم بسفاسفها لا يتصف بها، بل هو جامع لمراتب العلوم محمودها ومذمومها؛ لأنه ما من شيء إلا والعلم به عند كل عاقل، فالأدب جماع الخير، وهو ينقسم إلى أربعة أقسام في اصطلاح أهل الله:

القسم الأول: أدب الشريعة، وهو الأدب الإلهي الذي يتولى الله تعليمه بالوحي والإلهام به أدب نبيه ﷺ، وبه أدبنا نبيه ﷺ فهم المؤدَّبون المؤدِّبون، قال رسول الله ﷺ: «إن الله أدبني فأحسن أدبي»(١).

والقسم الثاني: أدب الخدمة، وهو ما اصطلحت عليه الملوك في خدمة خدمها، وملك أهل الله هو الله، فقد شرع لنا كيفية الأدب في خدمته، وهو معاملتنا إياه فيما يختص به دون معاملة خلقه، فهو خصوص في أدب الشريعة؛ لأن حكم الشريعة يتعلق بما هو حق لله، وبما هو حق للخلق.

والقسم الثالث: أدب الحق، وهو الأدب مع الحق في أتباعه عند من يظهر عنده، ويحكم به، فترجع إليه وتقبله ولا ترده، ولا تحملك الأنفة إن كنت ذا كبر في السن أو المرتبة، وظهر الحق عند من هو أصغر منك سنًّا أو قدرًا، أو ظهر الحق عند معتوه تأدبت معه، وأخذته عنه، واعترفت بفضله عليك فيه، هذا هو الاتصاف، وما رأيت من تحقق بهذا خلقًا في عمري ألا سيد واحد يقال له: أبو عبد الله بن جبير لقيته بمدينة «سبتة» وقصر «كتامة»، وهو جزء من آداب الشريعة؛ فإن أدب الشريعة هو الأم لباقي الأقسام.

والقسم الرابع: أدب الحقيقة، وهو ترك الأدب بفنائك، وردك ذلك كله إلى الله وسيأتي في الباب الذي يلي هذا الباب، وهو في المقامات كالوهب في أصناف العطاء، وهو أن يعطي لينعم لا لسبب آخر، وكذا المأدبة الاجتماع على طعام ماله سبب ألا الدعوة إليه خاصة من غير تقييد من صفة وليمة أو ختان أو ضيافة أو عقيقة وغير ذلك، وكذا جامع الخير لا لسبب بل لكون جامع ذلك له نفس فاضلة خيرة بالذات، فذلك هو الأديب، وللأدب حال ومقام، وهذا باب معرفة مقامه فمقامه هو ما يثبت له دائمًا، وليس ذلك ألا الأدب مع الحق فإنه له الدوام في الدنيا والآخرة، وما فاز به ألا أهل الفتوة من الملامتية لا غير، سلكوا فيه كل مسلك واستخرجوا كنوزه وحصلوا فوائده، كما قال الله تعالى: إنه خلق السماوات، وهو كل عالم علوي، والأرض وهو كل عالم سفلي السماء من عالم الصلاح، والأرض من عالم الفساد، ومنه اشتقت اسم الأرضة لما تفسده في الثياب والورق

---

(١) رواه السمعاني في «أدب الإملاء والاستملاء» (ص١)، وذكره المناوي في «فيض القدير» (١/ ٢٢٤).

والخشب، ويسمى أيضًا السوس والعُثُّ، وما بينهما ألا بالحق من العالم، فهذا الحق المخلوق به هذا العالم هو الذي نتأدب معه، فإنه سبب وجود أعيان العالم، وبه يحكم الله يوم القيامة بين عباده وفي عباده وبه أنزل الشرائع فقال لرسوله داود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [ص:٢٦].

وإن كان مخلوقًا بالحق فإنه مما بين السماء والأرض أو هو عين الأرض، فمقام الأدب العمل بالحق، والوقوف عند الحق وإياك أن تتوهم من هذا القول أن الصدق هو الحق من حيث إنك تقول: قال حقًا إذا صدق في قوله وقال صدقًا بل الحق حاكم على الصدق، وعلى الكذب بالحسن والقبح فالحق في موطن يحمد الصدق وفي موطن يذمه وينهي عنه، ويثني على الكذب الذي هو ضده، ويحرص عليه ويوجب العمل به، وفي موطن آخر يذم الكذب وينهي عنه ويحمد الصدق ويأمر به.

وهذا مقام الأدب الذي ينفع صاحبه في كل موطن فالزمه وتتبع مواضعه، ودلائله في الشرائع، وفي أفعال الرسول ﷺ المتأسى بها لا غير لا ما اختص به، فإنه ليس بأدب مع الحق.

وأما مقام أدب الخدمة فهو أن يعطي ذات المخدوم كان ما كان ما تستحقه من حيث عينها خاصة، وهو أن تقف مع ما تطلبه بذاتها فتبادر إليه من قبل أن تأمرك به أو تساء لك فيه حتى لا يظهر عليها ذلة المسألة، ولو كان أكبر منك، وسألك في أمر فهو من حيث سؤاله إياك في ذلك الأمر أن تفعله إظهار حاجة إليك، ولو عادت عليك منفعته، ولكن مقام السؤال يقتضي ذلك.

فمقام أدب الخدمة الحضور دائمًا مع كل ذات مشهودة لك تنظر فيما تستحقه بما يعطيه الزمان أو المكان أو الحال، فتقوم لها بذلك من غير سؤال، ولا تنبه من أحد سوى حضورك، فهذا مقام أدب الخدمة.

وأما مقام أدب الشريعة فهو أن تقوم بأمرها خاصة لا بما تعطيك ذاتها إلا إن أمرتك بذلك؛ فيكون قيامك بما تعطيك ذاتها من حيث أمرها لا غير قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء:٥٩]، وكل خدمة عن أمر فمن أدب الشريعة لا من أدب الخدمة.

وأما مقام أدب الحقيقة فإنَّا نذكره إن شاء الله، ومن أدب الشريعة أخذك لأحكامها المشروعة والوقوف عند رسومها وحدودها واتصافك بها لمجرد الخدمة والاشتغال لا لتحلية النفس بالعلم بها دون العمل.

ومن آداب الخدمة ألا يشغلك ولا يبعثك عليها ما تنتجه لك من المخدوم من القبول، وملاحظات التأميل فإن شغلك ذلك فما خدمت سوى غرضك ونفسك، ومن أدب الحق ألا يتعدى علمك في الأشياء علمه فيها، وهو الموافقة وإن أعطاك علمك خلاف ذلك، ولاسيما فيما أضافه الحق إلى الخلق من الأعمال فأضفها أنت إلى من أضافها الله، واترك علمك لعلمه؛ فإنه العليم وأنت العالم، وهو الصادق فيما يخبر فما أضاف أمرًا إلى من أضافه ألا، وينبغي لذلك المضاف إليه تلك الإضافة، فلا ترجع علمك على علمه من حيث قيام الدليل لك على أنه لا فاعل ألا الله، فليس هذا من الأدب فصاحب الموافقة له كل تجل وشهود، فاعلم ذلك».

قال الشيخ ﷺ لما وعده لنا في سياق هذا الباب في أدب الحقيقة: «قال الله تعالى آمرًا: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨] في معرض الذم لهم، أي: هو الذي حسن الحسن وقبح القبيح، وقال تعالى مخبرًا: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء:٢٠]، وذكر المذموم والمحمود وقال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٨].

ذلك الأول في الباطن؛ فإنه في الإرادة، وهذا في الظاهر إذ لا يعتبر إلا بعد الوقوع، فالتارك للأدب أديب من حيث لا يعلم؛ فإنه مع الكشف وبحكمه لا مع الذي هم المحجوبون فيه فهو يعاين علم الله في جريان المقادير قبل وقوعها؛ فيبادر إليها فينطلق عليه بلسان الموطن أنه غير أديب مع الحق، فإنه مخالف بل هذا هو غاية الأدب مع الحق، ولكن أكثر الناس لا يشعرون.

ومنهم: من يقام في الإدلال كعبد القادر الجيلي ﷺ ببغداد سيد وقته، ومنهم: من يكون وقته في ذلك «كنت سمعه وبصره»، والأدب يستدعي الغير وثم مقام يفنى الأغيار فيزول الأدب؛ لأنه ما ثم مع «من»، وأما بلسان عامة الطريق وخواص أكثرهم فإن مقام ترك الأدب مع الحقيقة هو الواقع المشروع في العموم والخصوص، وهو مقام جليل لا يقف معه ألا الذكران من أهل الله وفحول أصحاب المقامات لا أصحاب الأحوال.

والقرآن كله نزل في هذا المقام إلا آيات مفردات قد ذكرناها في أول الباب، وما يحار في هذا المقام إلا رجلان مكاشف به ومشاهد له، فالحقيقة تطلبه، والحق الموضوع يطلبه، والأدب مع أحدهما ترك الأدب مع الآخر، وحصلت أنت في مقام الترجيح، وليس لك ذلك فمن الرجال من يترك أدب الحق الموضوع من اعتقاده وباطنه، ويترك أدب الحقيقة من ظاهره ويكون أديبًا مع الحق في ظاهره غير أديب مع الحقيقة في ظاهره، ويكون أديبًا مع الحقيقة في باطنه غير أديب مع الحق في باطنه لما رأوا أن النجاة في ذلك والسعادة، وأن

عكس الأمر شقاء فهو يطرد ولا ينعكس، وثم طائفة تقول: إن الأدب مع الحق الذي هو الشرع أدب مع الحقيقة، فمن تركه هنا تركه هنا، ولا يعرفون من وجه، وذلك لأن الحق المشروع بين الأمر الذي لأجله حكم بالمنع، فقال: «ومن غيرته حرم الفواحش»[1] لا أنه جعلها فواحش بالتحريم، وهذا المذهب أدخل في باب الحكمة، ومذهب المخالف أدخل في أحدية العين، ولهذا المقام رجال ولمخالفه رجال، وبالجملة فهو موضع حيرة لا يخلص لهؤلاء من جميع الوجوه ولا لهؤلاء من جميع الوجوه، فإن الإخبارات الإلهية أكثرها تعارض الأدلة العقلية في هذا الباب، وأية حيرة أعظم من هذه الحيرة، وهذا هو المتشابه الذي ينبغي أن يقول فيه من لم يطلعه الله على العلم به: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:٨] وهم الآخذون بلب العقل لا بقشره، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

قال الشيخ ﷺ في الباب الخامس والثمانين ومائة في معرفة مقام ترك الكرامات: «كما أن الآيات والكرامات واجب على الرسول إظهارها من أجل دعواه، كذلك يجب على الولي التابع سترها، هذا مذهب الجماعة؛ لأنه غير مدعٍ، ولا ينبغي له الدعوى، فإنه ليس بمشروع، وميزان الشرع موضوع في العالم قد قام به علماء الرسوم أهل الفتاوى في دين الله، فهم أرباب التجريح والتعديل، وهذا الولي مهما خرج عن ميزان الشرع الموضوع مع وجود عقل التكليف عنده سلم له حاله للاحتمال الذي في نفس الرحمن في حقه، وهو أيضًا موجود في الميزان المشروع، فإن ظهر بأمر يوجب حدًا في ظاهر الشرع ثابت عند الحاكم أقيمت عليه الحدود ولا بد.

ولا يعصمه ذلك الاحتمال الذي في نفس الأمر من أن يكون من العبيد الذين أبيح لهم فعل ما حرم على غيرهم شرعًا؛ فأسقط الله عنهم المؤاخذة ولكن في الدار الآخرة، فإنه قال في أهل بدر ما قد ثبت من أباحة الأفعال لهم، وكذلك في الخبر الوارد: «اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»[2] ولم يقل: أسقطت عنك الحد في الدنيا، فالذي يقيم عليه الحد مأجور، وهو في نفسه غير مأثوم كالحلاج ﷺ ومن جرى مجراه.

ثم إن ترك الكرامة قد يكون ابتداء من الله، وهو أنه ﷻ لا يمكن هذا الولي في نفسه من شيء من ذلك جملة واحدة مع كونه عنده من أكابر عباده، وأعني خرق العوائد الظاهرة لا العلم بالله، وقد يكون هذا الولي أعطاه الله تعالى في نفسه التمكن من ذلك فيترك ذلك كله لله فلا يظهر عليه منه شيء أصلاً.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٢٦).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٩٢).

وقد رأينا ممن هو على هذا القدم جماعة كما قال سيدنا أبو السعود بن الشبل عاقل زمانه وقد سأله بعض من لا يكتمه من حاله شيئًا: هل أعطاك الله التصرف؟ - وهو أصل الكرامات- فقال: نعم منذ خمس عشرة سنة، وتركنا تصرفنا، فالحق يتصرف لنا، يريد ﷺ أنه امتثل أمر الله في اتخاذه ﷻ وكيلاً، فقال له السائل: ما ثم، فقال: الصلوات الخمس وانتظار الموت، الرجل مثل ساعي الطير فم مشغول وقدم تسعى، وكان يقول: ما أعجبني فيما قيل ألا قوله:

فَأَثْبَتَ في مُستَنقَعِ المَوتِ رِجلَهُ وَقالَ لَها مِن تَحتِ أَخمُصِكِ الحَشرُ

هكذا هو الرجل، وألا فلا، يدعى أنه رجل، وفي حين تقييدي هذا الوجه من هذه النسخة خاطبني الحق في سري: من اتخذني وكيلاً فقد والاني، ومن والاني فله مطالبتي، وعليَّ إقامة الحساب فيما والاني فيه فانعكس الأمر، وتبدلت المراتب هذا صنع الله مع عباده الذين ارتضاهم واصطفاهم، وما فوق هذا الامتنان امتنان ترتقي الهمة إلى طلبه، فالعبد المحقق لا تخرجه هذه الرتبة عن علمه بقدره فما يتخذ الله وكيلاً ألا من كان الحق قواه وجوارحه إذ يستحيل تبدل الحقائق، فالعبد عبد، والرب رب، والحق حق، والخلق خلق، فإذا ظهر خرق عادة على مثل هذا فما هي كرامة عندنا؛ لأن الكرامة تعود على من ظهرت عليه.

وإنما يتفق لمن هذا مقامه مثل ما اتفق لنا في مجلس حضرنا فيه سنة ست وثمانين وخمسمائة وقد حضر عندنا شخص فيلسوف ينكر النبوة على الحد الذي يثبتها المسلمون، وينكر ما جاءت به الأنبياء من خرق العوائد، وأن الحقائق لا تتبدل، وكان زمان البرد والشتاء، وبين أيدينا منقل عظيم يشتعل نارًا، فقال المنكر المكذب: إن العامة تقول: إن إبراهيم عليه السلام ألقى في النار فلم تحرقه، والنار محرقة بطبعها الجسوم القابلة للإحراق، وإنما كانت النار المذكورة في القرآن في قصة إبراهيم الخليل عبارة عن غضب نمرود عليه وحنقه فهي نار الغضب، وكونه ألقي فيها لأن الغضب كان عليه، وكونها لم تحرقه أي: لم يؤثر فيه غضب الجبار لما ظهر به عليه من الحجة بما أقامه من الأدلة فيما ذكر من أفول الأنوار، وأنها لو كانت آلهة ما أفلت، فركب له من ذلك دليلاً فلما فرغ من قوله قال له بعض الحاضرين: ممن كان له هذا المقام، ولم تكن فإن أريتك أنا صدق ما قاله الله تعالى في النار أنها لم تحرق إبراهيم وأن الله جعلها عليه كما قال: ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء:٦٩]، وأنا أقوم لك في هذا المقام مقام إبراهيم عليه السلام في الذَّبِّ عنه لا أن ذلك كرامة في حقي، فقال المنكر: هذا لا يكون! فقال له: أليست هذه هي النار المحرقة؟ قال: نعم، قال: تراها في نفسك، ثم ألقى

النار التي في المنقل في حجر المنكر وبقيت على ثيابه مدة يقلبها المنكر بيده فلما رآها ما تحرقه تعجب ثم ردها إلى المنقل، ثم قال له: قرب يدك أيضًا منها فقرب يده فأحرقته، فقال له: هكذا كان الأمر، وهي مأمورة تحرق بالأمر وتترك الإحراق، كذلك والله تعالى الفاعل لما يشاء؛ فأسلم ذلك المنكر، واعترف فمثل هذا يظهر على تارك الكرامات، فإنه يقيمها في زمانه نيابة عن الرسول ﷺ في المعجزة والآية على صدقه فجاء بها لإقامة الدليل على صدق الشارع والدين لا على نفسه أنه ولي لله بخرق هذه العادة، فهذا معنى ترك الكرامات، ولها رجال وهم الملامتية خاصة، وأما الصوفية فيظهرون بها، وهي عند الأكابر من رعونات النفوس إلا على حد ما ذكرناه».

وقال الشيخ ﷺ في الباب الثالث عشر ومائتين في حال الغيرة: «اعلم أنه لما كانت الغَيرة عند الطائفة على ثلاثة مقامات: غَيرة في الحق، وغَيرة على الحق، وغَيرة من الحق. كأن لها ثلاثة أحوال بحسب ما تنسب إليه من أجل التجانس.

فأما الغَيرة فأصلها مشاهدة الغير إذا ثبت أن ثم غيرًا، فإذا ثبت صح ما قلناه عنهم من التفاصيل، وأعني بثبوتية عين وجود الغير لا عين معقوليته، فإنه معقول بلا شك، ولكن هل هو موجود العين هذا الغير المعقول أم لا؟ فمن قال بالظاهر في المظاهر لم يقل بوجود الغير مع ثبوت حكمه، وحاله المعبر عن ذلك بالغيرة، وهو أثر استعداد المظاهر في الظاهر والغيرة موجب الكثرة عينًا أو حالاً لا بد من ذلك، والكثرة معقولة بلا شك، ولكن هل لها وجود عيني أم لا؟ فيه نظر، فمن قال: إن هذه الكثرة الظاهرة في العين أحوال مختلفة قائمة بعين واحدة لا وجود لها إلا في تلك العين فهي نسب فلا حقيقة لها عينية في الوجود العيني، ومن قال: إن لها أعيانًا لم يقل بالعين الواحدة، ولا بالظاهر في المظاهر؛ لأن الكثير مشهود لا الكثرة فالكثرة معقولة، والكثير موجود مشهود فمن هنا حكم حال الغيرة في الأشياء، واتصف بالغيرة الإله والشيء لا يكون غير نفسه إلا إذا كان الشيء أشياء؛ فيكون كل شيء غير للشيء الآخر، والحق ليس بأشياء، فلا يقبل الغير.

وقد اتصف بأنه غيور، ومن غيرته حرم الفواحش فتدبر ما ذكرناه حتى تعرف ما الفاحشة، وما الفعل المسمى فاحشة وغير فاحشة، فالغير على الحقيقة ثابت لا ثابت هو لا هو، فأما حال الغيرة في الحق وهي الغيرة التي تكون عند رؤية المنكر والفواحش، وهي التي اتصف الحق بها والملأ الأعلى والرسل وصالحو المؤمنين على أن الغيرة مركوزة في الطبع فلابد منها إلا أنها تنقسم إلى محمود ومذموم.

وكلامنا في المحمود منها، وهي الغيرة في الحق، وهي من أشكل المسائل فإنه تعالى

من غيرته حرم الفواحش، ثم إذا وقعت الفواحش في الكون لم نره يشرع بالأخذ عليها لا دنيا ولا آخرة؛ فعلمنا أن ثم مانعًا أقوى يمنع من ذلك يكون ذلك المانع أعظم إحاطة، وتكون نسبته إلى الغيرة نسبة العلم الإلهي إلى القدرة، وإن تعلقت بما لا يتناهى من الممكنات فلا تشك أن العلم أكثر إحاطة منها؛ لأنه يتعلق بها وبالممكنات والواجبات والمستحيلات والكائنات وغير الكائنات مع ما يعطي الدليل أن ما لا يتناهى لا يفضل ما لا يتناهى.

كذلك السبب الموجب لترك المؤاخذة على ما يقع عمن يأتي ما وقعت عليه الغيرة، ولا بد أن يكون أقوى من حال الغيرة هذا كله في حق الحق، وأما في حق المخلوقين فلا بد من تغيير النفس، وهو مكلف بها في الحق لا بد من ذلك، ومذموم من لم يجد ذلك من المكلفين، فإنه مخاطب بتغييره من يده بالفعل إلى لسانه بالقول إلى وجود ذلك في النفس، وهو أضعف الإيمان في الزمان لا في نفس الغيور، فحال الغيرة هو ما يجده الغيور من اختلاف الأمر عليه في نفسه عند وقوع ما لا يرضي الله سواء وقع ذلك منه أو من غيره، بل من هذه صفته هو معصوم، فإن من وقع منه ما يوجب الغيرة ولا يغار، وإذا رأى ذلك من الغير أدركته الغيرة فليست بغيرة حقية إلهية، وإنما هي غيرة نفسية لا قربة فيها إلى الله تعالى تلك هي الغيرة الإلهية من المخلوقين، وهو الفاعل للأمر الذي يوجب الغيرة ولا يؤاخذ على ذلك أخذ عموم فكذلك من توجد منه الغيرة في حق زيد لفعل خاص، وإذا وقع منه ذلك الفعل لا يجد غيره، فلهذا قلنا: صاحب هذا الحال أحق وأقرب للاتصاف بالنعت الإلهي بالغيرة من الذي يغار مطلقًا في حق نفسه وغيره، ومن أجل ذلك سمى معصومًا أو محفوظًا فلم يقع منه له يوجب الغيرة.

وهو السعيد في العموم المثنى عليه في الشرع والآخر يذم كما يذم الجبار من المخلوقين، وإن كان الجبروت وصفًا إلهيًّا كذلك خصوص الغيرة لا ينبغي للمؤمن أن يتصف بذلك بل تعم غيرته في الحق، وحينئذٍ يحمده الله تعالى ويثني عليه فقد نبهتك على سر من أسرار الغيرة لتسريح إليه إن تفطنت له، ولا تستعمله فتشقى بل كن لله غيورًا في الحق مطلقًا من غير تقييد.

وأما حال الغيرة على الحق، وهي كتمان السرائر والأسرار، وتلك حالة الأخفياء الأبرياء من الملامتية المجهولين المجهولة مقاماتهم، فلا تظهر عليهم أمر إلهي يعرف به أن الله عناية بهم، فأحوالهم تستر مقامهم لحكمة المواطن، فإنهم لا يظهرون في محل النزاع إذ كان سيدهم وهو الله تعالى قد نوزع في إلوهيته في هذه الدار.

وهذه الطائفة متحققة بسيدها، فمنعهم ذلك التحقيق أن يظهروا في المواطن الذي استتر سيدهم فيه فجروا مع العامة على ما هي العامة عليه من ظاهر الطاعات التي لم تجر العادة في العرف أن يسموا بها أنهم من أهل الله؛ لأنهم ما ظهر منهم ما يتميزون به عن العامة من الأفعال كما ظهر من بعض الأولياء من خرق العوائد في الأحوال أو من تتبع تغيير المنكرات إذا بدت تغييرًا يتميز به عن التغيير العام بحيث إن يشار إليه فيه، فهذه حال الغيرة على الحق.

وأما حال الغيرة من الحق وهي ضنته بأوليائه حيث سترهم عن سائر عباده، فحبَّب إليهم الستر ووفقهم للمعرفة بحكم المواطن؛ فاتصفوا بصفة سيدهم، فكانوا عنده خلف حجب العوائد فهم ضنائن الله وعرائسه، فهم عنده كـ«هو» عندهم، فما يشاهدون سواه، ولا ينظر هو إليهم، فمن أراد أن يعرفهم فليسلك مسلك الغيرة على الحق فينتظم في سلكهم.

وأما قول بعضهم في الغيرة على الحق أن يذكر بألسنة الغافلين فكل لسان ذكره فليس بغافل بل ثمرة صحيحة ينالها الذاكر، وهو اللسان وإن لم تقرن به نية من نفس صاحب ذلك اللسان، فما ذكره ذاكر بغفلة قط بل ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] مثل هؤلاء فصاحب هذا القول لاحظ له في الرجولة، وكذلك قول الآخر: أغار على ذلك الجمال إلا نزه عن نظر مثلي يا ليت شعري، وأي نظر لك؟! وأين الموجود الذي له نظر من ذاته؟! وهل ينظره إلا هو ينظره إلا هو؟! يا أيها المشرك، أما تستحي أن تقول مثل هذا القول!

فحال الغيرة من الحق أن تكون حقًا، وتقوم فيها بنسبتها إلى الحق، فتنظر ما الغيرة منه فتكون على ذلك، ومع هذا على كل وجه فإنه يطلب ثبوت الغير والتفرقة بين الأشياء والتميز فتحفظ في ذلك من إثبات وجود عين زائدة، أو من نفي عيون كثيرة في غير وجود عيني، فاثبت الكثرة في الثبوت وانفها من الوجود، واثبت الوحدة في الوجود، وانفها من الثبوت؛ فاعلم ذلك»[1].

وقال الشيخ ﷺ في الباب الخامس والسبعين ومائتين في معرفة منزل التبرؤ عن الأوثان بعد بسط بعض التحقيقات: «فاعلم يا أخي، أن هذا المنزل هو منزل من منازل الستر والكتمان وتقرير الألوهة في كل من عُبد من دون الله؛ لأنه ما عبد الحجر لعينه وإنما عبد من حيث نسبة الألوهة إليه، ولهذا ذكرنا أنه من منازل الكتمان والستر قال تعالى:

---

(١) في (٤/ ١٩٢).

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧] فما ذكروا قط إلا الألوهية، وما ذكروا الأشخاص ولكن لم يقبل الله منهم العذر بل قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء:٩٨] أي: الذي انفرد بهذا الاسم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وهو قوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦] وهو كل من دعاكم إلى عبادة نفسه أو عبدتموه وكان في وسعه أن ينهاكم عن ذلك فما نهاكم فمثل هؤلاء يكونون من ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

فالموحد يعبد الله من طريقين: من طريق الذات من كونها تستحق وصف الألوهة، ومن طريق الألوهة، فالسعيد الجامع بينهما؛ لأن العابد مركب من حرف ومعنى، فالحرف للحرف، والمعنى للمعنى، فلذلك لم تعبد الذات معراة عن وصفها بالألوهية، ولم تعبد الألوهية من غير نسبتها إلى موصوف بها، فلم تقم العبادة إلا على ما تقتضيه حقيقة العبد، وهو التركيب لا على ما تقتضيه حقيقة الحق، وهو الأحدية، ولهذا يكون القائل في عبادته وفاء لحق الله غير مصيب إذا أراد الذات، فإن حقيقتها الأحدية، وقد يمكن أن يصح قول من قال: إنما أعبده وفاء لحق الربوبية لا لحقيقتها إذ كل حق له حقيقة، فالحق من ذلك به تتعلق العبادة من العابد، والحقيقة هي الأحدية التي لا تتعلق ولا يتعلق بها، ولهذا كانت الألف في الوضع الإلهي بالخط العربي إذا تقدمت في الكلمة لا تتصل ولا يتصل بها، وإذا تأخرت اتصل بها بعض الحروف ممن لا علم له بالأحدية المطلقة التي تستحقها هذه الذات إلا خمسة أحرف لا غير من جميع الحروف وهي: (الدال، والذّال، والراء، والزاي، والواو) وهي خمسة أحوال من اتصف بها عرف الأحدية، وكانت عبادته ذاتية لم يقترن بها أمر، وهي عبادة المعنى للمعنى، فإن الأمر عبادة الحرف للحرف فلا يخطر لعابد المعنى فرق بين الذات والألوهية ولا كثرة بل يرى عينًا واحدة تستحق ما هو عليه هذا العارف من حيث معناه لا من حيث حرفه.

وهذا مقام الجلال والعظمة وأحدية العبد التي أعطته معرفة الأحدية الذاتية والتنزيه والغنى، فهذه أحوال خمسة تدل عليها الحروف الخمسة التي لا تتصل بها الألف الواقعة في أواخر الكلم مثل: خبيرًا وعزيزًا واحدًا وإذًا وعلوًا؛ فدلت الألف في أول الكلمة من عدم الاتصال على قوله: «كان الله ولا شيء معه»[1].

---

(١) تقدم تخريجه. وقال الشيخ الأكبر في الباب ٢٦٩ في معرفة منزلة المؤمنين: «وإنما لم يقل: «وهو الآن على ما عليه كان »؛ لأن الآن نص في وجود الزمان، فلو جعله ظرفًا لهوية الباري تعالى؛ لدخل تحت ظرفية الزمان بخلاف «كان» فإن لفظة «كان» من الكون وهو عين الوجود، فكأنه يقول: الله موجود ولا شيء معه في وجود، وأطال في بيان ذلك».

وهو على ما عليه كان مع وجود الأشياء من عدم الاتصال كما لم تتصل الألف بالكلمة ودل عدم اتصال الحروف الخمسة بها في آخر الكلمة على حال معرفة مقام بعض العباد من العلماء بالله دون غيرهم حيث رفعوا النسبة بينهم وبين الله تعالى، وأنهم مشاهدون لما ذكرناه من الجلال والعظمة والأحدية والتنزيه والغنى، وما عدا هذه الطائفة جعلوا نسبة ورابطة بين الإله والمألوه، وما فرقوا بين المرتبة والذات لما لم يعرفوا الله إلا من نفوسهم بحكم الدلالة لاستناد الممكن إلى المرجح، فطلبوه وطلبهم، ولهم من الحروف كل حرف اتصل بالألف في آخر الكلمة، ولهؤلاء الأكابر أيضًا قسم وحظ وافر في منزل هذه الحروف التي اتصلت من حيث حرفيتهم لا من حيث معناهم، وهؤلائك جهلوا هذا القدر الفارق بينهم لكنهم ستروا ذلك عن العامة، وانفردوا به عن أشكالهم يختص برحمته من يشاء، ولأجل هذا قال الجنيد سيد هذه الطائفة ﷺ: لا يبلغ أحد درج الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق.

فإن المقام يضر بمن ليس من أهله كما يضر رياح الورد بالجعل؛ لأن الحال التي هم عليها لا تقبل هذا المقام ولا يقبلها، فإذا رآهم الناس في العموم لم يعرفوهم؛ لأنه ليس على حرفهم أمر ظاهر يتميز به عن العامة، وإذا رآهم الناس في الخصوص كالفقهاء وأصحاب علم الكلام وحكماء الإسلام قالوا بتكفيرهم، وإذا رآهم الحكماء الذين لم يتقيدوا بالشرائع المنزلة مثل الفلاسفة قالوا: إن هؤلاء أهل هوس، قد فسدت خزانة خيالهم، وضعفت عقولهم، فلا يعرفهم سواهم، ومن اقتطعهم من خلقه إليه قال تعالى في المعنى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩١].

ولهؤلاء حظ وافر في هذه الآية حيث جهلهم العام والخاص والمسلم وغير المسلم فهم الضنائن المصانون بحجب الغيرة، فلا يعرفهم ألا الحق، وهل يعرف بعضهم بعضًا؟ فيه توقف، وهم المطلوبون من العباد، ألحقنا الله بهم، وأرجو أن أكون منهم».

وكلام الشيخ فيه يطول، من أراد الاطلاع عليه فليطالع هذا الباب من أوله إلى آخره في «الفتوحات المكية».

وقال الشيخ ﷺ في الباب الخامس والثمانين ومائتين في معرفة منزل مناجاة الجهاد بعد البسط والتفصيل: «ومن هذا المنزل إفشاء الأسرار، وخفي الغيوب لطلب المواطن لها؛ فيعلم الإنسان من هذا المنزل المواطن التي ينبغي أن يبدي فيها مما عنده من الغيوب، ويعرف أن موطن الدنيا لا يقتضي ذلك، ولهذا لم يظهر من ذلك على الملامتية شيء، وأعني بالغيوب هنا: كل غيب لا يطلبه الموطن.

وأما الغيوب التي يطلبها كل موطن فلا بد أن يخرج غيب كل موطن في موطنه إلى الشهادة، وهذا حال الملامتية إلا أن يقترن بإبراز ذلك أمر إلهي، ولا يقترن به أمر قط إلا أن يطلبه حال ما من الأحوال، وأما من غير حال تطلبه فلا، ولهذا جهل الناس مقادير أهل الله تعالى عند الله، وبهذا سموا أمناء فإذا اقتضى الموطن إبراز غيبه فالعارف أول من يبادر إلى ذلك، ويسارع فيه، وإن لم يفعل كان غاشًا خائنًا لا يصلح لشيء، فإن سبق بإظهاره غيره تعين عليه ذلك الوقت إخفاؤه، وألا يطلع أحد من الخلق على ما عنده فيه إذ قد ناب غيره فيه منابه فلم يبق لهذا العارف في إظهار ذلك منه إلا حظ نفس لا غير، وهذا ليس من شأن خصائص الحق وأهله، فإن جاءه وحي من الله بذلك مع أنه قد ظهر على يد غيره؛ فليبادر لأمر الله فيه، وليظهره ويكون فيه كالمؤيد للأول.

واعلم أنه ما من جنس من أجناس المخلوقين إلا وقد أوحى إليه من ملك وجن وإنسان وحيوان ونبات وجماد فذكر من الحيوان النحل ومن الجماد السماء والأرض، وإن كان الكل عندنا أحياء، ولكن نجري على المعهود المتعارف في الحس الغالب، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤]، وقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩]، وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٥]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم:٤] أي: بلحنهم.

والوحي على ضروب شتى، ويتضمنه هذا المنزل، فمنه ما يكون متلقي بالخيال كالمبشرات في عالم الخيال وهو الوحي في النوم، فالمتلقي خيال والنازل كذلك والوحي كذلك، ومنه ما يكون خيالاً في حس على ذي حس، ومنه ما يكون معنى يجده الموحي إليه في نفسه من غير تعلق حس ولا خيال بمن نزل به، وقد يكون كتابة ويقع كثيرًا للأولياء، وبه كان يوحى لأبي عبد الله قضيب البان ولأبي زكريا البجائي بالمعرة بدير النقرة ولبقي بن مخلد تلميذ أحمد بن حنبل صاحب «المسند» ولكن كان أضعف الجماعة في ذلك فكان لا يجده إلا بعد القيام من النوم مكتوبًا في ورقة».

وقال الشيخ ﷺ في الباب الثالث وثلاثمائة في معرفة فضول العارف الجبرئيلي من الحضرة المحمدية: « اعلم - أيدك الله- أن من الأرواح العلوية السماوية المعبر عنها بالملائكة مقدمين لهم أمر مطاع فيمن قدموا عليه من الملأ الأعلى، وهم أصحاب أمر لا أصحاب نهي، فـ ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

وقد نبه الله ﷻ على أن جبريل ﷺ منهم بقوله: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢١]

ولا يكون مطاعًا إلا من له الأمر فيمن يطيعه.

فاعلم أن العارف إذا كان يمده من الملأ الأعلى روح من هذه الأرواح الآمرة التي لها التقدم على غيرها كإسرافيل وإسماعيل وعزرائيل وجبريل وميكائيل والنور والروح وأمثالهم، فإن العارف يكون له أثر في العالم العلوي والسفلي بقدر مرتبة ذلك الروح الذي يتولاه من هناك، فمن تولاه إسرافيل يكون له من الأثر بحسب مرتبة إسرافيل، وما يكون تحت نظره وأمره، وكذلك كل روح بهذه المثابة له رجل أو امرأة على مقامه، وهو الذي تسمعونه من الطائفة من أن فلانًا على قلب آدم أو جماعة على قلب آدم، وجماعة على قلب إبراهيم أي: لهم من المنازل ما لإبراهيم وآدم من مقام الولاية التي لهم لا من مقام النبوة، وإن كان لهم منها شرب فمن بعض مقاماتها لا كلها كالرؤيا جزء من أجزاء النبوة وغيرها.

وأما النبوة بالجملة فلا تحصل إلا لنبي، وأما الولي فلا إلا أن يكون له من ظهره تمده وتقويهٔ وتؤيده، هكذا أخذتها مشاهدة من نفسي، وأخبرت أن كل ولي كذا يأخذها من المكملين في الولاية ويترجم عنها، ولكن من حجاب الظهر، ويكون للنبي من الفوق أو من الأمام تنزل على قلبه أو يخاطب بها في سمعه، فالولي يجد أثرها ذوقًا وهو فيها كالأعمى الذي يحس بجانبه شخص ولا يعرف من هو ذلك الشخص، ولذلك تقول الطائفة: لا يعرف الله إلا الله، ولا النبي إلا النبي، ولا الولي إلا ولي مثله، فالنبي ذو عين مفتوحة لمشاهدة النبوة، والولي ذو عين مفتوحة لمشاهدة الولاية ذو عين عمياء لمشاهدة النبوة، فإنها من خلفه فهو فيها كحافظ القرآن؛ لأنه «من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه»[1] ولم يقل: في صدره، ولا بين عينيه، ولا في قلبه، فإن تلك رتبة النبي لا رتبة الولي، وأين الاكتساب من التخصيص؟! فالنبوة اختصاص من الله يختص بها من يشاء من عباده، وقد أغلق ذلك الباب وختم برسول الله محمد ﷺ، والولاية مكتسبة إلى يوم القيامة فمن تعمل في تحصيلها حصلت له والتعمل في تحصيلها اختصاص من الله يختص برحمته من يشاء، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، كما قال الله تعالى: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

فبنور النبوة تكتسب الولاية، فالأولياء هم ولاة الحق على عباده، والخواص منهم الأكابر يقال لهم: رسل وأنبياء، ومن نزل عنهم بقي عليه اسم الولاية، فالولاية الفلك المحيط الجامع للكل فهم وإن اجتمعوا في منصب الولاية فالولاة لهم مراتب فالسلطان والٍ على الخلق، والقاضي والٍ، والمحتسب والٍ، وأين رتبة السلطان من مرتبة صاحب

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٠)، وابن المبارك في «الزهد» (ص ٢٧٥).

الحسبة؟! وكلهم لهم الأمر في الولاية وهكذا ما ذكرناه في حق الأنبياء والرسل والأقطاب كل ولي على مرتبته فالسلطنة لا تحصل بالكسب جملة وما عداها يتعمل في تحصيلها فثم والٍ يقدم للسلطان خدمة من مال أو متاع فيوليه السلطان المنصب الذي يليق به وخدم عليه، وهو بمنزلة من تحصل له الولاية من عند الله بالصدقة والقرض الحسن وصلة الرحم، ومن الناس من يلازم خدمة السلطان في ركوبه وخروجه، ويتعرض له فإذا أمر السلطان بأمر يفعل ما لم يعين أحدًا بادر هذا الشخص لامتثال أوامر السلطان فيراه السلطان ملازمًا مشاهدته مبادرًا لأوامره فيوليه.

فهذا بمنزلة من تحصل له الولاية من الله بمراقبته والمبادرة لأوامر الله التي ندب إليها لا التي افترضها عليه، وهو قوله ﷺ: **«ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيدًا»**(1).

فهذا معنى الكسب في الولاية، وكذلك من تعرض للسلطان، وخدمه عن أمره و واجهه بالأمر فرأى محافظته على الأوامر السلطانية التي أوجبها عليه لا يغفل عنها، ولا يتأولها بل يأخذها على الوجوب، ويسارع إليها ويسبق إلى امتثالها حين يبطئ عنها، ويتأولها من هو معه في رتبته؛ فيرى له السلطان ذلك فيوليه ويعطيه النيابة عنه في رعيته، كذلك المسارع إلى ما أوجب الله عليه من الطاعات وافترضها عليه وأخذ أوامره على الوجوب، ولم يتأول عليه كلامه ولا أمره، فإن الله يصطفيه ويوليه أكبر ولاياته، وقد عرفت الكسب ومحله والاختصاص وأهله؛ فاسلك عليه فهو الباب الذي من دخل عليه نجا وتولى ودنا وتدلى ونودي بالأفق الأعلى.

واعلم أن الولي الذي تمتد إليه رقيقة روحانية جبرائيلية هو من الأمناء الذين لله تعالى في خلقه، الذين لا يعرفون في الدنيا، فإذا كان في الآخرة وظهرت منزلته هناك وما كان ينطوي عليه في هذه الدار مما لا يعرف هنا فإنه كان إما تاجرًا في السوق أو بائعًا صاحب حرفة أو صنعة أو واليًا من ولاة المسلمين من حسبة أو قضاء أو سلطنة وبينه وبين الله أسرار لا نعرف منه فيقال عنه يوم القيامة عند ظهور ما كان عنده في الآخرة: إن لله أمناء حيث كان هذا عندهم، وما ظهروا به في الدنيا حين ظهر غيرهم بما أعطاه الله من الكشف بالكلام على الخواطر أو على الأرض، واختراق الهواء، والمشي على الماء، والأكل من الكون، وما ظهر عليه شيء من ذلك، وهو في قوته وتحت تصريفه، وأبى أن يكون إلا على ما هم عليه عامة المسلمين ألا وهم الملامتية من أهل هذا الطريق خاصة كبيرهم وصغيرهم؛ فيكون هذا الشخص في الأمة المحمدية كجبريل في الأمة الملكية، مطاع الباطن

---

(1) تقدم تخريجه.

غير مطاع في الظاهر لو أمر لكنه لا يأمر، فإنه ما امتاز عن العامة بشيء فلو امتاز عندهم بخرق عادة تظهر منه مما لا يقتضيها الموطن عظم، وامتثل أمره للتفوق الذي ظهر له على العامة، فهذا سبب ردّ أمره لو أمر لكنه لا يأمر، ولكنه في الباطن مطاع الأمر.

ورأينا من هؤلاء جماعة مثل: عبد الله بن تاحمست، ومثل: ابن جعدون الحناوي وهو من الأوتاد كان كبير الشأن.

فهذا العارف الذي له هذا المقام الذي ذكرناه له لتمكن من نفسه، فهو أقوى خلق الله، فإن النفس تريد الظهور في العالم بالربوبية، وصاحب هذا المقام قد خلع الله عليه من أوصاف السيادة وقواه بحيث إن يقول للشيء: كن فيكون ذلك الشيء؛ لمكانته من ربه، فكان من قوته أنه ملك نفسه، فلم يظهر عليه من ذلك شيء لا في أقواله ولا في أفعاله ولا عبادته.

وهو ممن نص عليه رسول الله ﷺ في الحديث الحسن الغريب: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ، فَخَلَقَ الْجِبَالَ فَعَادَ بِهَا عَلَيْهَا فَاسْتَقَرَّتْ؛ فَعَجِبَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنْ شِدَّةِ الْجِبَالِ، قَالُوا: يَا رَبِّ، هَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنْ الْجِبَالِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الْحَدِيدُ، قَالُوا: يَا رَبِّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنْ الْحَدِيدِ؟ قَالَ: نَعَمْ، النَّارُ، فَقَالُوا: يَا رَبِّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنْ النَّارِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الْمَاءُ، قَالُوا: يَا رَبِّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنْ الْمَاءِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الرِّيحُ، قَالُوا: يَا رَبِّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنْ الرِّيحِ؟ قَالَ: نَعَمْ، ابْنُ آدَمَ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ بِيَمِينِهِ يُخْفِيهَا مِنْ شِمَالِهِ»[1].

وهذه حالة من ذكرنا، وقد وصفه رسول الله ﷺ بالقوة، وأن له منها أكثر مما ذكره من الأقوياء، فإن النفس مجبولة على حب الرئاسة على جنسها هذا في أصل جبلتها وخلقها، ومن قيل له: اخرج عن جبلتك وطبعك فقد كُلف أمرًا عظيمًا، فسبحان من رزقهم من القوة بحيث إن هان عليهم مثل هذا.

وسبب ذلك أنه أعطاهم من المعرفة بالله التي خلقوا لها ما شغلهم الوفاء بحق العبودة عن مثل هذا فهم على الطريقة المثلى التي اختارها الله لعباده، ولهم المكانة الزلفى بثبوتهم عليها، مكرمون عند الله، وهذا العارف الذي بهذه المثابة من الأفراد الذين أفردهم الحق إليه، واختصهم له، وأرخى الحجاب حجاب العادة بينهم وبين الخلق فاستخلصهم لنفسه، ورضي عنهم، ورضوا عنه، وأعطى صاحب هذا المقام من القوى المؤثرة في العالم الأعلى والأسفل ألفًا ومائتي قوة، قوة واحدة منها لو سلطها على الكون أعدمته، ومع هذا التمكن من هذه القوى إذا نزل الذباب عليه لا يقدر على إزالته حياءً من الله، ومعرفةً.

فأما المعرفة التي له فيه فإن ذلك الذباب رسول من الحق إليه، وهو الذي أنزله

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣/ ١٢٤).

عليه، فهو يراقب ما جاءه به من العلم، فإذا فرغ من رسالته إن شاء نهض إن استدعاه خالقه، وإن شاء أقام؛ فيكون هذا العارف كرسي ذلك الرسول الذبابي، فهذا سبب تركه إياه، ولا يشرده عن نفسه كما تفعله العامة للمعرفة.

وأما الحياء من الله فإن في إزالة الذباب راحة للنفس ونعيمًا معجلاً، وما خلق الله الإنسان في هذه الدار للراحة والنعيم، وإنما خلق لعبادة ربه؛ فيستحي أن يراه الله في طلب الراحة من أذى الذباب حيث إن الموطن لا يقتضيه.

فإن قلت: فالمتنعم في الدنيا المباح له التنعم في الحلال.

قلنا: لا نمنع ذلك في حق غير العارف، ولكن العارف تحت سلطان التكليف فما من نعمة ينعم الله فيها عليه باطنة كانت أو ظاهرة إلا والتكليف من الله بالشكر عليها يصحبها، فذلك التكليف ينغص على العارف التنعم بتلك النعمة لاشتغاله بموازنة الشكر عليها، وإذا وفى الشكر عليها فالوفاء به نعمة من الله يجب عليه الشكر عليها، فلا يزال متعب الخاطر في إقامة الوزن بالقسط ألا يخسر الميزان.

ومن هذه حالته كيف ينعم فظاهرها نعمة وباطنها غصص؟! وهو لا يبرح يتقلب في نعم الله ظاهرًا وباطنًا، ولا تؤثر عنده إلا ألمًا وتنغيصًا، والعامة تفرح بتلك النعم، وتتصرف بها أشرًا وبطرًا، والعارف مسدود عليه في الدنيا باب الراحة في قلبه - وإن استراح في ظاهره- فهو يموت في كل نَفَس ألف موتة، ولا يشعر به، يقول عمر بن الخطاب: «ما ابتلاني الله بمصيبة إلا رأيت لله فيها عليَّ ثلاث نعم: إحداها: أن لم تكن في ديني، الثانية: حيث لم تكن أكبر منها، الثالثة: ما وعد الله عليها من الثواب»[1].

ومن كان في مصيبة واحدة يرى ثلاث نعم، فقد انتقل إلى مصيبة أعظم من تلك المصيبة، فإنه يتعين عليه إقامة ميزان الشكر على ثلاث نعم فابتلاه الله بمصيبة واحدة ليصبر عليها، وابتلته معرفته في تلك المصيبة بثلاث مصائب كلفه الله الشكر عليها حيث أعلمه بتلك النعم في تلك المصيبة الواحدة، فانظر إلى معرفة عمر ﷺ كيف أوجب على نفسه مثل هذا، وانظر إلى ما فيها من الأدب حيث عدل عن النظر فيها من كونها مصيبة إلى رؤية النعم فتلقاها بالقبول؛ لأن النعمة محبوبة لذاتها، فرضي فكان له مقام الرضا والاستسلام والتفويض الصبر والاعتماد على الله، وأين الناس من هذا الذوق الشريف؟!

ولم يحكم أحد من الأولياء، ولا قام فيه مثل هذا المقام مثل أبي بكر الصديق ﷺ إلا من لا أعرفه فإنه ﷺ ما ظهر قط عليه مما كان عليه في باطنه من المعرفة شيء لقوته إلا يوم

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/ ١٣٤).

مات رسول الله ﷺ وذهلت الجماعة، وقالوا ما حكي عنهم إلا الصديق فإن الله تعالى وفقه لإظهار القوة التي أعطاه لكون الله أهله دون الجماعة للإمامة والتقدم، والإمام لابد أن يكون صاحيًا لا يكون سكران، فقامت له تلك القوة في الدلالة على أن الله قد جعله مقدم الجماعة في الخلافة عن رسول الله ﷺ في أمته كالمعجزة للنبي ﷺ في الدلالة على نبوته، فلم يتقدم، ولا حصل الأمر إلا له عن طوع من جماعة، وكره من آخرين، وذلك ليس نقصًا من إمامته كراهة من كره، فإن ذلك هو المقام الإلهي، والله يقول: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد:١٥] فإذا كان الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء يسجد له كرهًا فكيف حال خليفته ونائبه في خلقه وهم الرسل؟! فكيف حال أبي بكر وغيره؟! فلابد من طائع وكاره، يدخل في الأمر على كره لشبهة تقوم عنده إذا كان ذا دين أو هوى نفس إذا لم يكن له دين.

أما من كره إمامته من الصحابة ﷺ فما كان عن هوى نفس نحاشيهم من ذلك على طريق حسن الظن بالجماعة، ولكن كان لشبهة قامت عندهم رأى من رأى ذلك أنه أحق بها منه في رأيه وما أعطته شبهته لا في علم الله فإن الله قد سبق علمه بأن يجعله خليفة في الأرض، وكذلك عمر وعثمان وعلي والحسن، ولو تقدم غير أبي بكر لمات أبو بكر في خلافة من تقدمه، ولا بد في علم الله أن يكون خليفة، فتقدمهم بالزمان بأنه أولهم لحوقًا بالآخرة فكان سبب هذا الترتيب في الخلافة ترتيب أعمارهم فلابد أن يتأخر عنها من يتأخر مفارقته للدنيا ليلي الجميع ذلك المنصب، وفضل بعضهم على بعض مصروف إلى الله هو العالم بمنازلهم عنده، فإن المخلوق ما يعلم ما في نفس الخالق إلا ما يعلمه به الخالق سبحانه، وما أعلم بشيء من ذلك فلا يعلم ما في نفسه إلا إذا أوجد أمر أعلمنا أنه لولا ما سبق في علم الله كونه ما كان فالله يعصمنا من الفضول، إنه ذو الفضل العظيم.

فهذا قد أبنت لك منزلة العارف من هذا المنزل على غاية الاختصار بطريق التنبيه والإيماء فإن المقام عظيم فيه تفاصيل عجيبة»[1].

وقال الشيخ ﷺ في الباب السابع وثلاثمائة في معرفة منزلة تنزل الملائكة والروح على المحمدي بعد تقرير بعض التحقيقات في التنزل: «وأما العارفون فإنهم عرفوا أن لله وجهًا خاصًا في كل موجود، فهم لا ينظرون أبدًا إلى كل شيء من حيث أسبابه، وإنما ينظرون فيه من الوجه الذي لهم من الحق، فينظر بعين حق فلا يخطئ أبدًا، فإذا نزل الأمر الإلهي على قلب هذا العارف وقد لبس من الصور بحسب ما مرَّ عليه من المنازل كما قررناه فأول

---

(١) انظر: الفتوحات (٤/ ٤٥٧).

صورة كان ظهر بها للعقل الأول صورة إلهية أسمائية وهي خلف هذه الصور كلها.

وهذا العارف همه أبدًا مصروف إلى الوجه الخاص الإلهي الذي في كل موجود بعين الوجه الخاص الإلهي الذي لهذا العارف المحقق، فينظر في ذلك الأمر من حيث الصورة الأولى الإلهية، ويترك الوسائط، وينزل من تلك الصورة على جميع الصور من أعلى إلى أسفل، وفي كل صورة ما ينظر إليها إلا من حيث ذلك الوجه الخاص بها بوجهه الخاص به إلى أن ينتهي على جميع الصور؛ فيعرف من ذلك الأمر الإلهي جميع ما في العالم من العقل الأول إلى الأرض من الأسرار الإلهية حيث يعلم الكاهن أو العراف، وأمثال هؤلاء ما يكون في العالم العنصري خاصة من الحوادث.

ثم إن العارف يكسو ذلك الأمر الإلهي من حلل الأدب والحضور الإلهي في أخذه منه والنور والبهاء ما إذا صعد به الأمر الإلهي على معراجه تتعجب منه ملائكة السماوات العلى فيباهي الله به ملائكته، ويقول: هذا عبد جعل في الحضيض وفي أسفل سافلين بالنسبة إليكم فما أثر فيه منزله، ولا حكم عليه موطنه، ولا حجبته عني كثرة حجبه، وخرق الكل ونظر إليَّ، وأخذ عني، فكيف به لو كان مثلكم بلا حجب ظلمانية كثيفة عنصرية؟! فيقول السامعون المخاطبون: سبحانك ذلك فضلك تختص به من تشاء من عبادك منة منك ورحمة وأنت ذو الفضل العظيم، فلا يضاهي هذا العبد أحد من خلق الله إلا العقل الأول والملائكة الكروبيون المهيمون.

وما ثم قلب بهذه المثابة من هذا العالم إلا قلوب الأفراد من رجال الله كالخضر وأمثاله وهم على قلب محمد ﷺ، فهذا قد ذكرنا يسيرًا من صورة تنزل الملائكة على قلب المحمدي الواقف».

وقال الشيخ ﷺ في الباب التاسع وثلاثمائة في معرفة منزل الملامتية من الحضرة المحمدية: « وهذا مقام رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق ﷺ، وممن تحقق به من الشيوخ: حمدون القصار، وأبو سعيد الخراز، وأبو يزيد البسطامي، وكان في زماننا هذا أبو السعود ابن الشبل، وعبد القادر الجيلي، ومحمد الأواني، وصالح البربري، وأبو عبد الله الشرفي، ويوسف الشبربلي، ويوسف بن يخلف، وابن جعدون الحناوي، ومحمد بن قسوم، وأبو عبد الله بن المجاهد، وعبد الله بن تاحمست، وأبو عبد الله المهدوي، وعبد الله القطان، وأبو العباس الحصار، ورأيت جماعة من أهله بحمد الله تعالى.

اعلم - وفقك الله- أن رجال الله ثلاثة لا رابع لهم رجال غلب عليهم الزهد والتبتل والأفعال الطاهرة المحمودة كلها، وطهروا أيضًا بواطنهم من كل صفة مذمومة قد

ذمها الشارع غير أنهم لا يرون شيئًا فوق ما هم عليه من هذه الأعمال، ولا معرفة لهم بالأحوال ولا المقامات ولا العلوم الوهبية اللدنية ولا الأسرار ولا الكشوف، ولا شيئًا مما يجده غيرهم، فهؤلاء يقال لهم: العباد، وهؤلاء إذا جاء إليهم أحد يسألهم الدعاء ربما انتهره أحدهم، أو يقول له: أي شيء أكون أنا حتى أدعو لك، وما منزلتي، حذرًا أن يتطرق إليهم العجب، وخوفًا من غوائل النفس لئلا يدخله الرياء في ذلك، وإن كان منهم أحد يشتغل بقراءة فكتابه مثل: «الرعاية» للمحاسبي، وما جرى مجراه.

والصنف الثاني فوق هؤلاء يرون الأفعال كلها لله، وأنه لا فعل لهم أصلاً، فزال عنهم الرياء جملة واحدة، وإذا سألتهم في شيء مما يحذره أهل الطريق يقولون: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأنعام:٤٠] ويقولون: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام:٩١]، وهم مثل العباد في الجد والاجتهاد والورع والزهد والتوكل وغير ذلك غير أنهم مع ذلك يرون أن ثم شيئًا فوق ما هم عليه من الأحوال والمقامات والعلوم والأسرار والكشوف والكرامات؛ فتتعلق هممهم بنيلها، فإذا نالوا شيئًا من ذلك ظهروا به في العامة من الكرامات؛ لأنهم لا يرون غير الله، وهم أهل خلق وفتوة.

وهذا الصنف يسمى: الصوفية، وهم بالنظر إلى الطبقة الثالثة أهل رعونة، وأصحاب نفوس، وتلامذتهم مثلهم أصحاب دعاوى يشمرون على كل أحد من خلق الله، ويظهرون الرئاسة على رجال الله.

والصنف الثالث رجال لا يزيدون على الصلوات الخمس إلا الرواتب لا يتميزون عن المؤمنين المؤدين فرائض الله بحالة زائدة، يعرفون بها يمشون في الأسواق، ويتكلمون مع الناس لا يبصر أحد من خلق الله واحدًا منهم يتميزون عن العامة بشيء زائد من عمل مفروض أو سنة معتادة في العامة، قد انفردوا مع الله، راسخين لا يتزلزلون عن عبوديتهم مع الله طرفة عين، ولا يعرفون للرئاسة طعمًا لاستيلاء الربوبية على قلوبهم وذلتهم تحتها، قد أعلمهم الله بالمواطن، وما تستحقه من الأعمال والأحوال، وهم يعاملون كل موطن مما يستحقه.

قد احتجبوا عن الخلق، واستتروا عنهم بستر العوام، فإنهم عبيد خالصون مخلصون لسيدهم، مشاهدون إياه على الدوام في أكلهم وشربهم ويقظتهم ونومهم وحديثهم معه في الناس يضعون الأسباب مواضعها، ويعرفون حكمتها حتى تراهم كأنهم الذي خلق كل شيء مما تراهم من إثباتهم الأسباب، وحظهم عليها يفتقرون إلى كل شيء؛ لأن كل شيء عندهم هو مسمى الله، ولا يفتقر إليهم في شيء؛ لأنه ما ظهر عليهم من صفة الغنى بالله

ولا العزة به، ولا أنهم من خواص الحضرة الإلهية أمر يوجب افتقار الأشياء إليهم، وهم يرون كون الأشياء لا تفتقر إليهم، ويفتقرون إليها كون الله قال للناس: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥] فهم وإن استغنوا بالله فلا يظهرون بصفة يمكن أن يطلق عليهم منها الاسم الذي قد وصف الله نفسه به، وهو الاسم: (الغني) وأبقوا لأنفسهم ظاهرًا وباطنًا الاسم الذي سماهم الله به وهو: (الفقير)، وقد علموا من هذا أن الفقر لا يكون إلا إلى الله الغني، ورأوا الناس قد افتقروا إلى الأسباب الموضوعة كلها، وقد حجبتهم في العامة عن الله، وهم على الحقيقة ما افتقروا في نفس الأمر إلا إلى من بيده قضاء حوائجهم وهو الله، قالوا فهنا قد تسمي الله بكل ما يفتقر إليه في الحقيقة، والله لا يفتقر إلى شيء، فلهذا افتقرت هذه الطائفة إلى الأشياء، ولم تفتقر إليهم الأشياء، وهم من الأشياء، والله لا يفتقر إلى شيء ويفتقر إليه كل شيء.

فهؤلاء هم الملامتية، وهم أرفع الرجال، وتلامذتهم أكبر الرجال يتقلبون في أطوار الرجولية، وليس ثم من حاز مقام الفتوة والخلق مع الله دون غيره سوى هؤلاء، فهم الذين حازوا جميع المنازل، ورأوا أن الله قد احتجب عن الخلق في الدنيا، وهم الخواص له فاحتجبوا عن الخلق لحجاب سيدهم، فهم من خلف الحجاب لا يشهدون في الخلق سوى سيدهم، فإذا كان في الدار الآخرة وتجلى الحق ظهر هؤلاء هناك لظهور سيدهم، فمكانتهم في الدنيا مجهولة العين، فالعباد متميزون عند العامة بتقشفهم وتبعدهم عن الناس، وأحوالهم وتجنب معاشرتهم بالجسم، فلهم الجزاء والصوفية متميزون عند العامة بالدعاوى وخرق العوائد من الكلام على الخواطر وإجابة الدعاء وإلا كل من الكون وكل خرق عادة، لا يتحاشون من إظهار شيء مما يؤدي إلى معرفة الناس به قربهم من الله؛ فإنهم لا يشاهدون في زعمهم إلا الله، وغاب عنهم علم كبير، وهذا الحال الذي هم فيه قليل السلامة من المكر والاستدراج.

والملامتية لا يتميزون عن أحد من خلق الله بشيء، فهم المجهولون حالهم حال العوام، واختصوا بهذا الاسم لأمرين، الواحد يطلق على تلامذتهم لكونهم لا يزالون يلومون أنفسهم في جنب الله، ولا يخلصون لها عملاً تفرح به تربية لهم؛ لأن الفرح بالأعمال لا يكون إلا بعد القبول، وهذا غائب عن التلامذة، وأما الأكابر فيطلق عليهم في ستر أحوالهم ومكانتهم من الله حين رأوا الناس إنما وقعوا في ذم الأفعال واللوم فيما بينهم فيها لكونهم لم يروا الأفعال من الله، وإنما يرونها ممن ظهرت على يده فناطوا اللوم والذم بها، فلو كشف الغطاء ورأوا أن الأفعال لله لما تعلق اللوم بمن ظهرت على يده، وصارت الأفعال عندهم في هذه الحالة كلها شريفة حسنة، وكذلك هذه الطائفة لو ظهرت مكانتهم

من الله للناس لاتخذوهم آلهة، فلما احتجبوا عن العامة بالعادة انطلق عليهم في العامة ما ينطلق على العامة من الملام فيما يظهر عنها مما يوجب ذلك، وكأن المكانة تلومهم حيث لم يظهروا عزتها وسلطانها، فهذا سبب إطلاق هذا اللفظ في الاصطلاح عليهم.

وهي طريقة مخصوصة لا يعرفها كل أحد انفرد بها أهل الله، وليس لهم في العامة حال يتميزون بها.

واعلم أن الحكيم من العباد هو الذي ينزل كل شيء منزلته ولا يتعدى به مرتبته، ويعطي كل ذي حق حقه، لا يحكم في شيء بغرضه ولا بهواه، لا تؤثر فيه الأعراض الطارئة، فينظر الحكيم إلى هذه الدار التي قد أسكنه الله فيها إلى أجل، وينظر إلى ما شرع الله له من التصرف فيها من غير زيادة ولا نقصان، فيجري على الأسلوب الذي قد أبين له، ولا يضع من يده الميزان الذي قد وضع له في هذا الموطن، فإنه إن وضعه جهل المقادير، فإما يخسر في وزنه أو يطفف، وقد ذم الله الحالتين، وجعل تعالى للتطفيف حالة تخصه يحمد فيها التطفيف، فيطفف هناك على علم، فإنه رجحان الميزان، ويكون مشكورًا عند الله في تطفيفه، فإذا علم هذا ولم يبرح الميزان من يديه لم يخط شيئًا من حكمة الله في خلقه، ويكون بذلك إمام وقته، فأول ما يزن به الأحوال في هذا الموطن، فإن اقتضى وزنه للحال إظهارًا لحق عباده وتعريف الخلق به عرفهم، وذلك في الموطن الذي لا يؤدي ذكره إلى أذى الله ورسوله فإن الله قد وصف نفسه بأنه يؤذي فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٥٧] وهذا الذي اقتضى له اسم: (الصبور)، والاسم: (الحليم)، وقال رسول الله ﷺ: «ليس شخص أصبر علي أذى من الله»[1] وقد كُذب وشُتم، وأخبر الله في الصحيح من الخبر عن رسول الله ﷺ عن ربه فقال: «كذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك»[2]، وهذا القول إنما تكلم به الاسم (اللطيف)، ولهذا أكسبه هذا اللطف في العتب في دار الدنيا، ووقع به التعريف ليرجع المكذب عن تكذيبه، والشاتم عن شتمه؛ فإنه موطن الرجوع والقبول منه والآخرة، وإن كانت موطن الرجوع، ولكن ليست موطن قبول، فمن الميزان ألا يعرض الحكيم بذكر الله، ولا بذكر رسوله، ولا أحد ممن له قدر في الدين عند الله في الأماكن التي يعرفها هذا الحكيم إذا ذكر الله فيها أو رسوله أو أحد ممن اعتنى الله به كالصحابة عند الشيعة، فإن ذلك داع إلى ثلب المذكور وشتمه،

---

(١) أورده الشيخ في «الفتوحات» (١/ ٤١٧).

(٢) رواه ابن منده في «الإيمان» (٢/ ٩٤٢)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص٢١٩).

وإدخال الأذى في حقه ففي مثل هذا الموطن لا يذكره ألا تراه ﷺ قد نهانا أن نسافر بالقرآن الذي هو المصحف إلى أرض العدو؛ فإنه يؤدي ذلك إلى التعرض لإهانته وعدم حرمته مما يطرأ عليه ممن لا يؤمن به؛ فإنه عدو له، وهذا مقام الملامي لا غيره، فالشريعة كلها هي أحوال الملامتية.

سُئلت عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها- عن خلق رسول الله ﷺ فقالت - رضي الله عنها-: «كان خلقه القرآن» ثم تلت قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤](١).

فالأصل الإلهي الذي استندت إليه هذه الطائفة هو ما ذكرناه من أن الحق سبحانه يجب لجلاله من التعظيم والكبرياء ما تستحقه الألوهية، ومع هذا فانظر موطن الدنيا ما اقتضاه في حق الحق من دعوى العبيد فيها الربوبية ومنازعة الحق في كبريائه وعظمته، فقال فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] وتكبر وتجبر، وسبب ذلك أن الموطن اقتضى أن ينحجب الخلق عن الله إذ لو أشهدهم نفسه في الدنيا لبطل حكم القضاء والقدر الذي هو علم الله في خلقه بما يكون عنهم وفيهم؛ فكان حجابه رحمة بهم وإبقاء عليهم، فإن تجليه سبحانه يعطي بذاته القهر فلا يتمكن معه دعوى.

فلما كانت الألوهية تجري بحكم المواطن كان هذا الأصل الإلهي مشهود الملامتية إذ كانوا حكماء علماء، فقالوا: نحن فروع هذا الأصل، إذ كان لكل ما يكون في العالم أصل إلهي، ولكن ما كل أصل إلهي يكون في حق العبد إذا اتصف به محمودًا فإن الكبرياء أصل إلهي بلا شك، ولكن إن اتصف به العبد وصير نفسه فرعًا لهذا الأصل واستعمله باطنًا فإنه مذموم بكل وجه بلا خلاف، ولكن إن استعمله ظاهرًا في موضع خاص قد عين له وأبيح له فيه استعماله صورة ظاهرة لا روح لها منه كان محمود النفس الصورة.

ولهذا رأت الطائفة أن خرق العوائد واجب سترها على الأولياء كما أن إظهارها واجب على الأنبياء لكونهم مشرعين لهم التحكم في النفوس والأموال والأهل، فلا بد من دليل يدل على أن التحكم في ذلك لرب المال والنفس والأهل، فإن الرسول من الجنس فلا يسلم له دعواه ما ليس له بأصل إلا بدليل قاطع وبرهان، والذي ليس له التشريع ولا التحكم في العالم بوضع الأحكام فلأي شيء يظهر خرق العوائد حين مكنه الله من ذلك ليجعلها دلالة له على قربه عنده لا لتعرف الناس ذلك منه، فمتى أظهرها في العموم

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٩١).

فلرعونة قامت به غلبت عليه نفسه فيها فهي إلى المكر والاستدراج أقرب منها إلى الكرامة.

فالملامتية أصحاب العلم الصحيح في ذلك، فهم الطبقة العليا وسادات الطريقة المثلى، والمكانة الزلفى في العدوة الدنيا والعدوة القصوى، ولهم اليد البيضاء في علم المواطن وأهلها وما تستحق أن تعامل به، ولهم علم الموازين وأداء الحقوق، وكان سلمان الفارسي ﷺ من أجلهم قدرًا، وهو من أصحاب رسول الله ﷺ في هذا المقام، وهو المقام الإلهي في الدنيا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

وقال الشيخ ﷺ في الباب التاسع والأربعين وثلاثمائة في معرفة منزل فتح الأبواب وغلقها: « واعلم أن من رحمة الله بخلقه أن جعل على قدم كل نبي وليًّا وارثًا له، فما زاد فلابد أن يكون في كل عصر مائة ألف ولي وأربعة وعشرون ألف ولي على عدد الأنبياء، ويزيدون ولا ينقصون، فإن زادوا قسم الله علم ذلك النبي على من ورثه، فإن العلوم المنزلة على قلوب الأنبياء لا ترتفع من الدنيا، وليس لها إلا قلوب الرجال فتقسم عليهم بحسب عددهم، فلا بد من أن يكون في الأمة من الأولياء على عدد الأنبياء وأكثر من ذلك، روينا عن الخضر أنه قال: «ما من يوم حدثت فيه نفسي أنه ما بقي ولي لله في الأرض إلا قد رأيته واجتمعت به فلا بد لي أن اجتمع في ذلك اليوم مع ولي لله لم أكن عرفته قبل ذلك»، وروينا عنه أنه قال: «اجتمعت بشخص يومًا لم أعرفه، فقال لي: يا خضر، سلام عليك، فقلت له: من أين عرفتني؟ فقال لي: إن الله عرفني بك، فعلمت أن لله عبادًا يعرفون الخضر ولا يعرفهم الخضر».

واعلم أن لله عبادًا أخفياء أبرياء أصفياء أولياء بينهم وبين الناس حجب العوائد، غامضين في الناس لا يظهر عليهم ما يميزهم عن الناس، وبهم يحفظ الله العالم، وينصر عباده، معروفون في السماء، مجهولون في الأرض عند أبناء الجنس لهم، المهناة في الدنيا والآخرة، ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء، لا في الدنيا يعرفون، ولا في الآخرة، يشفعون انفردوا بالحق في سرائرهم، وما كنت عرفت أن الله قد جعل في الوجود وليًّا له على كل قدم نبي، فإن الله تعالى لما جمع بيني وبين أنبيائه كلهم حتى ما بقي منهم نبي إلا رأيته في مجلس واحد لم أر معهم أحدًا ممن هو على قدمهم، ثم بعد ذلك رأيت جميع المؤمنين، وفيهم الذين هم على أقدام الأنبياء، وغيرهم من الأولياء، فلما لم يجمعهم مجلس واحد لذلك لم أعرفهم ثم عرفتهم بعد ذلك ونفعني الله برؤيتهم، وكان شيخنا أبو العباس العريني ﷺ على قدم عيسى ﷺ، وكنا نقول قبل هذا: إن ثم أولياء على قلوب الأنبياء، فقيل لنا: لا بل قل لهم على أقدام الأنبياء لا تقل على قلوبهم؛ فعلمت ما أراد بذلك لما أطلعني الله على ذلك رأيتهم على آثارهم يقفون، ورأيت لهم معراجين المعراج الواحد

يكونون فيه على قلوب الأنبياء، ولكن من حيث هم الأنبياء أولياء النبوة التي لا شرع فيها، والمعراج الثاني يكونون فيه على أقدام الأنبياء أصحاب الشرائع لا على قلوبهم، إذ لو كانوا على قلوبهم لنالوا ما نالته الأنبياء من الأحكام المشروعة، وليس ذلك لهم وإن وقع لهم التعريف الإلهي بذلك، ويأخذون الشرع من حيث أخذته الأنبياء، ولكن من مشكاة أنوار الأنبياء يقترن معه حكم الاتباع فما يخلص لهم ذلك من الله ولا من الروح القدسي، وما عدا هذا الفن من العلم فإنه مخلص للأولياء من الله سبحانه ومن الأرواح القدسية، وهذا كله لتتميز المراتب عند الله لنعرف ذلك؛ فنعطي كل ذي حق حقه كما أعطى الله كل شيء خلقه، وهذا كله من رحمة الله التي أفاضها على خلقه».

قال الشيخ في الباب الحادي والخمسين وثلاثمائة في معرفة منزل اشتراك النفوس والأرواح في الصفات، وهو من الحضرة الغيرة المحمدية من الاسم (الودود): «اعلم - أيدك الله- أن هذا المنزل من أعظم المنازل له الاسم: الأول والآخر والظاهر والباطن، والخلق والأمر يحوي على مقامات وأحوال لا يعرفها إلا القليل من الناس».

وحقق الشيخ ﷺ في هذا الباب تحقيقات كثيرة، وجعله عشرين فصلاً، وقال في الفصل العاشر: « العبودية ذلة محضة، خالصة ذاتية للعبد، لا يكلف العبد القيام فيها، فإنها عين ذاته، فإذا قام بحقها كان قيامه عبادة، ولا يقوم بها إلا من يسكن الأرض الإلهية الواسعة التي تسع الحدوث والقدم، فتلك أرض الله من سكن فيها تحقق بعبادة الله، وأضافه الحق إليه، قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦] يعني: فيها ولي مذ عبدت الله فيها من سنة تسعين وخمسمائة وأنا اليوم في سنة خمس وثلاثين وستمائة، ولهذه الأرض البقاء ما هي الأرض التي تقبل التبديل، ولهذا جعلها مسكن عباده، ومحل عبادته، والعبد لا يزال عبدًا أبدًا، فلا يزال في هذه الأرض أبدًا، وهي أرض معنوية معقولة غير محسوسة، وإن ظهرت في الحس فكظهور تجلي الحق في الصور، وتجلي المعاني في المحسوسات، ولا تظهر المعاني في الصور الحسية إلا لقصور بعض النفوس عن إدراك ما ليس بمادة، فإذا كان متضلعًا من المعرفة بالله لم ير المعاني في مواد، ولا رأى المواد في غير نفسها، فأدرك كل شيء في شيئيته كانت ما كانت، وهذا هو الإدراك الذي يعول عليه؛ لأنه بريء من التلبيس، ولا يصح بوجه من الوجوه أن يشهد الإنسان محض عبوديته، ولا يقام في عبادته المحضة التي لا يخالطها شيء من الربوبية التي تعطيه الصورة التي خلق عليها إلا عن تجل إلهي، فإذا لم يكن تجل فإن الإنسان يقام في الصورة التي خلق عليها، فيكون عبدًا ربًا، مالكًا مملوكًا، مثل العامة سواء غير أن الفارق بينه وبين العامة أنه للعامة اعتقاد، ولعلماء الرسوم علم، ولهذه الطائفة شهود.

وهو العبد الممتزج الظاهر بالحقيقتين وما يتخلص من هذا المزج إلا أهل العناية الذين يعمرون هذه الأرض الواسعة التي لا نهاية لها، وكل أرض سواها فمحدودة ليس لها هذا الحكم، ولهذا أربابها كثيرون، فإن لكل عبد فيها ملكًا يملكه، ويتصرف فيه فلا يتعدى غيره عليه وبنفس ما يملك منها كان مالكًا وربًّا فيها، وهذه الأرض الواسعة هي المتصرفة في سكانها الحاكمة عليهم بذاتها، وهي مجلى الربوبية، ومنصة المالك الحق، وفيها يرونه فمن كان من أهلها حيل بينه وبين الصورة التي خلق عليها فكان عبدًا محضًا شاهدًا يشاهد الحق في عين ذاته فالشهود له دائم، والحكم له لازم، وهؤلاء هم المسودون الوجه في الدنيا، والآخرة إذا علمت ذلك فالرب رب والعبد عبد، فلا تغالط ولا تخالط».

يريد الشيخ بالمسودين الوجه: الأصفياء الملامتية كما سبق ذكره في الباب الثالث والعشرين.

وقال الشيخ ﷺ في الفصل الحادي عشر في هذا الباب: الانتقالات في الأحوال من أثر كونه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، والعالم كله على الصورة، وليس هو غير الشئون التي تظهر بها، ولا يشهد هذا الأمر كشفًا إلا أصحاب الأحوال، ولا يشهد هذا حالاً إلا أهل السياحات، ولا يشهد علمًا إلا القائلون بتجدد الأعراض في كل زمان؛ فإن من عباد الله من لا يعرف بمكان إلا انتقل عنه إلى مكان غيرة منه على الله وعلى نفسه.

فأما غيرته على الله فإنه لا يعرف إلا به، فحاله هو الذي يظهره الحق لهم، فيغار على الجناب الإلهي حيث لا يذكر الله إلا به، وينبغي في نفس الأمر ألا يذكروا الله إلا بالله، فلما رأوا أن الأمر ظهر بالعكس، وهو قوله ﷺ حين قيل له: من أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رأوا ذكر الله»[1] فغاروا من هذا، وأرادوا احترام الجناب الإلهي حتى يذكروه ابتداء لا بسبب رؤيتهم.

وأما غيرتهم على نفوسهم، فإنهم ما تحققوا بالحق في تقلباتهم لمشاهدتهم شئون الحق إلا حتى لا يعرفهم الخلق كما لا يعرفون الحق، فما داموا يجهلون في العالم طاب عيشهم، وعلموا أن الله قد جعلهم أخفياء أبرياء مصانين في الكنف الأحمى من جملة ضنائنه، فمتى ما عرفوا انتقلوا إما بالحال وهو التصرف بحكم العادات التي هي مثل الآيات المعتادة فلا يعرفها إلا الذين يعقلون عن الله، وإما بالانتقال الحسي المكاني من مكان إلى مكان لتحققهم بالحق في نزوله من سماء إلى سماء، فمن أراد أن يتمتع بوجود هذا الصنف ومشاهدته ويستفيد منه من حيث لا يشعر فلا يظهر له أنه يعرفه ويظهر العزة عليه

(١) تقدم تخريجه.

والاستغناء عنه ويصحبه صحبة عادة العامة، ولا تبدو منه كلمة لا يرضاها الله؛ فإنه لا يحتملها صاحب هذا الحال، وينفر منه كما ينفر ممن يعلمه، فلا يعامله إلا بواجب أو مندوب أو مباح خاصة هكذا يقتضي حالهم:

مَـــنْ شَـــهِدَ الحَـــق في شُـــئونِهِ   أقامـــه الحـــقُّ في فُنونـــه
فهـــو علـــيمٌ بكـــل شيء   أشـــهده ذلـــك مـــن مبينـــه
فهـــو الإمـــام الـــذي ســـناه   يظهـــر في الكـــون مـــن جفونـــه
فكـــل شيء تـــراه عينـــا   فـــإنما ذاك مـــن عيونـــه
تفجـــرت في القلـــوب علـــمًا   عينًـــا وحقًـــا إلى يقينـــه
ســـبحان مـــن لا يـــراه غـــيري   كـــما أراه عـــلى شـــئونه

وقال ﷺ في الفصل الخامس عشر في هذا الباب: إذا أضيف حكم من أحكام الوجود إلى غير الله أنكره أهل الشهود خاصة، وهم الذين لا يشهدون شيء ولا يرونه إلا رأوا الله قبله، كما قال الصديق عن نفسه.

وأما العلماء فهم في هذا المقام على حكم الحق فيه لا على ما يشهدونه فينكرون النكرة، ويعرفون المعرفة إذ كان الوجود مبناه على المعرفة، وهو الأصل فلما جاءت الأمثال والأشباه ظهر التنكير فافتقرنا إلى البدل والنعت وعطف البيان، ولولا الأمثال وحصول التنكير ما احتجنا إلى شيء، وليس الحدود الذاتية للأشياء تقوي قوة النعوت؛ فإن الحدود الذاتية مثلاً للإنسان بما هو إنسان لا تميز زيدًا عن عمرو، فلا بد من زيادة يقع بها تعريف هذا التنكير، لو قلت: جاءني إنسان، لم يعرف من هو حتى تقول: فلان، فإن كان في حضرة التنكير نعته أو أبدلت منه أو عرفته بعطف البيان حتى تقيمه في حضرة التعريف ليعرف المخبر به من أردت.

وهذا مقام لم يتحقق به أحد مثل الملامتية من أهل الله، وهم سادات هذا الطريق، ومن الناس من ينكر على الحق لا على جهة الاعتراض عليه، وإنما يطلب بذلك أن يعلم ما هو الأمر عليه للذي جهله بالتعريف الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد على من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ومن هذا المقام قولي:

قلـــت لمـــن يخلـــق مـــا يخلـــق   مالـــك لا تبقـــى الـــذي تخلـــق

فقال لي أن المحل الذي أخلقه في نفسه ضيق
ما يقبل التكوين إلا كذا فاسكت فإن الباب لا يغلق
ما العين إلا واحد دائم فلا تبالي أنه مطلق
أجدد التكوين في عينه والناس في لبس فلا تنطق
خلف حجاب المثل أبصارهم لذلك الوهم لهم يسبق
فاستنشق العرف من أعراضهم فإنها المسك الذي يعبق
فانظر إلى موجد أعيانهم ما هو غير هكذا حققوا
فكل ما يرى منه بناؤه من صورة في ذاتنا تعلق
أرواحهم غذاء أشباحهم وروحهم من ثمري تعلق

وقال الشيخ ﷺ في الباب الثاني والخمسين في معرفة ينزل أسرار طلسمية مقصورة مدبرة في الحضرة المحمدية ﷺ: « اعلم - أيدك الله- أنه إنما سمي الطلسم بهذا الاسم لمقلوبه، يعني: أنه مسلط على كل من وكل به، فكل مسلط طلسم ما دام مسلطًا، فمن ذلك ما له تسليط على العقول، وهو أشدها؛ فإنه لا يتركها تقبل من الأخبار الإلهية والعلوم النبوية الكشفية إلا ما يدخل لها تحت تأويلها وميزانها، وإن لم يكن بهذه المثابة فلا تقبله، وهذا أصعب تسليط في العالم؛ فإن صاحبه المحجور عليه يفوته علم كثير بالله، فطلسمه الفكر، وسلطه الله عليه أن يفكر به؛ ليعلم أنه لا يعلم أمر من الأمور بالله، فعكس الأمر هذا المسلط، فقال له: لا تعلم الله يا عقل إلا بي.

والطلسم الآخر الخيال سلطه الله على المعاني يكسوها مواد يظهرها فيها لا يتمكن لمعنى يمنع نفسه منه.

والطلسم الثالث طلسم العادات، سلطه الله على النفوس الناطقة، فهي مهما فقدت شيئًا منها جرت إليه تطلبه لما له عليها من السلطان وقوة التأثير.

وما يتميز الرجال إلا في رفع هذه الطلسمات الثلاثة.

فأما الطلسم الأول: فرأيت جماعة من أهل الله قد استحكم فيهم سلطانه بحيث إنهم لا يلتذون بشيء من العلوم الإلهية التذاذهم بعلم يكون فيه رائحة فكر؛ فيكونون به أعظم لذة من علمهم بما يعطيهم الإيمان المحض بنوره الذي هو أكشف الأنوار وأوضحها بيانًا، وسبب ذلك ما نذكره.

وذلك أن نور الإيمان وهب إلهي، ليس فيه من الكسب شيء، ولا أثر للأدلة فيه ألبتة، فإنَّا قد رأينا من حصل العلم بالأدلة وبما دلت عليه بحيث لا يشك، ومع هذا لا أثر للإيمان فيه بوجه من الوجوه، فلما خرج عن كسب العبد فكأنه إذا فرح بما أعطاه نور الإيمان من العلم فرح بما ليس له، وإنه إذا أعمل الفكر في تحصيل علم بأمر ما وحصل له عن فكره ونظره فيه واجتهاده كان له تعمل واكتساب؛ فكانت لذته بما هو كسب له أعظم مما ليس فيه كسب؛ لأنه فيما اكتسبه خلاق، ولم يكن ذلك من هؤلاء إلا لجهلهم بأصولهم وبنفوسهم؛ لأنهم لو علموا أنهم ما خرجوا من العدم إلى الوجود إلا بالمنة والوهب وهبة الله لهم فأوجدهم ولم يكن لهم تعمل في ذلك، وهم في غاية من الالتذاذ بوجودهم، فكانوا على ما يعطي هذا الأصل أفرح بعلوم الوهب الذي يعطيهم نور الإيمان من الذي يعطيهم الفكر بنظره.

ثم الحجاب الآخر في جهلهم بنفوسهم، وبما فيهم أن العقل والفكر ما حصل لهم من الحق بتعمل ولا اكتساب بل بوهب إلهي، وهم به فرحون، فهلا كان فرحهم بما وهبهم الحق من العلم بنور الإيمان أعظم من فرحهم بما نالوه من جهة الفكر!

ثم إنهم من جهلهم وحجابهم أنهم يشهدون في أوقات في علم ما اتخذوه بالفكر شبهًا تدخل عليهم فيه فتزيله من أيديهم أو تحيرهم فيه؛ فيغتمون لذلك الغم الشديد، ويعملون فكرهم في أمر من أنواع الدلالات، إما أن يزيل عنهم تلك الشبهات حتى يعلموا أنها شبهات؛ فيرجعوا إلى ما كانوا عليه بلا مزيد، ويخسرون ما يعطيه المزيد الإلهي في كل نفس، وإما أن يعطيهم الفكر أن تلك الشبهة ليست بشبهة، بل هي دليل أعطاهم العلم بضد ما كانوا عليه، وأين الأمر الذي كانوا عليه فيفرحون به ويقولون: هو علم؟! لم يكن كذلك بل كان شبهة، فلو فتح الله عليهم لكانوا في هذا الذي رجعوا إليه تحت إمكان أيضًا كما ظهر لهم في حكم الأول الذي رجعوا عنه، فلو لم يكن لصاحب الفكر في العلم الإلهي صارف يصرفه عنه إلا هذا لكان فيه كفاية.

وكلامنا هذا إنما هو في حق المؤمنين من أهل الله، وأما من يرى أنه لا يأخذ إلا من الأرواح العلوية، وأنها المدة لهم، وأنهم يستنزلونها لتفيدهم، وأن جميع ما هم فيه إنما هو منهم كما يرون أن كل ما يحجبهم عن مثل هذا إنما هو نظرهم إلى شهواتهم، واشتغالهم بالأمور الطبيعية من أكل وشرب ونكاح وغير ذلك من مثل هذه الأمور - فلا كلام لنا معهم؛ فإنهم عبيد أكوان لا عبيد الله، ليس لهم رائحة إلا بعلم واحد أنه الأصل من غير تفصيل ولا استرسال واستصحاب وظهور في كل جزء، جزء من العالم إلا على مساحة ومعنى، والعالم الأسفل مساحة، ومعنى وفهم عن هذا كله محجوبون، وبه غير قائلين.

ولما كان الطلسم في أصل الوضع لا يضعه واضعه إلا لخفاء ما يمكن أن يشهد ويحصل أعملت الحيلة في رفع حكم ذلك الطلسم حتى يبدو ما كان يخفيه مما ينتفع به، فالإنسان من حيث قيوميته التي يعتقدها في نفسه هو طلسم على نفسه، وبتلك القيومية استخدم فكره وجميع قواه؛ لأنه يعتقد أنه رب في ذاته وفي ملكه مالك، ثم رأى الحق قد كلفه واستعمله فزاد تحقيقًا في قيوميته، ولو لم يكن له قيام بما كلفه الحق ما كلفه؛ فيقول: باستعمالي لهذه القوى يكون لي الدليل على أني صدقت ربي، وهو الصادق فيما كلفني به من استعمالها، ولم يتحقق هذا المسكين المواضع التي يستعملها فيها.

ثم إنهم رأوا أن أشرف ما يكتسبونه بها العلم بذات الله، وما ينبغي لها أن تكون عليه فتركوا استعمال قواهم فيما يمكن لهم أن يصلوا إليه، واستعملوها فيما لا يمكن الوصول إليه مع تبيين الحق لهم فيما شرع من قول الله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨] أي: لا تستعملوا فيها الفكر، وقال رسول الله ﷺ: «لا تتفكروا في ذات الله»[1] فعصوا الله ورسوله مع أنهم من أهل الله بالمعصية المقدرة عليهم، فلا بد من نفوذ حكمها فيهم، فالله يجعلنا ممن عصمه الله أن يستعمل قواه فيما ليس لها التصرف فيه، وأنه ولي كريم منعم محسان.

فإذا أراد الله أن يوفقك لرفع حكم هذا الطلسم حتى تشهد ما حجبك عنه وفقك لإزالة قيوميتك بقيوميته، واستعملك في فقرك، وذلك وشهود أصلك، واستعمل فكرك في أنك لك موهوب، وأنك صادر من عين منته عليك في وجودك، وفي تقلبك في أطوار نشأتك المحسوسة والمعنوية، وفي إسلامك وإيمانك إلى أن جعلك من أهله، واصطنعك لنفسه، وحجب غيرك ممن هو مثلك لا ليدلك عليه بل سابق عناية بك ومنة اختصاص، فإذا وفقك لمثل هذا النظر وفقك للنظر أيضًا في قواك وما بين لك من مصارفها؛ فلم تتعد بها مصرفها الإلهي، ووقفت عند حدوده، وعرفت قدرك فعرفت قدره، وجعلت أمرك كله فيما تصرفت فيه وهبًا إلهيًّا من عين منته، ونظرت إليه بنور الإيمان الذي وهبك إياه؛ فأشهدك الأمور كما هي عليه في نفسها، وكشف لك عن الحق، ورزقك اتباعه، وكشف لك عن الباطل، ورزقك الاجتناب عنه.

ورأيت جماعة في هذا الكشف من أصحاب الأفكار العقلاء النظار قد أراهم الفكر الحق باطلاً؛ فحققوه فاجتنبوا الحق واتبعوا الباطل، ولا علم لهم بذلك، إذ الباطل في جبلة كل أحد اجتنابه، فإذا رأيتهم على ذلك رحمتهم، فربما تدعوهم إليه، وهم يقذفون بالغيب

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (١/ ٢٤١).

من مكان بعيد؛ فيجهلونك فيما تدعوهم إليه من الحق، كما كان ﷺ يدعو أهل الشرك إلى التوحيد فيقول إذ دعاهم إلى ذلك ودعوه إلى ما هم عليه: ﴿مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤١] لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار، فيا ولي لا تقل في جوابي: إنهم أيضًا يقولون له مثل ما قال لهم، ليس الأمر كذلك، فإنهم مشركون فقد أثبتوا بكونهم مشركين عين ما دعاهم إليه هذا الرسول، وهو ما أثبت الشريك، وهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] فأثبتوا له سبحانه وتعالى التعظيم والمنزلة العظمى التي ليست لشركائهم، فمن هناك لم يتمكن لهم أن يقولوا في الجواب مثل ما قال لهم؛ فإنه قال لهم: ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [غافر:٤٢] وهم علماء بما دعاهم الرسول إليه، فلما دعاهم دعاهم بحالهم ولسانهم من حيث ما أثبتوا عين ما دعاهم إليه، وزادوا الشريك الذي لا علم لمحمد ﷺ به.

فإذا قال صاحب الكشف لصاحب الفكر مثل هذا كان جواب صاحب الفكر له أشد في البعد عن الله من المشركين مع رسول الله ﷺ، وكان المشركون أسعد حالة من أصحاب الفكر، فإنهم أثبتوا على كل حال عين ما دعاهم إليه أنه له المنزلة العليا، وهؤلاء قالوا: إن الله لا يعلم ما نحن عليه، حيث قالوا: إنه أعظم من أن يعلم الجزئيات، بل علمه في الأشياء علم كلي، وهو أن يعلم أن في العالم من يتحرك ويسكن، لا أنه يعلم أن زيد بن عمر، وهو المتحرك عند زوال الشمس، هذا أعطاهم فكرهم، فمن هنا يعلم أن المشرك أسعد حالاً منهم.

وأعطاهم فكرهم أن هذه النواميس الإلهية السائرة في العالم إمداد الأرواح العلوية للنفوس الفاضلة القابلة لمصالح العالم في الدنيا، فهي أوضاع روحانية على ألسنة قوم قد خلصوا نفوسهم من رق الشهوات، وأسر الطبيعة، وصفوا مرائي قلوبهم؛ فأقبلت عليهم الأرواح العلوية، وجالسوا بأفكارهم الملأ الأعلى؛ فأمدهم بما وضعوه في العالم من أسباب الخير، فسموا: أنبياء وحكماء ورسلاً، وليس إلا هذا، وجعلوا ما وضعوه من الوعد والوعيد المغيب المسمى الدار الآخرة سياسات يسوسون بها النفوس الشوارد عن النظر فيما ينبغي لهم مما وجدوا له لا غير، ونعوذ بالله من هذا القول، وهذا العلم، فهذا ما أعطاهم الفكر حيث استعملوه في غير موطنه، وذهبوا به في غير مذهبه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وأما الطلسم الثاني: وهو الخيال، فيجسد المعاني، ويدخلها في قلب الصور الحسية، فهو طلسم أيضًا على أهل الأفهام القاصرة التي لا علم لها بالمعاني المجردة عن المواد، فلا تشهدها، ولا يشهد هؤلاء إلا صورًا جسدية، فيحرم من حكم عليه طلسم الخيال إدراك

الأمور على ما هي عليه في أنفسها من غير تخيل، فهؤلاء لا يقبلون شيء من المعاني مع علمهم بأنها ليست صورًا جسدية إلا حتى يصوروها في خيالهم صورًا متجسدة متحيزة متميزة؛ فيجمعون بين النقيضين، فأنتم تعلمون أنها ليست صورًا ولا يقبلونها إلا صورًا، فمن أراد رفع حكم هذا الطلسم فإن الطلسم لا يرتفع أبدًا من هذه النشأة، فإنه وضع إلهي، وكذلك جميع الطلسمات الإلهية لا ترتفع أعيانها ولا ترفعه أحكامها في الموضع الذي جعل الحق تعالى حكمها فيه، ولكن بعض الناس خرجوا بها عن طريقها، فذلك الحكم الذي أعطاه ذلك الخروج هو الذي يرتفع لا غيره؛ فاعلم ذلك.

فيرتفع حكم صاحب هذا الطلسم إذا أبصر الفكر قد دخل لخزانة هذا الخيال، ثم انصرف خارجًا منه فيصحبه إلى العقل ليشاهد المعاني مجردة عن الصور كما هي في نفسها، فأول ما يشهد من ذلك حقيقة الفكر الذي صحبه إلى العقل فيراه مجردًا عن المواد التي كان الخيال يعطيه إياها؛ فيشكر الله، ويقول: هكذا كنت أعلمه قبل أن أشهده، وما كان الغرض إلا أن يوافق الشهود العلم، فإذا ارتفع إلى العقل شاهده أيضًا مجردًا عن المواد في نفسه؛ فيحصل له أنس بعالم المعاني المجرد عن المواد، فإذا تحقق بهذه المشاهدة انتقل إلى مشاهدة الحق الذي هو أثره في التجرد من المعاني؛ فإنه وإن تجردت المعاني المحدثة فما تجردت عن حدوثها وإمكانها فيشاهد فيها صاحب هذا المقام عدمها الأصلي الذي كان لها ويشاهد حدوثها ويشاهد إمكانها كل ذلك في غير صورة مادية.

فإذا ارتقى إلى الحق فأول ما يشاهد منه عين إمكانه فيقع له عند هذا تحير فيه، فإنه علمه غير ممكن فيأخذ الحق بيده في ذلك بأن يعرفه أن الذي شاهده من الحق ابتداء عين الإمكان الذي يرجع إلى المشاهد، وهو الذي يقول فيه: إنه يمكن أن يشهدني الحق نفسه، ويمكن ألا يشهدني، فهذا الإمكان هو الذي ظهر له من الحق في أول شهوده؛ فإنه قد ترجح له بالشهود أحد الوجهين من الإمكان؛ فيسكن عند ذلك، وتزول عنه الحيرة.

ثم يتجلى له الحق في غير مادة؛ لأنه ليس عند ذلك في عالم المواد؛ فيعلم من الله على قدر ما كان ذلك التجلي، ولا يقدر أحد على تعيين ما تجلى له من الحق إلا أنه تجلى في غير مادة لا غير، وسبب ذلك أن الله يتجلى لكل عبد من العلم في حقيقة ما هي عين ما تجلى بها لعبد آخر ولا هي عين ما يتجلى له بها في مجلى آخر، فلذلك لا يتعين ما تجلى فيه، ولا ينقال فإذا رجع هذا العبد من هذا المقام إلى عالم نفسه عالم المواد صحبه تجلي الحق فما من حضرة يدخلها من الحضرات لها حكم إلا، ويرى الحق قد تحول بحكم تلك الحضرة والعبد قد ضبط منه أولاً ما ضبط؛ فيعلم أنه قد تحول في أمر آخر فلا يجهله بعد ذلك أبدًا، ولا ينحجب عنه، فإن الله ما تجلى لأحد فانحجب عنه بعد ذلك، فإنه غير ممكن أصلاً.

فإذا نزل العبد إلى عالم خياله، وقد عرف الأمور على ما هي عليه مشاهدة، وقد كان قبل ذلك عرفها علمًا وإيمانًا رأى الحق في حضرة الخيال صورة جسدية، فلم ينكره وأنكره العابر والأجانب، ثم نزل من عالم الخيال إلى عالم الحس والمحسوس؛ فنزل الحق معه لنزوله فإنه لا يفارقه فيشاهده صورة كل ما شاهده من العالم لا يخص به صورة دون صورة من الأجسام والإعراض، ويراه عين نفسه، ويعلم أنه ما هو عين نفسه، ولا عين العالم ولا يحار في ذلك لما حصل له من التحقيق بصحبة الحق في نزوله معه من المقام الذي يستحقه، ولا عالم وراءه يتحول في كل حضرة بحسب حكمها، وهذا مشهد عزيز ما رأيت من يقول به من غير شهود إلا في عالم الأجسام والأجساد.

وسبب ذلك عدم الصحبة مع الحق لما نزل من المقام الذي يستحقه، فكان القائلون به في عالم الأجسام والأجساد مقلدين، ويعرف ذلك من كونه لا يصحبهم ذلك، وتتوالى الغفلات عليهم، فإذا حضروا بنفوسهم حينئذ يقولون بذلك، وصاحب الذوق لا غفلة عنده عن ذلك جملة واحدة، فإنه معلوم عنده والغفلة إنما تكون عن شيء دون شيء لا تعم فكل ما يبقى من الأمور غير مشهود لصاحب الغفلة، فإن صاحب الذوق يشهد الحق فيه فما بقي له مشهود في حال غفلته، ومن ليس له هذا المقام ذوقًا يغفل عن الحق بالأشياء حتى يستحضره في أوقات ما فهذا هو الفارق بين أصحاب الذوق وبين غيرهم، فلا تغالط نفسك.

وما رأيت واحدًا من أهل هذا المقام ذوقًا إلا أنه أخبرتني أهلي مريم بنت محمد بن عبدون أنها أبصرت واحدًا وصفت لي حاله؛ فعلمت أنه من أهل هذا الشهود إلا أنها ذكرت عنه أحوالاً تدل على عدم قوته فيه وضعفه مع تحققه بهذا الحال، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وأما الطلسم الثالث: وهو طلسم العادات الحاكمة على النفوس الناطقة لما حصل لها من الألفة بها، وتوقف المنافع والمصالح عليها دائمًا لا يرتفع فإذا أراد من أراد أن يرتفع عن حكم هذا الطلسم إذ علم أنه لا يرتفع، فإن الأسباب المألوفة هي أوضاع إلهية لا يمكن رفعها ولا دفعها يرجع هذا الشخص إلى النظر في وجهه الخاص به الذي لا أثر للسبب فيه، وهو خفي جدًا؛ فيعمد إلى بابه فيفتحه، ويكثر العكوف عليه، ويحس بالأسباب تجذبه عنه ليأخذ منها ما بيدها من الأمانات له فلا يفعل ولا يقبل ما تأتيه به، فإذا جاءه خاطر أن ذلك سوء أدب مع الله فخذ ما أعطاك وكن من الشاكرين، وأن هذه الأسباب لا يمكن رفعها فلا تبطل حكمة الله في حقك فتكون من الجاهلين فلا يصغ إلى هذا العتب ولا إلى هذا المعلم؛ فإنه خاطر نفسي ما هو خاطر إلهي، وليثبت على اعتكافه

بالباب الخاص، وليقل لذلك المعلم: إن الله قد نهى أن تؤتى البيوت من ظهورها، فلو كنت من الله لأتيت البيوت من أبوابها، وأنا بيت لا يزيده على هذا، فإذا أراده الحق لذلك المقام أدخل عليه ذلك السبب بما عنده من الأمانة له على باب ذلك الوجه الخاص الذي قد واجهه هذا العبد، واعتكف عليه، وذلك هو باب بيته، فإذا أعطاه ذلك السبب ما أعطاه قبله منه؛ لأنه ما جاءه إلا من باب الوجه الذي يطلب الأمر منه، وقد أتى البيت هذا السبب من بابه، وهذا هو المسمى خرق العوائد في العوائد، فإن العالم لا يشهدون صاحب هذا المقام إلا آخذًا من الأسباب فلا يفرقون بينهم وبينه فهو وحده يعرف كيف أخذ وليس هذا المقام إلا للملامتية وهم أعلى الطوائف، فإنهم في خرق العادة في عين العادة، وبينهم في المقام ما بين المحجوب والمشاهد ولكن لا يشعرون.

وأصحاب خرق العوائد الظاهرة ما لهم هذا المقام ولا شموا منه رائحة أصلاً، وهم الآخذون من الأسباب، فإن الأسباب ما زالت عنهم ولا تزول ولكن خفيت فإنه لا بد لصاحب خرق العادة الظاهرة من حركة حسيّة هي سبب وجود عين ذلك المطلوب فيغرف أو يقبض بيده في الهواء فيفتحه عن مقبوض عليه من ذهب أو غيره، فلم يكن إلا بسبب حركة من يده وقبض فما خرج عن سبب لكنه غير معتاد بالجملة لكن القبض معتاد وحركة اليد معتادة، وتحصيل هذا الذي حصل له من غير هذا الوجه معتاد وتحصيله من هذا الوجه غير معتاد، فقيل فيه: إنه خرق عادة؛ فاعلم ذلك.

فمن أراد رفع حكم طلسم العادات فليعمل نفسه فيما ذكرناه، فلا تحكم عليه العوائد، وهو في العوائد غير معروف عند العامة والخاصة»[1].

كما قال ﷺ في الباب الرابع والثمانين ومائة في معرفة مقام الكرامات نظم:

بَعضُ الرِّجَالِ يَرَى كَونُ الكَراماتِ ... دليلُ حَقٍّ عَلَى نَيلِ المَقَامَاتِ
وإنَّها عَينُ بُشرَى قَد أَتَتكَ بِها ... رُسُلُ المُهَيمنِ مِن فَوقِ السَّماواتِ
أَو عِندَنا فِيهِ تَفصِيلٌ إذَا عَلِمتْ ... بِهِ الجَماعَةُ لم تَفرَحْ بِآيَاتِ
كَيفَ السُّرورُ والاستِدرَاجُ يَصْحَبُها ... في حَقِّ قَومِ ذَوي جَهلٍ وآفَاتِ
ولَيسَ يَدرُونَ حقًّا أَنَّهم جَهِلُوا ... وذا إذَا كَانَ مِن أَقوَى الجَهَالاتِ
أو مَا الكَرامَةُ إلا حَقِيقَةٌ وجِدتْ ... في حَقِّ قَولٍ وأَفعَالٍ ونيَّاتِ

---

(١) انظر: «الفتوحات» (٥/ ٢٣٩)، ومختصر الفتوحات لسيدنا الشعراني (٢/ ٨٧٧)، بتحقيقنا.

تِلْـــكَ الكَرَامـــةُ لا تَبغِـــي بهـــا بـــدلاً واحْــذَر مِــن المكْــرِ في طَــي الكَرامَــاتِ

اعلم -أيدك الله- أن الكرامة من الحق من اسمه: (البر)، ولا تكون إلا للأبرار من عباده جزاء وفاقًا، فإن المناسبة تطلبها، وإن لم يقم طلب ممن ظهرت عليه، وهي على قسمين: حسية ومعنوية، فالعامة ما تعرف الكرامة إلا الحسية مثل الكلام على الخاطر والإخبار بالمغيبات الماضية والكائنة والآتية، والأخذ من الكون، والمشي على الماء، واختراق الهواء، وطي الأرض، والاحتجاب عن الأبصار، وإجابة الدعاء في الحال، فالعامة لا تعرف الكرامات إلا مثل هذا.

وأما الكرامة المعنوية فلا يعرفها إلا الخواص من عباد الله، والعامة لا تعرف ذلك، وهي أن تحفظ عليه آداب الشريعة، وأن يوفق لإتيان مكارم الأخلاق، واجتناب سفسافها، والمحافظة على أداء الواجبات مطلقًا في أوقاتها، والمسارعة إلى الخيرات وإزالة الغل والحقد من صدره للناس والحسد وسوء الظن، وطهارة القلب من كل صفة مذمومة، وتحليته بالمراقبة مع الأنفاس، ومراعاة حقوق الله في نفسه وفي الأشياء، وتفقد آثار ربه في قلبه، ومراعاة أنفاسه في خروجها ودخولها، فيتلقاها بالأدب إذا وردت عليه، ويخرجها وعليها خلعة الحضور.

فهذه كلها عندنا كرامات الأولياء المعنوية التي لا يدخلها مكر ولا استدراج، بل هي دليل على الوفاء بالعهود وصحة القصد والرضا بالقضاء في عدم المطلوب، ووجود المكروه، ولا يشاركك في هذه الكرامات إلا الملائكة المقربون وأهل الله المصطفون الأخيار.

وأما الكرامات التي ذكرنا أن العامة تعرفها فكلها يمكن أن يدخلها المكر الخفي ثم إنا فرضناها كرامة فلا بد أن تكون نتيجة عن استقامة أو تنتج استقامة لا بد من ذلك، وإلا فليست بكرامة، وإذا كانت الكرامة نتيجة استقامة فقد يمكن أن يجعلها الله حظ عملك وجزاء فعلك، فإذا قدمت عليه يمكن أن يحاسبك بها.

وما ذكرناه من الكرامات المعنوية فلا يدخلها شيء مما ذكرناه، فإن العلم يصحبها وقوة العلم وشرفه تعطيك أن المكر لا يدخلها، فإن الحدود الشرعية لا تنصب حبالة للمكر الإلهي، فإنها عين الطريق الواضحة إلى نيل السعادة، والعلم يعصمك من العجب بعملك، فإن العلم من شرفه أنه يستعملك، وإذا استعملك جردك منه، وأضاف ذلك إلى الله، وأعلمك أن بتوفيقه وهدايته ظهر منك ما ظهر من طاعته، والحفظ لحدوده، فإذا ظهر عليه شيء من كرامات العامة ضج إلى الله منها، وسأل الله ستره بالعوائد، وألا يتميز عن

العامة بأمر يشار إليه فيه ما عدا العلم؛ لأن العلم هو المطلوب، وبه تقع المنفعة، ولو لم يعمل به فإنه لا يستوي الذين يعملون والذين لا يعلمون؛ فالعلماء هم الآمنون من التلبيس.

فالكرامة من الله تعالى بعباده إنما تكون للوافدين عليه من الأكوان ومن نفوسهم لكونهم لم يروا وجه الحق فيهما فأسنى ما أكرمهم به من الكرامات العلم خاصة؛ لأن الدنيا موطنه، وأما غير ذلك من خرق العادات فليست الدنيا بموطن لها، ولا يصح كون ذلك كرامة إلا بتعريف إلهي لا بمجرد خرق العادة، وإذا لم تصح إلا بتعريف إلهي فذلك هو العلم.

فالكرامة الإلهية إنما هي ما يهبهم من العلم به ﷻ، سُئل أبو يزيد عن طي الأرض فقال: ليس بشيء؛ فإن إبليس يقطع من المشرق إلى المغرب في لحظة واحدة، وما هو عند الله بمكان، وسُئل عن اختراق الهواء، فقال: إن الطير يخترق الهواء، والمؤمن عند الله أفضل من الطير، فكيف يحسب كرامة من شاركه فيها طائر؟! وهكذا علل جميع ما ذكرناه، ثم قال: إلهي، إن قومًا طلبوك لما ذكروه فشغلتهم به وأهلتهم له، اللهم مهما أهلتني لشيء فأهلني لشيء من أشيائك، أي: من أسرارك، فما طلب إلا العلم؛ لأنه أسنى تحفة، وأعظم كرامة، ولو قامت عليك به الحجة فإنه يجعلك تعترف ولا تحاجج، فإنك تعلم مالك وما عليك، وما له وما أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يطلب منه الزيادة من شيء إلا من العلم؛ لأن الخير كله فيه، وهو الكرامة العظمى، والبطالة مع العلم أحسن من الجهل مع العمل.

وأسباب حصول العلم كثيرة، ولا أعني بالعلم إلا العلم بالله والدار الآخرة، وما تستحقه الدار الدنيا، وما خلقت له ولأي شيء وضعت حتى يكون الإنسان من أمره على بصيرة حيث كان فلا يجهل من نفسه ولا من حركاته شيئًا، والعلم صفة إحاطية إلهية، فهي أفضل ما في فضل الله كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]، رحمة منا.

فاعلم أن العلم من معدن الرحمة، فقد أعلمتك ما هي الكرامة، وأنها التعريف الإلهي بأن هذا الذي أتحفك به كرامة منه لا ينقص لك حظًا من آخرتك، ولا هو جزاء لشيء من عملك إلا لمجرد قدومك، وإن قدومك عليه لم يكن إلا لجهلك به حيث لم تره في أول قدم، كما اتفق لأبي يزيد لما خرج في طلب الحق من «بسطام» في أول أمره فلقيه بعض الرجال فقال له: ما تطلب يا أبا يزيد؟ قال: الله، قال له: الذي تطلبه تركته ببسطام، فتنبه أبو يزيد كيف يطلبه، وهو تعالى يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

فلا علم ولا إيمان، فإذا حرمك الله تحصيل علم مشاهدته فلا أقل من الإيمان به، وعرفهم أن ذلك جائزة الوفود خاصة، ومهما لم يعلموا ذلك منه بإعلامه إياهم، وإلا

فيخاف من المكر الإلهي في ذلك، أو نقص حظ آخر، ويتمنون في الآخرة أنهم لم يعطوا شيئًا من ذلك في الدنيا».

فلهذا لم يظهروا الكرامة الحسيّة الأصفياء الأخفياء، أعني: الملامتية باختيارهم، وتستروا بإتيان العوائد، كما ذكر الشيخ ﷺ في الباب الخامس والثمانين ومائة في معرفة مقام ترك الكرامات الذي أوردته آنفًا(١).

وقال ﷺ في الباب السادس والثمانين ومائة في معرفة مقام خرق العادات: «اعلم أن مقام خرق العادات على وجوه كثيرة: منها ما يكون عن قوى نفسية، فإن أجرام العالم تنفعل للهمم النفسية، هكذا جعل الله تعالى الأمر فيها، وقد تكون عن حيل طبيعية معلومة مثل: الفلقطيرات(٢) وغيرها، وبابها معلوم عند العلماء، وقد تكون عن نظم حروف بطوالع، وذلك لأهل الرصد، وقد تكون بأسماء يتلفظ بها ذاكرها؛ فيظهر عنها ذلك الفعل المسمى خرق عادة في ناظر عين الرائي لا في نفس الأمر، وقد تكون في نفس الأمر على قدر قوة ذلك الاسم.

وهذه كلها تحت قدرة المخلوق بجعل الله، وثم خرق عوائد مختصة بالجناب الإلهي ليس للعبد فيها تعمل ولا قوة، ولكن يظهرها الله عليه أو تظهر عنه بأمر الله وإعلامه، وهي على مراتب: منها ما تسمى معجزة، ولها شروط ونعت خاص معلوم، ومنها ما تسمى آية لا معجزة، ومنها ما تكون كرامة مؤيدة، ومنها ما تكون مؤيد، ومنها ما تكون منبهة وباعثة، ومنها ما يكون مكرًا واستدراجها كلها لها علامات عند أهل الله مع كون هؤلاء لا علم لهم بشيء من ذلك بخلاف الصنف الأول فإنهم على علم بما يصدر منهم، وما من شيء مما ذكرناه في الصنف الثاني المضاف عمله إلى الله تعالى إلا والاحتمال يدخله هل هو عن عناية أو لا عن عناية؟ إلا المعجزة والآية فإنها عن عناية ولابد أنها الصدق المخبر، والمؤيد كذلك، وما عدا هذين فيتطرق إليه الاحتمال كما ذكرنا ثم نرجع إلى ما يقضي به طريقنا أن خرق العادة في الأولياء لا يكون إلا لمن خرق العادة في نفسه بإخراجها عن حكم ما تعطيه حقيقتها، وهو تصرفها في المباح، أو ما يلقي إليها الشيطان بالتزيين من إتيان المحظور، أو ترك الواجب، فمن خرق في نفسه هذه العادة أخرق الله له عادة في الكون بأمر يسمى كلامًا على الخاطر، أو مشيًا في الهواء، أو ما كان، وقد ذكرنا فصول هذه

(١) انظر: «الفتوحات» (٤/ ٢٤)، وكتابينا: جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء في الحياة وبعد الانتقال – المحتوي على عشر رسائل تراثية – الحجج البينات في إثبات الكرامات في الحياة وبعد الممات.

(٢) هو خطوط طويلة عقدت عليها حروف وأشكال أي حلق ودوائر وزعموا أن لها تأثيرات بالخاصة وبعضها مقروء الخطوط، ولم يفرد له تصنيف في نوعه.

الكرامات وبينا مراتبها، وما ينتجها في كتاب مواقع النجوم ما سبقنا إليه في علمنا، أعني: إلى ترتيبه لا إلى علم ما فيه، وهو كتاب صحيح الطريق، عظيم الفائدة، صغير الحجم، وهو كتاب بنيناه على المناسبة، فإن المناسبة أصل وجود العالم، وخرق العوائد من العالم، وقد جعل الله آياته في العالم معتادة وغير معتادة.

فالمعتادة من اختلاف الليل والنهار، ونزول الأمطار، وإخراج النبات، وجرى الجواري في البحر، واختلاف الألسنة والألوان، والمنام بالليل والنهار لابتغاء الفضل، وكل ما ذكر في القرآن أنه ﴿لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:٦٧] و﴿يَسْمَعُونَ﴾ [النحل:٦٥] و﴿يَفْقَهُونَ﴾ [النساء:٧٨] و﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٤] و﴿يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٩٧] و﴿يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤] و﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٤٢].

ومع هذا كله فلا يرفع بذلك أحد من الناس رأسًا إلا أهل الله، وهم أهل القرآن خاصة الله.

وأما الآيات الغير المعتادة، وهي خرق العوائد، فهي التي تؤثر في نفوس العامة، مثل: الزلازل، والرجفات، والكسوف، ونطق حيوان، ومشي على ماء، واختراق هواء، وإعلام بكوائن في المستقبل تقع على حد ما أعلم، والكلام على الخواطر، والأكل من الكون، وإشباع القليل من طعام الكثير من الناس، هذا تعتبره العامة خاصة، ومتى لم يكن خرق العادة عن استقامة أو منبهًا وباعثًا على الرجوع إلى الله ويرجع وليس له فيه تعمل فهو مكر واستدراج من حيث لا يعلم، وهذا هو الكيد المتين، تحف الله مع المخالفات، وفيه سر عجيب للعارفين لولا ما في إذاعته من الضرر في العموم لذكرناه، وما كل ما يُدرى يقال، وليس خرق العوائد إلا أول مرة، فإذا عاد ثانية صار عادة.

وأما في الحقيقة فالأمر جديد أبدًا، وما ثم ما يعول، فما ثم خرق عادة وإنما هو أمر يظهر زي مثله لا عينه، فلم يعد فما هو عادة، فلو عاد لكان عادة، وانحجب الناس عن هذه الحقيقة، وقد نبهتك على ما هو الأمر عليه إن كنت تعقل ما أقول، فالألوهة أوسع من أن تعيد، ولكن الأمثال حجب على أعين العمى الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ﴾ [الروم:٧] وهو وجود عين المثل الثاني ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ فهم ﴿هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق:١٥] فالممكنات غير متناهية، والقدرة نافذة، والحق خلاق، فأين التكرار إذ لا يعقل إلا بالإعادة فالإعادة خرق العادة؟!».

وقال ﷺ في الباب التاسع والثمانين ومائة في مقام معرفة المعجزة: « وكيف يكون هذا المعجزة كرامة لمن كان له معجزة الاختلاف الحال نظم:

مَا كَانَ مُعجِزَةً فَلا سَبيلَ إلى ظُهُورِهِ مَرةً أُخْرَى إلى الأَبَدِ

لا في وليٍّ ولا في غَيرِهِ فَإذَا حَققتَ قَولي فَلا تَعدِلْ عَن الرشَدِ
ولو تحدَّى بِهِ خَلقٌ لا كَذبهُ صِدقُ المقدمِ في الأدنَى وفي البُعدِ
لذَلكَ اختلفَتْ في الأَنبياءِ فَلم يَظهَرْ لها أَثرٌ مِن بَعدِ في أَحدِ

اختلف الناس فيما كان معجزة لنبي هل يكون كرامة لولى أم لا؟ فالجمهور أجاز ذلك إلا الأستاذ أبا إسحاق الاسفراييني فإنه منع من ذلك، وهو الصحيح عندنا إلا أنَّا نشترط أمرًا لم يذكره الأستاذ، وهو أن نقول: إلا إن قام الولي بذلك الأمر المعجز على تصديق النبي لا على جهة الكرامة به، فهو واقع عندنا بل قد شاهدناه، فيظهر على الولي ما كان معجزة لنبي على ما قلناه، ولو تنبه لذلك الأستاذ لقال به، ولم ينكره؛ فإنه ما خرج عن بابه، فإن الذي وقع فيه الخلاف أنه هل يكون كرامة لولي؟ وهذا ليس بكرامة لولي إلا أن الذين أجازوا ذلك قالوا: بشرط أن يظهر عليه بالطريق التي ظهرت على يد الرسول الذي بها سميت معجزة، وجوزوا أن الولي لو تحدى بذلك على ولايته لجاز أن يخرق الله له تلك العادة، والكاذب لو تحدى بها على كذبه وهو صادق في أنه كاذب فجائز أن يخرق الله تلك العادة على صدقه أنه كاذب، فإن الفارق عندهم حاصل، وهو وجه يقال، والصحيح ما ذهب إليه الأستاذ، وهو الذي يعطيه الدليل النظري إلا أن يقول الرسول في وقت تحديه بالمنع في الوقت خاصة أو في مدة حياته خاصة، فإنه جائز أن يقع ذلك الفعل كرامة لغيره بعد انقضاء زمانه الذي اشترطه، وأما إن أطلقه فلا سبيل إلى هذا في علمنا، ولا ذكرناه، والله أعلم.

والإعجاز على ضربين:

الضرب الواحد: أن يأتي بأمر لا يكون مقدور البشر، ولا يقدر عليه إلا الله، وذلك عزيز، أعني: الوصول إلى العلم به كإحياء الموتى لا يقدر عليه إلا الله، ولكن الوصول إليه على طريق العلم أنه حي في نفس الأمر عزيز، فإنَّا رأينا عصا موسى ﷺ حية وعصي السحرة حيات، ولم تفرق العامة بين الحياتين، فلهذا قلنا: إن الوصول إلى علم ذلك عزيز.

والضرب الآخر: وهو الذي يمكن أن يكون أقرب، وهو الصرف، فيدعى في ذلك أن الذي هو مقدور لكم في العادة إذا أتيت أنا به على صدق دعواي، فإن الذي أرسلني يصرفكم عنه، فلا تقدرون على معارضته، فكل من في قدرته ذلك يجد في نفسه العجز في ذلك الوقت فلا يقدر على إتيان ما كان قبل هذه الدعوى يقدر عليه، وهذا أرفع للبس من الأول، فهذا معنى الأمر المعجز، ومع هذا فقد وقع وعرف أنه معجزة، وحصل العلم به

عند الناظر بصدق هذا الرسول، وما رزق الإيمان به وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًا، فتعلم أن الإيمان لا تعطيه إقامة الدليل بل هو نور إلهي يلقيه الله في قلب من شاء من عباده، وقد يكون عقيب الدليل، وقد لا يكون هناك دليل أصلاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

وقال الشيخ ﷺ في الباب الثامن والثلاثين وأربعمائة: «في معرفة منازلة من قرأ كلامي رأى غمامتي، فيها سرج ملائكتي تنزل عليه وفيه، إذا سكت رفعت عنه ونزلت أنا نظم:

كَلامِـي لَـيْسَ غَـيرِي وهـو غَـيْري ... وإنَّ المَثَـلَ للأمـثالِ ضِـدُّ
فَـقُل للعـارفين إذا قـرأتم ... كـلامَ اللهِ فالوجـدانِ فَقْـدُ
دَلِـيلي في شـهادتِهم حـروفٌ ... وفِي الغيـبِ المعـاني بالجِـدِّ
وأُسْلِـبَتَ الـستورُ فمـا رآهُ ... فعـينُ القـربِ في التحقيـقِ بَعْـدُ
فمَـنْ قَـرَأَ القـرآنَ فـلا يُفكِّـر ... ولا يَنْظُـر فـإنَّ الـسُمَّ شَهْـدُ

قال الله تعالى في آية طالوت: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:٢٤٨] وأنزلها الله في قلوب المؤمنين من أمة محمد ﷺ وبهذا وأمثاله كانت هذه الأمة المحمدية خير أمة أخرجت للناس، قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:٤].

فما كان شهادة في غير هذه الأمة نزل غيبًا في هذه الأمة فوجده أهل الأذواق في قلوبهم، فكانت صفة من صفاتهم، وكانت فيمن تقدم هذه الأمة من الأمم أجنبية عنهم، فعلامة هذه الأمة في قلوبهم «**استفت قلبك وإن أفتاك المفتون**»[1].

ومع كونها منزلة في قلوبهم ثم أشهدها الله تعالى بعض أصحاب محمد ﷺ في تلاوته القرآن، وكانت له فرس فجعلت تخبط، فرفع رأسه فرأى غمامة فيها سرج كلما قرأ نزلت ودنت منه وإذا سكت ارتفعت، فلما ذكر ذلك لرسول الله ﷺ قال له رسول الله ﷺ: «**تلك السكينة نزلت للقرآن**»[2].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٢٨)، وفي الورع (ص١٩٦).
(٢) رواه البخاري (٤/ ١٩١٤)، ومسلم (١/ ٥٤٧).

فرأى هذا الصاحب ممثلاً خارجًا عنه ببصره ما كان فيه، فكان الحق له مرآة، رأى صورة ما في قلبه فيها، فإن القرآن ذكر الله، و﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨] كذا ذكر الله لنا في كتابه العزيز.

والطمأنينة سكينة أنزلها القرآن في قلوب المؤمنين، فكانت آيات بني إسرائيل ظاهرة، وآياتنا في قلوبنا، وهذا الفرق بين الورثة المحمديين وسائر الأنبياء، فورثة الأنبياء يعرفون في العموم بما يظهر عليهم من خرق العوائد، ووارث محمد ﷺ مجهول في العموم معلوم في الخصوص؛ لأن خرق عادته إنما هو حال وعلم في قلبه، فهو في كل نفس يزداد علمًا بربه علم حال وذوق لا يزال كذلك.

وقد نبَّه الجنيد ﷺ على ذلك باختلاف أجوبته عن المسألة الواحدة من التوحيد في المجلس الواحد لاختلاف دقائق الزمان، ذكر ذلك القشيريُّ ﷺ في صدر رسالته المنسوبة إليه، وكلما ازداد المحمديّ علمًا بربه ازداد قربًا فهم المقرّبون، وأحوالهم الظاهرة تجري بحكم العوائد فيعرفون ولا يعرفون، ويأتون بما أعطاهم الله من العلم به في طريق النصح لهذه الأمة، فلا تعرف العامة قدر ذلك؛ لأنها اعتادت من علماء الرسوم مثل هذا إذا تكلموا في العلم بالله ﷻ من طريق الدليل، ولم تفرق بين علم الدليل وبين علم الذوق.

وأما علماء الرسوم فيكفرونهم غالبًا مع كونهم يسلمونه لرسول الله ﷺ بعينه إذا نقل عنه في قرآن أو خبر إلهي وغير إلهي، فانظر ما أشدّ هذا العمى، ولولا أنّ رسول الله ﷺ بعثه رسولاً ما ظهرت عليه آية ظاهرة في العموم كما ظهرت على من تقدم، فما ظهر عنه ﷺ من الآيات المنقولة في العموم، إنما كان ذلك من كونه رسولاً رفقًا من الله تعالى بهذه الأمة، وإقامة حجة على مَن كذبه، وكذب ما جاء به، ألا ترى إلى رسول الله ﷺ كيف أسرى به إلى المقام الذي قد عرف وجاء به القرآن والخبر الصحيح، فلما خرج إلى الناس بكرة تلك الليلة وذكر للأصحاب ما ذكر مما جرى له في إسرائه بينه وبين ربه تعالى أنكر عليه بعض أصحابه لكونهم ما رأوا لذلك أثرًا في الظاهر، بل زادهم حكمًا في التكليف، وموسى عليه السلام لما جاء من عند ربه كساه الله نورًا على وجهه يعرف به صدق ما ادعاه، فما رآه أحد إلا عمي من شدة نوره، فكان يتبرقع حتى لا يتأذى الناظر إلى وجهه عند رؤيته.

وكان شيخنا أبو يعزى بالمغرب موسويّ الورِث فأعطاه الله هذه الكرامة، فكان ما يرى أحد وجهه إلا عمي فيمسح الرائي إليه وجهه بثوب مما هو عليه فيرد الله عليه بصره، وممن رآه فعمي شيخنا أبو مدين - رحمة الله تعالى عليهما- حين رحل إليه فمسح عينيه بالثوب الذي على أبي يعزى فردّ الله عليه بصره، وخرق عوائده بالمغرب مشهورة، وكان في زماني وما رأيته لما كنت عليه من الشغل، وكان غيره من الأولياء المحمديين ممن هو أكبر منه في العلم والحال والقرب الإلهي لا يعرفهم أبو يعزى ﷺ ولا غيره.

فمن جعل الله آيته في قلبه، وكان على بينة من ربه في قربه فقد ملأ يديه من الخير كله واختصه واصطنعه لنفسه، وكساه الصفة الحجابية غيرة منه عليه، فلم تشهد حاله الأبصار في الدنيا، وهم الأخفياء والأبرياء، فمن تحققهم بالحق وليسوا برسل مشرعين حجبهم الحق لاحتجابه إلى يوم القيامة، فيظهرهم الله في الموطن الذي يتجلى الله فيه لأبصار عباده، ويظهر بنفسه وعينه للخاص والعام، فهناك يعرف قدر المحمديّ في القرب الإلهيّ بمقامه في تلاوته كلام ربه ﷻ وهو سكونه لما يتلوه من كشفه واطلاعه على معانيه، فهو في حال تلاوته يستذكر ما عنده فيطلع على نفسه ويسمعه الله نثر كلامه ونظمه بتأييد الروح القدسي لما جاء في النظم المسمى شعرًا من نفخ الشيطان إلا مثل هذا النظم، وقد صح في الخبر: «أن حسان بن ثابت لما أراد أن يهجو قريشًا ينافح بذلك عن رسول الله ﷺ قال له رسول الله ﷺ: «قل يا حسان؛ فإن روح القدس يؤيدك ما دمت تنافح عن عرض رسول الله»[1].

فلم يجعل للشيطان عليه سبيلاً، وإذا كان هذا لمن ينافح فما ظنك بحال من ينطق عن الله بالله؛ فيكون القائل منه عند قوله ربه ﷻ كما ورد في الصحيح: أن الله قال على لسان عبده: «سمع الله لمن حمده»[2] في الصلاة، والحاضرون ما سمعوا إلا صوت المصلي، وكلامه بهذا المتكلم به ما ينسبه الحق تعالى جلاله إلا إلى نفسه لا إلى المصلي؛ فاعلم أيها الولي الحميم ذلك تسعد إن شاء الله.

كلامي ليس غيري وهو غيري ... كما قلنا رميت وما رميتا
فيا نفسي إذا طلبت نفوس ... بمشهدك التحاما قول هيتا
ولا تبخل فإن البخل شؤم ... وتعلو بالعطاء إذا علوتا
وكن حقًا ولا تظهر بزور ... وكن عين القرآن إذا تلوتا
لأن الله لم يسمع لعبد ... يناديه بما يتلوه صوتا
فإن يتلو بحق قال عبدي ... وكان حاله المشهود ميتا
لأن الحق ليس يراه حيّ ... لذا كتبوا على الأحياء موتا

فكل من تلا وسكن لما تلا بصدق بصورة ظاهر وحكمة باطن فذلك تالٍ،

(١) رواه البخاري (١/ ١٧٣)، ومسلم (٤/ ١٩٣٣).
(٢) رواه مسلم (١/ ٣٠١).

وصاحب سكينة فإن هو تلا وسكن ظاهرًا ولم يسكن باطنًا والسكون الباطن فهم المعنى الساري في الوجود من تلك الآية المتلوة لا يقتصر بها على ما تدل عليه في الظاهر خاصة، فمن تلا هكذا فليس بصاحب سكينة أصلاً، ولا هو وارث محمديّ، وإن كان من أمة محمد ﷺ فإن تلا وسكن باطنًا ولم يسكن ظاهرًا وتعدى الظاهر المشروع فذلك ليس بوارث ولا محمديّ ولا بمؤمن، وهو أبعد الناس من الله، فإن الروح القدسيّ أولى من يرميه ويرمى به، والنبي محمد ﷺ يقول لربه في يوم القيامة: «سحقًا، سحقًا»[1] والله عند ذلك لا يسعده ولا يساعده، وأعظم حسرة تقوم به إذا عاين يوم القيامة من سكن إليه إذا تلاه باطنًا أو ظاهرًا؛ فيرى ما سكن إليه باطنًا قد سعد به هذا الآخر وشقي هو به، وما شقي إلا بعدم سكون الظاهر؛ فيفوته خير كثير حين فاته الإيمان به، فإنه أتى البيت من ظهره ولم يأته من بابه، جعلنا الله وإياكم ممن تلا فسكن، وفي المتلوين في تلاوته بحسب الآيات ثبت وتمكن، إنه الملي بذلك والقادر عليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

وقال الشيخ ﷺ في الباب الرابع والأربعين وأربعمائة: «في معرفة منازلة من كتب له كتاب العهد الخالص لا يشقى: قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣] ألا إنه العهد الذي خلص لنفسه في وفاء العبد به ما استخلصه العبد من الشيطان، ولا من الباعث عليه من خوف ولا رغبة ولا جنة ولا نار؛ فإنه قد يكون الباعث للمكلف مثل هذه الأمور في الوفاء بعهد الله؛ فيكون العبد من المخلصين، ويكون الدين بهذا الحكم مستخلصًا من يد من يعطي المشاركة فيه؛ فيميل العبد به عن الشريك، ولهذا قال فيه: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ [الحج:٣١] أي: مائلين به إلى جانب الحق الذي شرعه.

وأخذه على المكلفين من جانب الباطل إذ قد سماهم الحق مؤمنين في كتابه فقال في طائفة أنهم ﴿ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:٥٢] فكساهم حلة الإيمان فما الإيمان خصوص بالسعداء، ولا الكفر خصوص بالأشقياء، فوقع الاشتراك وتميزه قرائن الأحوال فلم يبق يعرف الإيمان من الكفر، ولا الإيمان من الإيمان، ولا الكفر من الكفر إلا بلابسه فالعهد الخالص هو الذي لما أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم.

ثم ولد كل بني آدم على الفطرة وهو قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»[2] وهو الميثاق الخالص لنفسه الذي ما ملكه أحد غصبًا؛ فاستخلص منه بل لم يزل خالصًا لنفسه في نفس الأمر طاهرًا مطهرًا.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٤٠٦)، ومسلم (١/ ٢١٨).
(٢) رواه البخاري (١/ ٩٧)، ومسلم (١/ ١٥٠).

ولكن هنا نكتة لا يمكن إظهارها كما كان الحق منزهًا لنفسه ما هو منزه لتنزيه عباده ولهذا قال من قال من العارفين: سبحاني ما أعظم شاني، فإذا ولد المولود ونشأ محفوظًا قبل التكليف كسهل بن عبد الله وأبي يزيد البسطامي، ومن اعتنى الله به من أمثالهما ممن كان من الناس قبلهما وبعدهما، وفي زمانهما ممن لم يصل إلينا خبره كما وصل إلينا خبر هذين السيدين، ولم يرزأه في عهده هذا بشيء مما ذكرناه آنفًا، فبقي عهده على أصله خالصًا، وهو الدين الخالص لا المخلص، فقام بالعبد من غير استخلاص فما هو من العباد الذين ﴿أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ [البينة:٥]، إذ لا فعل لهم في الاستخلاص بل لم يعرفوا إلا هذا الدين الخالص من غير شوب خالطه حتى يستخلصوا منه، فيكونون مخلصين هذا لم يذوقوا له طعمًا مثل ما ذاقه الغير.

ومن كان هذا حاله من الدين فهو صاحب العهد الخالص فلا يشقى فإنه لا يشقى إلا أهل المكابدة والمجاهدة في استخلاص الدين ممن أمرهم الله أن يستخلصوا منه، وليس على الحقيقة إلا هوى أنفسهم، وهؤلاء في المرتبة الثانية من السعادة، والطبقة الأولى هم الذين يغبطهم الأنبياء والشهداء أصحاب المنابر يوم القيامة، المجهولون في الدنيا فهم لا يشفعون ولا يستشفعون، ولا يرون للشفاعة قدرًا في جنب ما هم فيه من الحال الطاهر القدوس لا المقدس.

ومن هذا المقام قال أبو يزيد: لو شفعني الله في جميع الخلائق يوم القيامة لم يكن ذلك عندي بعظيم؛ لأنه ما شفعني إلا في لقمة طين، يعني: خلق آدم من طين، ونحن منه، كما قال: ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء:١] خلقت تلك النفس من طين.

فانظر ما أعجب إشارة أبي يزيد، وإياك أن يخطر لك في هذا الرجل احتقار منه للمقام المحمود الذي لمحمد ﷺ يوم القيامة، وأنه يفتح فيه أمر الشفاعة، وهو مقام جليل.

واعلم أنه ما سمي: «مقامًا محمودًا» لمجرد الشفاعة بل لما فيه من عواقب الثناء الإلهي الذي يثني رسول الله ﷺ بها على ربه ﷻ مما لا يعلم بذلك الثناء الخاص اليوم، فما حمد إلا من أجل الله لا من أجل الشفاعة، ثم جاءت الشفاعة تبعًا في هذا المقام، فيقال له عند فراغه من الثناء: «سل تعطه، واشفع تشفع»(١) فيشفع في الشافعين أن يشفعوا؛ فيبيح الله الشفاعة للشافعين عند ذلك، فيشفعون فلا يبقى ملك ولا رسول ولا مؤمن إلا ويشفع ممن هو من أهل الشفاعة(٢).

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٧٤٦)، ومسلم (١/ ١٨٠).

(٢) اعلم أنه ﷺ له عُلو المكان المعبَّر عنها بحقائق الأسماء والصفات وله علو المكان المعبَّر عنه بالوسيلة والمقام المحمود، فهو ﷺ أعلى الموجودات مكانةً ومكانًا. فاختصَّ ﷺ بغاية العلو الوجودي صورةً ومعنًى.

وأهل العهد الخالص على منابرهم لا يحزنهم الفزع الأكبر على نفوسهم ولا على أحد؛ لأنهم لم يكن لهم تبع في الدنيا، وكل من كان له تبع في الدنيا فإنه وإن أمن على نفسه فإنه لا يأمن على من بقي وعلى تابعه؛ لكونه لا يعلم هل قصر وفرّط فيما أمره به أم لا؟ فيحزنه الفزع الأكبر عليه، تقول بعض النساء من العارفين لجماعة من رجال الله: أرأيتم لو لم يخلق جنة ولا نارًا أليس هو بأهل أن يعبد؟!

تشير هذه المرأة إلى الدين الخالص، وهو هذا المقام وهي رابعة العدوية ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة:٥٤].

ويقول فيه أبو يزيد الأكبر: لا صفة لي، فلو استخلص عهده لكان مخلصًا، وإذا كان مخلصًا كان ذا صفة، فلم يصدق في قوله، وهو عندنا صادق.

وهذه الطائفة هم الذين عمهم قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٢٣] وهذا العهد الخالص فأمسكه الله عليهم، ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي: من وفى بعهده فإن النحب العهد، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ لأن العبد ما دام في الحياة الدنيا لا يأمن التبديل، فإن الله يفعل ما يريد، وما ويدري العبد على الحقيقة مما كان عليه من الحال في حال عدمه إذ كان مشهودًا لله لا لنفسه إلا ما مضى وما يقع، فهو في علم الله فلا يأمن مكر الله لعلمه بالله، ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً﴾ فلله رجال بهذه المثابة جعلنا الله منهم، فما أعظم بشارتها من آية.

ولا بلغ إلينا تعيين أحد من أهل هذه الصفة إلا طلحة بن عبيد الله من العشرة صح فيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هذا ممن قضى نحبه»[1] وهو في الحياة الدنيا، فأمن من التبديل، وهذا عظيم، ويدخل في هذا المقام وإن لم يبلغ مبلغ من له العهد الخالص بالأصالة من عهد الله على القيام بدينه عند توبته فوفى بما عاهد عليه الله، قال لي السيد سليمان الدبيليّ: إن له خمسين سنة ما خطر له خاطر سوء، فمثل هذا يلحق بهؤلاء إذا مات عليه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله.

وكل من جدد عهدًا مع الله فهو من المخلصين ما هو ممن له الدين الخالص فصاحب الدين الخالص مهما تجدد له من الله حكم بشرع لم يكن يعرفه قبل ذلك، وقد كلفه الحق به في كتابه أو على لسان رسوله، فإن هذا العبد يتلقاه بالدين الخالص، والعهد الأوّل، ولا يضرّه جهله بالمسألة المعينة الخاصة، هذا لا يقدح في صاحب هذا المقام كأبي بكر الصديق الذي ما رأى شيئًا إلا رأى الله قبله بالدين الخالص والعهد الإلهي الذي كان عليه وفي شهوده، ولهذا لما واجهه رسول الله ﷺ بالإيمان برسالته بادر وما تلكأ ولا طلب دليلاً

(١) رواه الترمذي (٥/ ٦٤٤)، وابن ماجه (١/ ٤٦).

على ذلك منه بل صدقه بذلك العهد الخالص، فإنه رأى رسالته هناك كما رأى رسول الله ﷺ نبوّته قبل وجود آدم كما روى عنه: «كنت نبيًّا وآدم وبين الماء والطين»(١) أي: لم يكن موجودًا، وإنما عرف بذلك لقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب:٧] وكان هذا الميثاق قبل وجود جسد آدم، فلما وجد آدم وقبض الحق على ظهره واستخرج منه كأمثال الذر يعني بينه أشهدهم كما جاء في القرآن فشهدوا، فهذا هو الميثاق الثاني.

والميثاق الأول هو ما أخذه على الأنبياء، فلما ولدوا فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من خذله الله فأشرك، جعلنا الله ممن قضى نحبه ولم يبدل آمين، بعزته، والله يقول وهو يهدي السبيل».

وقال ﷺ في الباب الخمسين وأربعمائة: «في معرفة منازلة من ثبت لظهوري كان بي؛ لأنه سبحانه كان به لا بي وهو الحقيقة والأول مجاز: اعلم أن عباد الله الذين أهلهم الله له، واختصهم من العباد على قسمين: عباد يكونون له به، وعباد يكونون له بأنفسهم، وما عدا هؤلاء فهم لأنفسهم بأنفسهم ليس لله منهم شيء، فلا كلام لنا مع هؤلاء؛ فإنهم جاهلون، ونعوذ بالله أن نكون من الجاهلين.

فأما العباد الذين هم له تعالى بأنفسهم فهم الذين تحققوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] فهم العبيد الصم الشداد الأشداء الرحماء بينهم، وعلامتهم الاتصاف بجميع الأحوال من فناء وبقاء ومحو وإثبات وغيبة وحضور وجمع وفرق إلى ما يقبله الكون من الأحوال، وكذلك من نعوتهم التي تنسب إلى المقامات المذكورة من توكل وزهد وورع ومعرفة ومحبة وصبر وشكر ورضا وتسليم إلى سائر المقامات المذكورة في الطريق؛ فإن نفوسهم تقبل التغيير والتحويل من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، ولكن ذلك كله لله لما سمعوا دعاءه إياهم من هذه الأمور كلها؛ فدخلوا عليه بها ذوقًا وحالاً لا علمًا ولا اعتقاد، فإن سائر المؤمنين والعلماء علماء الرسوم يعلمون هذه الأمور كلها، ولكن لا قدم لهم فيها، فهؤلاء إذا تجلى لهم الحق لم يثبتوا لظهوره؛ لأن المحدث إذا ظهر له القديم يمحو أثره إذ لا طاقة للمحدث على رؤية القديم.

ولهذا جاء الخبر الصحيح الإلهيّ بأن الحق قد يكون بصر العبد وسمعه حتى يثبت لظهور الحق في التجلي أو في الكلام، ألا ترى إلى موسى ﵇ لما كان الحق سمعه ثبت لكلام الله فكلمه، فلما وقع التجلي ولم يكن الحق عند ذلك بصر موسى كما كان سمعه صعق، ولم يثبت فلو كان بصره لثبت.

وأما العبيد الآخرون فهم له به فيثبتون في كل موطن مهول من حادث وقديم للقوّة الإلهية السارية في ذواتهم، فلا يبقى حال ولا مقام إلا ويظهرون به وفيه بطريق التحكم به

---

(١) تقدم تخريجه.

والتصرف فيه، فهم يملكون الأحوال والمقامات، ولا يملكهم شيء إلا ما قررناه من ذلك الأمر الذي يملك الحق إذا كان الحق ملك الملك، فبذلك القدر يكونون في ذواتهم فيه تعالى يسمعون ويبصرون ويأكلون ويشربون وينامون ويقومون وله يسمعون ويبصرون ويأكلون ويشربون وينامون ويقومون، وهو قول رسول الله ﷺ في بعض خطبه في الثناء على الله: «**فإنما نحن به وله**»[1].

فإذا اجتمع عبدان الواحد له بنفسه والآخر له به أنكر من هو له بنفسه على من هو له به، ولم ينكر من هو له به على من هو له بنفسه؛ لأنه عبد محض خالص، والآخر حق محض خالص، والصورة الظاهرة منهما صورة خلق والباطنة من هو لله بنفسه صورة خلق، والصورة الباطنة من الآخر صورة حق، فهذا يتصرف بحق في حق لحق، والآخر يتصرّف بخلق في خلق لحق منهم من يتصرّف في حق لحق بخلق، أعني: من الذين هم بأنفسهم، فخرق العوائد لمن كان لله بنفسه، والمنزلة لمن كان لله بالله، فهؤلاء أصحاب كرامات، وهؤلاء أهل منازل، وأصحاب الكرامات معلومون عند الله، معلومون عند الخلق، وأهل المنازل، معلومون عند الله وعند أبناء الجنس، مجهولون عند الخلق إلا أن أهل خرق العوائد يبطن في حالهم المكر الإلهيّ والاستدراج، وأهل المنازل مخلصون من المكر؛ لأنهم على بصيرة وبينة من ربهم، فهم أهل وصول إلى عين الحقيقة، جعلنا الله وإياكم من عبيد الاختصاص آمين بعزته، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

وقال الشيخ ﷺ في الباب الحادي والستين وأربعمائة: «في معرفة منازلة من أسدلت عليه حجاب كنفي فهو من ضنائني لا يَعرف ولا يُعرف:

إنَّ الضنائنَ عندَ الله في سترِ — مخدرون فلا تُدرى ولا تَدري

يَغار منهم عليهم مثل ما حجبت — بين الليالي صونًا ليلة القدرِ

فلا يراها سوى مَنْ لا يقيدهُ — لَفْتٌ يجرِّدهُ مِنْ عالمِ الأمرِ

يبدو لناظرِ مِنْ خلفِ زافر — مِنْ أول الليلِ حتى مطلعِ الفجرِ

قال الله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٢] وهم العارفون إشارة لا تفسيرًا المجهولون في العالم، فلا يظهر منهم ولا عليهم، ما يعرفون به، وهم لا يشهدون في الكون إلا الله، لا يعرفون ما العالم؛ لأنهم لا يشهدونه عالمًا

---

(١) رواه أبو داود في سننه (١/ ٢٨٧)، وفي «المراسيل» (ص١٠٣).

فـالحقُّ سَـار ولكـن لـيس يدريـه إلا الـذي قَـال فيـه أنَّـه فيـه

لكل مليك حُرم وحَرم، وهؤلاء العارفون العلماء به وحَرمه وحُرمه الذي هم فيه العوائد العامة، فما سترهم إلا بما هو مشهود للعام والخاص، فالعالم يشهد الحق اعتقادًا وعينًا، ويشهد العالم، وهؤلاء يشهدون الحق عينًا، ويشهدون العالم إيمانًا؛ لكون الحق أخبرهم أن ثم عالمًا فيؤمنون به ولا يرونه، كما أن العالم يؤمنون بالله ولا يرونه، فهم شهداء حق بحق، وهم في مقعد صدق فيما تحققوا به.

فإن قيل لهم: فقولكم بالشاهد والمشهود فرق، فيقولون عند ذلك: أليس تشهد ذاتك بذاتك فأنت غيرك؟!

وكلامهم في هذا كله مع الحق شهودًا ومع الإيمان بأن ثم عالمًا أدبًا وإيمانًا، فهم المؤمنون حقًا والعلماء صدقًا».

وقال الشيخ ﷺ في الباب الثالث والثلاثين وخمسمائة: «في معرفة حال قطب كان منزله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]:

هَـذا هـوَ الحـقُّ الـذي لاَ يُجحَـدُ إنَّ الـدعاءَ حجـابُ مَـنْ لا يـشهدُ
وهـوَ الـذي في كـل حـالٍ يـشهدُ وهــوَ القريــبُ بعلمــهِ وبعينــهِ
مـن قَبْـل ذَا أعطَـاك هَـذا المـشهدُ لكنـــهُ لَمَّـــا دعَـــاكَ دعوتَـــهُ
تَـدعُو فمَـنْ تَـدعُوهُ أو مَـنْ تقـصدُ فـإذَا علمـتَ بأنَّـه عيـنُ الـذي
أنَّ الـدعاءَ هـوَ الحجـابُ الأبعـدُ فـادعُوه أمـرًا لَا تكـنْ ممـنْ يَـرَى

اعلم - أيدنا الله وإيّاك بروح منه- أن الله تعالى ما أخبر نبيه ﷺ بقربه من السائلين من عباده بالإجابة فيما يسألونه فيه إلا وقد ساوانا في العلم بالله من هذا الوجه، ولو كان هذا القرب الإلهي في الإجابة قربه في المسافة التي ذكر عنها أنه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد لاكتفى، وذلك لأنه لا يلزم من هذا القرب السماع، كما لا يلزم من السماع في السؤال الإجابة، فحصل من الفائدة بهذا التعريف ثلاثة أمور: القرب، والسماع، والإجابة، فلم يترك لعبده حجة عليه بل لله الحجة البالغة.

فإذا أقيم العبد في هذا الذكر فأول ما ينتج له الزهد فيما سوى الله، فلا يتوسل إليه بغيره، فإن التوسل إنما هو طلب القرب منه، فقد أخبرنا الله تعالى أنه قريب، فلا فائدة لهذا

الطلب، وخبره صدق، ثم أخبر أنه يجيب سؤال السائلين، فهو إخبار بأن بيده ملكوت كل شيء، وأخبر بالإجابة ليتحفظ السائل، ويراقب ما يسأل فيه؛ لأنه لا بد من الإجابة، فقد يسأل العبد فيما لا خير له فيه لجهله بالمصالح، فهو تنبيه من الله، وتحذير ألا يسأل إلا فيما يعلم أن له فيه الخير الوافر عند الله في الدنيا والآخرة.

فمن أخذ هذا الذكر على جهة التنبيه فلم يسأل الله تعالى في حاجة من حوائج الدنيا على التعيين، ولكن يسأل فيما له فيه خير مما يعلمه الله مبهمًا لا يعين، فإذا عين - ولا بد- فليسأل فيه الخيرة وسلامة الدين.

وأما تعيينه في السؤال فيما يرجع إلى أمر الدين فليعين ما شاء ولا مكر فيه، ولا غائلة، وكذلك ما يسأل فيه مما يتعلق بالآخرة.

ولكن هنا شرط أبينه في هذا الذكر من أجل ما نرى في الوقائع من عدم الإجابة لأكثر الناس فيما يسألون فيه ربهم.

فاعلم أن الله أخبر أنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وما دعاؤه إياه إلا عين قوله حين يناديه باسم من أسمائه، فيقول: يا ألله، أو يا رب، أو رب يا ذا المجد والكرم، وما أشبه ذلك، فالدعاء نداء، وهو تائه بالله، فأجابه هذا القدر الذي هو الدعوة بها سمي داعيًا أن يلبيه الحق، فيقول: لبيك، فهذا لا بد منه من الله في حق كل سائل.

ثم ما يأتي بعد هذا النداء فهو خارج عن الدعاء، وقد وقعت الإجابة كما قال فيوصل بعد النداء من الحوائج ما قام في خاطره مما شاءه، فلم يضمن في هذا الذكر إجابته فما سأل فيه ودعاه من أجله فهو إن شاء قضى حاجته، وإن شاء لم يفعل، ولهذا ما كل مسئول فيه يقضيه الله لعبده، وذلك رحمة به؛ فإنه قد يسأل فيما لا خير له فيه، فلو ضمن الإجابة في ذلك لوقع ويكون فيه هلاكه في دينه وآخرته، وربما في دنياه من حيث لا يشعر، فمن كرمه أنه ما ضمن الإجابة فيما يسأل فيه، وإنما ضمن الإجابة في الدعاء خاصة كما بيناه، وهذا غاية الكرم من السيد في حق عبده حيث أبقى عليهم.

ثم إن هذا الذكر إذا أنتج له سماع الإجابة الإلهية فإنه لا بد لصاحب هذا الذكر أن يسمع الإجابة ولكن ذوقهم في السماع مختلفة، فقد يكون إسماع واحد غير إسماع الآخر ولكن لا بد من علامة يعطيها الله لهذا الذاكر يعلم بها أنه قد أجاب دعاءه، ومعلوم أنه أجاب دعاءه، وإنما أريد أنه يعلمه أن الذي سأل فيه قد قضى، وإن تأخر أعطى بدله على طريق العوض لما له في البدل من الخير، وقد يكشف له عن خواص الأحوال والأزمنة والأمكنة التي توجب قضاء حاجة الداعي فيما سأل فيه، وإن لم يكن له فيه خير ويعود وباله عليه؛ فيكون ممن جنى على نفسه، فإذا كشف الله به مثل هذا يتحرّز في الدعاء وفيما يدعوه فيه.

وكذلك يكشف له بخاصية ما يدعو به من الأسماء والكلمات ألا ترى ابن باعوراء وكان قد أتاه الله العلم بخاصية آية من آياته فدعا بها على موسى عليه السلام وقومه فأجابه الله فيما دعا فيه، وشقي هو في نفسه، وسلب الله عنه علم ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٧٥] فانسلخ منه الآيات، وجعله مثله كمثل الكلب فيكشف الله لصاحب هذا الذكر علم هذا عناية منه به، فإن في ذلك مكرًا إلهيًّا من حيث لا يشعر، ولاسيما والنفس مجبولة على حب الشفوف على أبناء الجنس، وإظهار قدرها عند الله، ولهذا أكابر الأولياء أخفياء أبرياء، لا ترى عليهم من أثر المكانة والتقريب ما تحيد من أجله أبصار الخلق إليهم، بل لا فرق بينهم وبين العامة، والذين ملكتهم الأحوال لهم خرق العوائد والظهور ولكن لا يفي ذلك بما فيه من المكر والاستدراج؛ فإنه في غير موطنه ظهر ممن لا يجب عليه الظهور به، وهو الولي.

وأصعب ما في الأمر أن يذوق في ذلك طعم نفسه؛ فإن صاحبه لا يفلح أبدًا ولو صرف الكون والعالم على حكمه فإذا سألتم الله فاسألوه التوفيق والعافية والعناية في تحصيل السعادة ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] فإن العلم يأبى إلا السعادة، فإن الله ما أمر نبيه بطلب الزيادة منه إلا وقد علم أن عين حصول العلم المطلوب هو عين السعادة ما فيه مكر ولا استدراج أصلاً، وما هو إلا بالعلم بالله خاصة لا العلم بالحساب والهندسة والنجوم، ولو علم ذلك لكان علم دلالة على علم بالله فلم يعطه الله ذلك للوقوف عنده، فهذا ذكر عظيم الفائدة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

وقال ﷺ في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة في معرفة أسرار وحقائق من منازل مختلفة، وسر ذلك الضنائن خواتن، وقال: خزائن، وقال: نفوس العارفين حور مقصورات في خيام، كنفه ضنائن مصانون في العوائد، يعرفون وينكرون، فالحاصل من مفهوم من مقالات الشيخ ﷺ أن الملامتية الأخفياء هم سادات أهل الطريق، ولهم فضيلة وتقدم في المنزلة على الصوفية الذين يظهرون الكرامات باختيارهم، ويتميزون بخوارق العادات، ويُعَظمون ويشار إليهم بها.

قال شيخ الطريقة شهاب الدين السهروردي ابن أخي أبو النجيب السهروردي -نور الله رمسه- قدم الصوفية على الملامتية في المنزلة.

وقدم الملامتية على المتصوفة في المرتبة في مصنفه المسمى بـ«عوارف المعارف» وقال فيه في الباب الثامن في ذكر الملامتية: قال بعضهم: إن الملامتي هو الذي لا يظهر خيرًا، ولا يضمر شرًا، ويسرع هذا هو أن الملامتية تشربت عروقه طعم الإخلاص، وتحلق بالصدق، فلا يجب أن يطلع أحد على حاله وأعماله.

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل المقدسي إجازةً: قال: أنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف الشيرازي إجازةً: قال: أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السُلمي قال: سمعت علي بن سعيد، وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سمعت محمد بن جعفر الخصاف، وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا يعقوب الشروطي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن علي [المصيصي] عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: «**سألت جبرائيل عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال تعالى: هو سر من سري، استودعته قلب من أحببته من عبادي**»(١).

فالملامتية لهم من الله اختصاص بالتمسك بالإخلاص، يرون كتم الأعمال والأحوال، ويتلذذون بكتمها حتى لو ظهرت أعمالهم وأحوالهم لأحد استوحشوا من ذلك كما يتوحش العاصي من ظهور معصيته.

فالملامي عظّم موقع الإخلاص وموضعه، وتمسك معتدًا به، والصوفي غاب في إخلاصه عن إخلاصه، قال أبو يعقوب السوسي - رحمه الله-: متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى الإخلاص، وقال ذو النون - رحمه الله-: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، وترك ثواب العمل في الآخرة، أخبرنا أبو ذرعة إجازةً قال: أنا أبو عبد الرحمن قال: سمعت أبا عثمان المغربي يقول: الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال، وهذا إخلاص العوام، وإخلاص الخواص ما يجري عليهم؛ لأنهم قيدوا فيهم الطاعات، وهم عنها بمعزل، ولا يقع عليها رؤية، ولا بها اعتداد، فذلك إخلاص الخواص، وهذا الذي فصَّله الشيخ أبو بكر علي بن خلف إجازةً قال: أنا عثمان المغربي - رحمه الله- يفرق بين الصوفي والملامتي؛ لأن الملامتي أقرب الخلق عن عمله وحاله، ولكن ما ثبت نفس عن عمله فهو مخلص، والصوفي يخرج نفسه عن عمله وحاله، كما أخرج غيره، فهو مخلص، فشتان بين المخلِص والمخلَص، وقال أبو بكر الدقاق: نقصان كلّ مخلص في إخلاصه: رؤية إخلاصه؛ فإذا أراد الله تعالى أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه؛ فيكون مخلَصًا لا مخلِصًا.

---

(١) رواه الديلمي في «الفردوس» (٣/ ١٨٧)، والقشيري في «الرسالة» (ص٩٥).

قال أبو سعيد الخرّاز: رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين، ومعنى قوله: لأن الإخلاص معلول يرى به الإخلاص، والعارف منزه عن الرياء الذي يبطل العمل، ولكن لعله يظهر شيئًا من حاله وعمله بعلم كامل عنده فيه لجذب مريده أن معاناة خلق من أخلاق النفس في إظهاره الحال والعمل.

وللعارفين في ذلك علم دقيق لا يعرفه غيرهم، فيرى ذلك ناقص العلم صورة رياء وليس برياء، إنما هو صريح العلم لله بالله من غير حضور نفس، ووجود آفة فيه.

وقال رويم - رحمه الله-: الإخلاص أن لا يرضى صاحبه عليه عوضًا في الدارين، ولاحظًا من الملكين، وقال بعضهم: صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الحق.

فالملامتي يرى الخلق فيخفي عمله وحاله، وكل ما ذكرنا فيه قبل وصف إخلاص الصوفي، فلهذا قال الدَّقاق - رحمه الله-: لابد لكل مخلص من رؤية إخلاصه، وهو نقصان عنه كمال الإخلاص، والإخلاص من هو الذي يتولى الله حفظ صاحبه حتى أتى به على التمام.

قال جعفر الخلدي - رحمه الله-: سألت أبا القاسم الجنيد - قدس سره- قلت: أبين الإخلاص والصدق فرق؟ قال: نعم، الصدق أصل وهو الأول، والإخلاص فرع وهو الآخر، وقال: بينهما فرق؛ لأن الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل، ثم قال: إنما هو إخلاص، ومخالصة الإخلاص وخالصته كائنة في المخالصة، فعلى هذا الإخلاص حلل الملامتي ومخالصته الإخلاص حال الصوفي، والخلاصة الكائنة في المخالصة ثمرة مخالصته الإخلاص، وهو فناء العبد عن رسومه، رؤيته قيامه بقوميته بل غيبته رؤية قيامه وهو الاستغراق في العين بالإيثار، والإخلاص عن كون الاستئثار، وهو نقد الصوفي والملامتي مقيم في أوطان إخلاصه غير متطلع على حقيقة إخلاصه، وهذا فرق واضح بين الملامتي والصوفي، ولم يزل في خراسان منهم طائفة، ولهم مشايخ يمهدون أتباعهم، ويعرفون شروط حالهم، وقد رأينا في العراق من يسلك هذا المسلك، ولكن لم يشتهر بهذا الاسم، وقل ما تبدأ السنة أهل العراق هذا الاسم.

حُكي أن بعض الملامتي استُدعي إلى سماع فامتنع، فقيل له في ذلك، فقال: لأني إن حضرت يظهر عليّ وجد، ولا أوثر أن يعلم أحد حالي، وصل أن أحمد بن أبي الحواري قال لسليمان الداراني: إذا كنتُ في الخلوة أجد لمعاملتي لذة، لا أجد بين الناس، فقال له: إنك إذن لضعيف.

فالملامتي وإن كان متمسكًا يعرف الإخلاص مستفرشًا بساط الصدق، ولكن عليه بقية رؤية الخلق، وما أحسنها من بقية تحقيق الإخلاص والصدق، والصوفي صُفي من هذه

البقية في طرفي العمل والترك للخلق، وعزلهم بالكلية، ورآهم بعين الفناء والزوال، ولاح له ناصية التوحيد، وعاين سر قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] كما قال بعضهم في بعض غلباته: ليس في الدارين غير الله.

وقد يكون إخفاء الملامتي الحال على وجهين: لتحقيق الإخلاص والصدق، والوجه الآخر: وهو الأتم لستر الحال عن غيره بنوع غيرة، فإن مَن خلا بمحبوبه يكره اطلاع الغير عليه، بل يبلغ في صدق المحبة اطلاع أحد على حبه لمحبوبه، وهذا وإن علا ففي طريق الصوفي علة ونقص، فعلى هذا يتقدم الملامتي على المتصوف، ويتأخر منه الصوفي.

وقيل: من أصول أهل الملامة أن الذكر على أربعة أقسام: ذكر باللسان، وذكر بالقلب، وذكر بالسر، وذكر بالروح، فإذا صح ذكر الروح سكت السر والقلب واللسان عن الذكر، وذلك ذكر المشاهدة، وإذا صح ذكر السر سكت القلب واللسان عن الذكر، وذلك ذكر الهبة، وإذا صح ذكر القلب فتر اللسان عن الذكر، وذلك ذكر الآلاء النعماء، وإذا غفل القلب أقبل اللسان على الذكر، وذلك ذكر العادة، ولكل واحد من هذه الأذكار عندهم آفة، فآفة ذكر الروح اطلاع السر عليه، وآفة ذكر السر اطلاع القلب عليه، وآفة ذكر القلب اطلاع النفس عليه، وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتعظيمه، أو طلب ثوابه، أو ظن أنه يصل إلى شيء من المقامات به، وأقل الناس قيمة من يريد إظهاره، وإقبال الخلق عليه بذلك.

وسر هذا الأصل الذي نبوا عليه أن ذكر الروح ذكر الذات، وذكر السر ذكر الصفات بزعمه، وذكر القلب من الآلاء والنعماء ذكر أثر الصفات، وذكر النفس متعرض للعِلَّات، فمعنى قولهم: اطلاع السر على الروح يشرون إلى التحقيق بالفناء عند ذكر الذات.

فذكر الهيبة في ذلك الوقت ذكر الصفات، وهو وجود الهيبة، ووجود الهيبة يستدعي وجودًا وبقيةً، وذلك يناقض حال الفناء، وهكذا ذكر السر وجود هيبته، وهو ذكر الصفات مشعر بنصيب القرب، وذكر القلب الذي هو ذكر الآلاء والنعماء مشعر ببعدٍ ما؛ لأنه اشتغال بذكر النعمة، وهو ذهول عن المنعم، والاشتغال برؤية العطاء عن وليه المعطي صرف من بُعد المنزلة، واطلاع النفس نظرًا إلى الأعراض اعتداد بوجود العمل، وذلك عين الاعتلال حقيقةً، وهذه أقسام هذه الطائفة، وبعضها أعلى من بعض».

وقال الشيخ ﷺ في الباب الثالث والسبعين ومائة في «الفتوحات المكية»: «الصوفية وهم أهل مكارم الأخلاق، يقال: من زاد عليك في الأخلاق زاد عليك في التصوف.

مقامهم الاجتماع على قلب واحد، أسقطوا الياءات الثلاثة، فلا يقولون: لي، ولا

عندي، ولا متاعي، أي: لا يضيفون إلى أنفسهم شيئًا، أي: لا ملك لهم دون خلق الله، فهم فيما في أيديهم على السواء مع جميع ما سوى الله مع تقرير ما بأيدي الخلق للخلق، لا يطلبونهم بهذا المقام.

وهذه الطبقة هي التي يظهر عليهم خرق العوائد عن اختيار منهم؛ ليقيموا الدلالة على التصديق بالدين وصحته في مواضع الضرورة، وقد عاينا مثل هذا من هذه الطائفة في مناظرة فيلسوف، ومنهم من يفعل ذلك لكونه صار عادة لهم كسائر الأمور المعتادة عند أهلها، فما هي في حقهم خرق عادة، وهي في المعتاد العام خرق عادة، فيمشون على الماء وفي الهواء كما نمشي نحن وكل دابة على الأرض، لا يحتاج في ذلك في العموم إلى نية وحضور إلا الملامتية والفقراء، فإنهم لا يمشون ولا يخطو أحد منهم خطوة ولا يجلس إلا بنية وحضور لأنه لا يدري من أين يكون أخذ الله لعباده، وقد كان ﷺ كثيرًا ما يقول في دعائه: «أعوذ بالله أن أغتال من تحتي»[1].

وإن كانوا على أفعال تقتضي لهم الأمان كما هي أفعال الأنبياء من الطاعات لله والحضور مع الله ولكن لا يأمنون أن يصيب الله عامة عباده بشيء فيعم الصالح والطالح؛ لأنها دار بلاء ويحشر كل شخص على نيته ومقامه، وقد أخبر الله بقتل الأمم أنبياءها ورسلها، وأهل القسط من الناس، وما عصمهم الله من بلاء الدنيا.

فالصوفية هم الذين حازوا مكارم الأخلاق ثم إنهم ﷺ علموا أن الأمر يقتضي ألا يقدر أحد على أن يرضي عباد الله بخلق، وأنه مهما أرضى زيد ربما أسخط عَمْرًا، فلما رأوا أن حصول مقام عموم مكارم الأخلاق مع الجميع محال؛ نظروا من أولى أن يعامل بمكارم الأخلاق ولا يلتفت إلى من يسخطه ذلك فلم يجدوا إلا الله وأحباءه من الملائكة والبشر المطهر من الرسل والأنبياء وأكابر الأولياء من الثقلين؛ فالتزموا مكارم الأخلاق معهم ثم أرسلوها عامة في سائر الحيوانات والنباتات وما عدا أشرار الثقلين، والذي يقدرون عليه من مكارم الأخلاق مما أبيح لهم أن يصرفوه مع أشرار الثقلين فعلوه وبادروا إليه، وهو على الحقيقة ذلك الخلق مع الله في إقامة الحدود إذا كانوا حكامًا وأداء الشهادات إذا انفرضت عليهم؛ فاعلم ذلك».

انتهى كلامه ﷺ في ثنائه على الصوفية، فلا يخفى أن بسط كلام السهروردي - رحمه الله- في الملامتية مخالف لكلام الشيخ ﷺ وذلك أن الشيخ قدم الملامتية على الصوفية، وقال: الملامتية هم الرجال الذين تحلوا من الولاية في أقصي درجاتها، وما فوقهم إلا درجة

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٣١٨)، والنسائي (٨/ ٢٨٢)، وأحمد (٢/ ٢٥).

النبوة، فهم سادات أهل الطريق، فهم عرائس الله، المخبئون عنده، لا يعرفهم سواه، كما لا يعرفون سواه، قد توجهم الله بتاج البهاء، وإكليل السناء، وأقعدهم على منابر الفناء عن القرب في بساط الأنس، وبمناجاة الديمومية بلسان القيومية.

وهذا أعلى مقام يرقى فيه، وأشرف غاية يُنتهى إليه، فهنيئًا لهذه العصابة بما نالوه من حقائق المشاهدة، وهنيئًا لنا على التصديق والتسليم لهم.

ثم اعتبر في الملامتية الأخفياء حالة ظهور وإفشاء، وحالة ستر وإخفاء، وقال: فالملامتية الذين ظهرت منهم خوارق العادات ليس هذا الظهور باختيارهم بل بورود أمر إلهي إيجابي؛ فيمتثلون أمر سيدهم، وأما مع التخيير والعرض وطلب تحصيل المقام فإنهم لا يظهرون بها، ويختارون ستر حالهم إلا من يتحقق بالعبودية التي خلق لها؛ لأن الطبقة الأولي من الأولياء تركت التصرف لله في خلقه مع التمكن، وتولية الحق لهم إياه تمكنًا لا أمرًا فلبسوا السترة، ودخلوا في سرادقات الغيب، واستتروا بحجب العوائد، ولزموا العبودية، وهي حالة الملامتية الأصفياء، فلا رئاسة لهم أصلاً في نفوسهم؛ لتحققهم بالعبودية، فالأولياء الأكابر إذا تركوا بأنفسهم لم يختر أحد منهم الظهور، فإن أظهرهم الحق من غير اختيار منهم بأن يجعل في قلوب الخلق لهم قدرًا يعظمون من أجله؛ فذلك إليه سبحانه.

فهم لا اختيار لهم مع اختيار الحق؛ فإن خيرهم – ولابد- فيختارون الستر عن الخلق والانقطاع إلى الله، فهم بالله قائمون، وفي الله ناظرون، وإلى الله راحلون، وعن الله ناطقون، ومن الله آخذون، وعلى الله متوكلون، فما لهم معروف سواه، ولا شهود إلا إياه، وهم صانوا نفوسهم عن نفوسهم، فلا تعرفهم نفوسهم.

ولما كان حالهم ستر مرتبتهم عن نفوسهم فكيف عن غيرهم؟! هم في غيابات الغيب محجوبون، هم ضنائن الحق المستخلصون إلا أن يقترن بإبراز ذلك أمر إلهي فتلزمهم طاعته لما فيهم في التحقق بالعبودية أيضًا، فإذا اقتضى الموطن بإبراز غيبة، فالمعارف أول من تبادر إلى ذلك، ويسارع فيه وإن لم يفعل كان غاشًا لا يصلح لشيء، ولهذا عدَّ الشيخ ﷺ حمدون القصار، وأبا سعيد الخراز وأبا يزيد البسطامي وعبد القادر الجيلي وأمثالهم من الملامتية؛ لأنهم ظاهرون بخوارق العادات بأمر إلهي لا بعرض وتخيير، فلهم بتخصيص الأمر بالظهور مزية أخرى على أبناء جنسهم في المرتبة، وأما الذين يتميزون باختيارهم بإظهار خوارق العادات بين العامة للتفوق ولا يتحاشون من إبراز شيء مما يؤدي معرفة قربهم من الله، وإذا سألتهم في شيء يحذره أهل الطريق يقولون: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام:٩١].

فهم على ما قال الشيخ ﷺ لا يشاهدون في زعمهم إلا الله، وغاب عنهم علم كثير والحال الذي هم فيه قليل السلامة من المكر والاستدراج؛ لأن الكرامات الحسية التي تعرفها العامة يمكن أن يدخلها المكر الخفي الذي لا يشعر، ولهذا رأت الطائفة أن خرق العادة واجب سترها على الأولياء، كما أن إظهارها واجب على الأنبياء - عليهم السلام- لكونهم مشرعين، ولهم التحكيم في النفوس والأموال والأهل، فلابد من دليل يدل على التحكم في ذلك لرب المال والأهل والنفس والولي ليس له التشريع ولا التحكم في العالم بوضع الأحكام فلأي شيء يظهر خرق العوائد حين مكنه الله من ذلك دلالة على قربه عنده لا ليعرف الناس ذلك منه متى أظهره باختياره فلرعونة قامت به غلبت نفسه عليه، فهي إلى المكر والاستدراج أقرب للكرامة.

فالملامتية أصحاب العلم الصحيح في ذلك، فهم سادات الطريقة المثلى والمكانة الزلفى في العدوة الدنيا والعدوة القصوى، وهم السالمون بصون الله في هذا الكون في إظهارهم وإسرارهم لاقتران الأمر الإلهي بهما.

وقال الشيخ ﷺ في سياق هذا: «وكان سلمان الفارسي ﷺ من أجل الملامتية» فلما تبين مضمون هذه المقالات كلها فيمكن حينئذٍ تصور التوفيق بين كلامي الشيخ والسهروردي - طيب الله أنفاسهما من حيث المآل- وذلك أن الشيخ ﷺ قال: «والملامتية قسمان: أهل أدب ووقوف عند حد، وأهل أنس ووصال»، وكذا الصوفية، فيتحمل أن السهروردي - رحمه الله- أراد تلميحًا وإشارة من تقديم الصوفية على الملامتية، وتقديم الملامتية على الصوفية ما أراده الشيخ كما قرره السهروردي آنفًا، وقال في الباب الثاني في «عوارف المعارف» في ذكر المتصوف والمتشبه: فالمتشبه بالصوفية ما اختار التشبه بهم دون غيرهم من الطوائف إلا لمحبته إياهم، فهو مع تقصيره عن القيام بما هم فيه يكون معهم لوضع إرادته ومحبته، فقد ورد الخبر الذي رواه عبادة بن الصامت عن أبي ذر الغفاري ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، الرجل الذي يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم، قال: «أنت يا أبا ذر مع من أحببت» قال: أحب الله ورسوله، قال: «فإنك مع من أحببت» قال: فأعادها أبو ذر، فأعادها رسول الله ﷺ[1].

وقال - قدس سره-: محبة المتشبه إياهم لا تكون إلى لتنبه روحه لما تنبهت أرواح الصوفية؛ لأن محبة أمر الله وما يقرب إليه، ومن تقرب منه تكون بجاذب الروح، إلا أن المتشبه تعوق بظلمة النفس، والصوفي تخلص من ذلك، والمتصوف متطلع إلى حال الصوفي، وهو مشارك ببقية شيء من صفات نفسه عليه للمتشبه.

---

(١) رواه:مسلم(٤/ ٢٠٣٢)، وأحمد(٣/ ١١٠).

فطريق الصوفية أوله إيمان، ثم علم، ثم ذوق، فالمتشبه صاحب إيمان، والإيمان بطريق الصوفية أصل كبير، قال الجنيد -رحمه الله-: الإيمان بطريقنا هذا ولاية، ووجه ذلك أن الصوفية تميزوا بأحوال عنه عزيزة، وآثار غريبة عند أكثر الخلق؛ لأنهم مكاشفون بالقدرة، وغرائب الأمور والعلوم، وإشاراتهم إلى عظيم أمر الله، والقرب منه، والإيمان بذلك إيمان بالقدرة، ولهم علوم من هذا القبيل، فلا يؤمن بطريقهم إلا من خصه الله بمزيد عنايته، فالمتشبه صاحب إيمان، والمتصوف صاحب علم؛ لأنه بعد الإيمان اكتسب مزيد علم بطريقهم، وصار لهم من ذلك مواجيد يستدل بها على سائرها، والصوفي صاحب ذوق، فللمتصوف الصادق نصيب من حال الصوفي، وللمتشبه المحب نصيب في حال المتصوف، وهكذا سنة الله جارية، وفي سياقها يطول الكلام للسهروردي، فمن أراد الاطلاع فليطالع ثمة.

ثم قال - قدس سره- في الباب التاسع في «عوارف المعارف» في ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم: فمن أولئك قدم يسمون نفوسهم قلندرية تارة، وملامية أخرى، وقد ذكرنا حال الملامي، وأنه حال شريف، ومقام عزيز، وتمسك بالسنن والآثار، وتحقق بالإخلاص والصدق، وليس مما يزعم المفتونون بشيء.

وأما القلندري فهو إشارة إلى أقوام ملكهم سُكر طيبة القلوب حتى خرقوا العادات، وطرحوا التقليد بآداب المجالسات والمخالطات، وساحوا في ميادين طيبة قلوبهم، فقَلّت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، ولم يبالوا من تناول شيء من لذات الدنيا كل ما كان مباحًا يرخصه الشرع، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة ولم يطلبوا حقائق العزيمة، ومع ذلك هم متمسكون بترك الادخار وترك الجمع والاستكبار، لا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله، واقتصروا على ذلك، وليس لهم تطلع إلى طلب مزيد سوي ما هم عليه من طيبة القلوب.

والفرق بين الملامتي والقلندري أن الملامتي يعمل في كتم العبادات، والقلندري يعمل في تجريب العادات، والملامتي يتمسك بكل أبواب البر والخير، ويرى الفضل فيه، ولكن يخفي الأعمال والأحوال، ويوقف نفسه مواقف العوام في هيئته وملبوسه وحركاته وأموره تسترًا للحال لئلا يتفطن له، وهو مع ذلك متطلع إلى طلب المزيد، باذل مجهوده في كل ما يتقرب به العبيد.

والقلندري لا يتقيد بزيه، ولا يبالي بما يُعرف من حاله وما لا يعرف، ولا ينعطف إلا على طيبة القلوب، وهو رأس ماله، والصوفي يضع الأشياء مواضعها، ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم، يقيم الخلق مقامهم، ويقيم أمر الحق مقامه، ويستر ما ينبغي أن

يُستر، ويظهر ما ينبغي أن يُظهر، ويأتي بالأمور في مواضعها بحضور عقل وصحة توحيد، وكمال معرفة، ورعاية صدق، وإخلاص. انتهى كلام السهروردي - قدس الله سرَّه- وأفاض علينا بركات أنفاس أوليائه.

بهذا الاعتبار يكون كلامها - رضي الله عنها- راجعًا إلى أمر واحد في أوصاف أهل الكمال بلا خلاف، لكن الخلاف في إسناد هذه الأوصاف السنيَّة الكماليَّة إلى من ينتسب ويسند هل يسمى أصحاب هذه الصفات العليَّة في اصطلاح القوم واعتبارهم بالملامتية على ما اختار الشيخ ﷺ أم يسمى بالصوفية كما ذهب إليه السهروردي - قدس الله سره- فلا مشاحة في الاصطلاح، فأما الملامتية الذين تستروا فهم داخلون في «**أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري**»[1].

والظاهرون منهم بأمر إلهي إيجابي سالمون بصون الله من المكر، وأما الظاهرون باختيارهم بعلامات وخرق عادات فيعرفهم العامة بها ليسوا بداخلين في قباب «**لا يعرفهم غيري**»، ولا في قوله: ولا يري العرائس إلا المجرمون، ولا سالمين من المكر واحتماله.

فالفارق بينهما الظهور بالاختيار، والظهور بالأمر على ما قرره الشيخ ﷺ، فإذا عرفت هذا، وحصل لك اليقين فقل وسَم ما شئت لأهل هذه الكمالات؛ لأن المطلوب ذواتهم الموصوفة بهذه الكمالات لا الأسماء والهيئات، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المحبين المصادقين لهذه الطائفة العليَّة، و الضنائن الخصائص السنية.

ثم قال السهروردي: تنبيهًا للغافلين فقوم من المفتونين سموا أنفوسهم ملامتية، ولبسوا لسبة الصوفية وما هم من الصوفية بشيء، بل هم في غرور وغلط، يتسترون بلبسة الصوفية ترقيًّا تارة، ودعوى أخرى، وينهجون مناهج الإباحة، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى، وهذا عندهم هو الظفر بالمراد، والارتسام بمراسم الشريفة رتبة العوام، والقاصرين الأفهام، والمنحصرين في مضيق الاقتداء تقليدًا، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد، وكل حقيقة ردتها الشريعة زندقة، وجهل هؤلاء المغرورين أن الشريعة حق العبودية، وحقيقة العبودية، فصار مطالبًا بأمور وزيادات لا يُطالب بها من لم يصل إلى ذلك إلا أن يخلع عن عنقه ربقة التكليف، ويجتاز باطنه الزيغ والتحريف، ويطول فيه كلامه - طيب الله أنفاسه- من أراد أن يطلع عليه فليطلب ثمة، اللهم اجمعنا على أهل العلم والمعرفة والولاية والخصوصية بحسن الأدب والصدق والإخلاص في القصد،

---

(١) تقدم تخريجه.

والتوفيق في المطالب، وهب لنا فرقًا نفرق به بين الحق والباطل، وأرنا الحق حقًا فتتبعه، والباطل باطلاً فنجتنبه، واحفظنا من مصائد أهل الزيغ والطغيان، واعصمنا من مكايد النفس والشيطان، وفهمنا عنك، وعلمنا من علمك، وحققنا بنور توحيدك، واجعل أنفسنا مطيعة لأمرك، وقلوبنا مطمئنة بذكرك، وهب لنا الإخلاص الذي لا يطلع عليه أحد غيرك بحرمة صفوة خلقك، وسر علمك محمد حبيبك صل عليه وعلى آله وأصحابه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

وأما التكملة ففي ذكر قُطب الأقطاب في وقته وأوصافه

قال الشيخ ﷺ في الباب الرابع عشر في «الفتوحات المكية»: «وأما القطب الواحد فهو روح محمد ﷺ وهو المد لجميع الأنبياء والرسل سلام الله عليهم أجمعين، والأقطاب من حين النشء الإنساني إلى يوم القيامة، قيل له ﷺ: متى كنت نبيًا؟ فقال ﷺ: «وآدم بين الماء والطين»[1].

وكان اسمه: مداوي الكلوم، فإنه بجراحات الهوى خبير، التي يجرحها الهوى والرأي والدنيا والشيطان والنفس بكل لسان نبوي أو رسالي أو لسان الولاية، وكان له نظر إلى موضع ولادة جسمه بمكة وإلى الشام ثم صرف الآن نظره إلى أرض كثيرة الحر واليبس لا يصل إليها أحد من بني آدم بجسده إلا أنه قد رآها بعض الناس من مكة في مكانه من غير نقله، زويت له الأرض فرآها، وقد أخذنا نحن عنه علومًا جمة بمآخذ مختلفة.

ولهذا الروح المحمدي مظاهر في العالم أكمل مظهره في قطب الزمان، وفي الأفراد، وفي ختم الولاية المحمدي، وختم الولاية العامة الذي هو عيسى ؑ، ثم ظهر هذا السر بعد ظهور حال مداوي الكلوم في شخص آخر اسمه: المستسلم للقضاء والقدر، ثم انتقل الحكم منه إلى مظهر الحق، ثم انتقل من مظهر الحق إلى الهائج، ثم انتقل من الهائج إلى شخص يسمى: واضع الحكم وأظنه لقمان - والله أعلم- فإنه كان في زمان داود، وما أنا منه على يقين أنه لقمان، ثم انتقل من واضع الحكم إلى الكاسب، ثم انتقل من الكاسب إلى جامع الحكم، وما عرفت لمن انتقل الأمر من بعده، ونذكر لكل واحد منهم مسألة إن شاء الله».

وقول عبد الكريم الجيلي - قدس سره - في كتابه المسمى بـ «الإنسان الكامل» موافقٌ لهذا التحقيق، وذلك أنه قال: «وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين، ثم له

---

(١) تقدم تخريجه.

مظاهر في ملابس، فيسمى باعتبار لباس لا يسمى بلباس آخر، فاسمه الذي له محمد ﷺ، وكنيته أبو القاسم، ووصفه عبد الله، ولقبه شمس الدين، ثم له باعتبار ملابس أخرى إسلام، وله في كل زمان اسم يليق بلباسه في ذلك الزمان».

وثم إياك أن تتوهم شيئًا في هذا التحقيق من مذهب التناسخ والحلول حاشا لله وحاشا لرسوله أن يكون ذلك بل إن رسول الله ﷺ له من التمكين في التصور بكل صورة حتى يتجلى في صورةٍ، وقد جرت سنته ﷺ أنه لا يزال يتصور في كل زمان بصورة كملها ليعلي شأنهم فهم خلفاؤه في الظاهر، وهو حقيقتهم في الباطن، انتهى قول الجيلي ﷺ.

وقال الشيخ ﷺ في الباب الثالث والسبعين في «الفتوحات»: «واعلم أن لله في كل نوع من المخلوقات خصائص، وقد ذكرنا ذلك في هذا الكتاب، وهذا النوع الإنساني هو من جملة الأنواع، ولله فيه خصائص وصفوة، وأعلى الخواص فيه من العباد الرسل عليهم السلام، ولهم مقام النبوة والولاية والإيمان، فهم أركان بيت هذا النوع، والرسول أفضلهم مقامًا وأعلاهم حالاً، أي: المقام الذي يرسل منه أعلى منزلة عند الله من سائر المقامات، وهم الأقطاب والأئمة والأوتاد الذين يحفظ الله بهم العالم كما يحفظ البيت بأركانه، فلو زال ركن منها زال كون البيت بيتًا ألا إن البيت هو الدين ألا إن أركانه هي: الرسالة والنبوة والولاية والإيمان، ألا إن الرسالة هي الركن الجامع للبيت وأركانه، ألا إنها هي المقصودة من هذا النوع، فلا يخلو هذا النوع أن يكون فيه رسول من رسل الله كما لا يزال الشرع الذي هو دين الله فيه ألا إن ذلك الرسول هو القطب المشار إليه الذي ينظر الحق إليه فيبقى به، هذا النوع في هذه الدار ولو كفر الجميع ألا إن الإنسان لا يصح عليه هذا الاسم ألا أن يكون ذا جسم طبيعي وروح، ويكون موجودًا في هذه الدار الدنيا بجسده وحقيقته.

فلابد أن يكون الرسول الذي يحفظ الله به هذا النوع الإنساني موجودًا في هذا النوع في هذه الدار بجسده وروحه يتغذى، وهو مجلى الحق من آدم إلى يوم القيامة، ولما كان الأمر على ما ذكرناه ومات رسول الله ﷺ بعد ما قرر الدين الذي لا ينسخ والشرع الذي لا يبدل ودخلت الرسل كلهم في هذه الشريعة يقومون بها والأرض لا تخلو من رسول حي بجسمه فإنه قطب العالم الإنساني، ولو كانوا ألف رسول لابد أن يكون الواحد من هؤلاء هو الإمام المقصود.

فأبقى الله تعالى بعد رسول الله ﷺ من الرسل الأحياء بأجسادهم في هذه الدار الدنيا ثلاثة وهم: إدريس ﷺ بقي حيًّا بجسده، وأسكنه الله السماء الرابعة، والسماوات السبع هن من عالم الدنيا، وتبقى ببقائها، وتفنى صورتها بفنائها، فهي جزء من الدار الدنيا؛ فإن الدار الأخرى تبدل فيها السماوات والأرض بغيرهما كما تبدل هذه النشأة الترابية منا

نشآت أخر غير هذه كما وردت الأخبار في السعداء من الصفاء والرقة واللطافة، فهي نشآت طبيعية جسمية لا تقبل الأثقال، فلا يغوطون ولا يبولون ولا يتمخطون كما كانت هذه النشأة الدنياوية، وكذلك أهل الشقاء.

وأبقى في الأرض أيضًا إلياس وعيسى وكلاهما من المرسلين، وهما قائمان بالدين الحنيفي الذي جاء به محمد ﷺ فهؤلاء ثلاثة من الرسل المجمع عليهم أنهم رسل، وأما الخضر وهو الرابع فهو من المختلف فيه عند غيرنا لا عندنا، فهؤلاء باقون بأجسامهم في الدار الدنيا، فكلهم الأوتاد، واثنان منهم الإمامان، وواحد منهم القطب الذي هو موضع نظر الحق من العالم، فما زال المرسلون ولا يزالون في هذه الدار إلى يوم القيامة، وإن لم يبعثوا بشرع ناسخ ولا هم على غير شرع محمد ﷺ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٧].

والواحد من هؤلاء الأربعة الذين هم: عيسى وإلياس وإدريس وخضر هو القطب، وهو أحد أركان بيت الدين، وهو ركن الحجر الأسود، واثنان منهم هما الإمامان، وأربعتهم هم الأوتاد، فبالواحد يحفظ الله الإيمان، وبالثاني يحفظ الله الولاية، وبالثالث يحفظ الله النبوة، وبالرابع يحفظ الله الرسالة، وبالمجموع يحفظ الله الدين الحنيفي، فالقطب من هؤلاء لا يموت أبدًا، أي: لا يصعق.

وهذه المعرفة التي أبرزنا عينها للناظرين لا يعرفها من أهل طريقنا إلا الأفراد الأمناء، ولكل واحد من هؤلاء الأربعة من هذه الأمة في كل زمان شخص على قلوبهم مع وجودهم، هم نوابهم، فأكثر الأولياء من عامة أصحابنا لا يعرفون القطب والإمامين والوتد إلا النواب لا هؤلاء المرسلون الذين ذكرناهم، ولهذا يتطاول كل واحد من الأمة لنيل هذه المقامات، فإذا حصلوا أو خصوا بها عرفوا عند ذلك أنهم نواب لذلك القطب ونائب الإمام يعرف أن الإمام غيره وأنه نائب عنه، وكذلك الوتد فمن كرامة رسول الله محمد ﷺ أن جعل من أمته وأتباعه رسلاً - وإن لم يرسلوا- فهم من أهل المقام الذي منه يرسلون، وقد كانوا أرسلوا؛ فاعلم ذلك، ولهذا صلى رسول الله ﷺ ليلة إسرائه بالأنبياء -عليهم السلام- في السماوات لتصح له الإمامة على الجميع حسًّا بجسمانيته وجسمه، فلما انتقل ﷺ بقي الأمر محفوظًا بهؤلاء الرسل فثبت الدين قائمًا بحمد الله ما انهدم منه ركن إذ كان له حافظ يحفظه، وأن ظهر الفساد في العالم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذه نكتة فاعرف قدرها فإنك لست تراها في كلام أحد منقول عنه أسرار هذه الطريقة غير كلامنا، ولولا ما ألقي عندي في إظهارها ما أظهرتها لسر يعلمه الله ما أعلمنا به، ولا يعرف ما ذكرناه إلا نوابهم خاصة لا غيرهم من الأولياء؛ فاحمدوا الله يا إخواننا حيث جعلكم الله

ممن قرع سمعه أسرار الله المخبوءة في خلقه التي اختص الله بها من شاء من عباده؛ فكونوا لها قابلين مؤمنين بها، ولا تحرموا التصديق بها فتحرموا خيرها.

قال أبو يزيد البسطامي وهو أحد النواب لأبي موسى الديبلي: يا أبا موسى، إذا رأيت من يؤمن بكلام أهل هذه الطريقة فقل له يدعو لك؛ فإنه مجاب الدعوة.

وسمعت شيخنا أبا عمران موسى بن عمران الميرتلي السدراني بمنزله بمسجد الرضا بإشبيلية وهو يقول للخطيب أبي القاسم بن عفير، وقد أنكر أبو القاسم ما يذكر أهل هذه الطريقة: يا أبا القاسم، لا تفعل فإنك إن فعلت هذا جمعنا بين حُرمانيين لا نرى ذلك من نفوسنا، ولا نؤمن به من غيرنا، وما ثم دليل يرده، ولا قادح يقدح فيه شرعًا وعقلاً، ثم استشهدني على ما ذكره، وكان أبو القاسم يعتقد فينا، فقررت عنده ما قاله بدليل يسلمه من مذهبه فإنه كان محدثًا؛ فشرح الله صدره للقبول وشكرني الشيخ ودعا لي.

واعلم أن رجال الله في هذه الطريقة هم المسمون بعالم الأنفاس وهو اسم يعم جميعهم، وهم على طبقات كثيرة وأحوال مختلفة، فمنهم من تجمع له الحالات كلها والطبقات، ومنهم: من يحصل من ذلك ما شاء الله، وما من طبقة إلا لها لقب خاص من أهل الأحوال والمقامات التي يظهرون عليها في قوله: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف:٣٣] كل طائفة في جنسها، ومنهم: من يحصره عدد في كل زمان، ومنهم: من لا عدد له لازم فيقلون ويكثرون؛ ولنذكر منهم أهل الأعداد ومن لا عدد لهم بألقابهم إن شاء الله.

فمنهم ﷺ: الأقطاب، وهم الجامعون للأحوال والمقامات بالأصالة أو بالنيابة كما ذكرنا، وقد يتوسعون في هذا الإطلاق فيسمون: قطبًا، كل من دار عليه مقام ما من المقامات، وانفرد به في زمانه على أبناء جنسه، وقد يسمى رجل البلد قطب ذلك البلد شيخ الجماعة قطب تلك الجماعة، ولكن الأقطاب المصطلح على أن يكون لهم هذا الاسم مطلقًا من غير إضافة لا يكون منهم في الزمان إلا واحد، وهو الغوث أيضًا، وهو من المقربين، وهو سيد الجماعة في زمانه.

ومنهم: من يكون ظاهر الحكم ويحوز الخلافة الظاهرة كما حاز الخلافة الباطنة من جهة المقام كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن ومعاوية بن عبد العزيز والمتوكل.

ومنهم: من له الخلافة الباطنة خاصة ولا حكم له في الظاهر كأحمد بن هارون الرشيد السبتي وكأبي يزيد البسطامي، وأكثر الأقطاب لا حكم لهم في الظاهر.

ومنهم ﷺ: الأئمة ولا يزيدون في كل زمان على اثنين لا ثالث لهما الواحد عبد الرب، والآخر عبد الملك، والقطب عبد الله، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾

[الجن:١٩] يعني: محمدًا ﷺ فلكل رجل اسم إلهي يخصه به يدعى عبد الله ولو كان اسمه ما كان، فالأقطاب كلهم عبد الله، والأئمة في كل زمان عبد الملك وعبد الرب، وهما اللذان يخلفان القطب إذا مات، وهما للقطب بمنزلة الوزيرين، الواحد منهم مقصور على مشاهدة عالم الملكوت، والآخر مع عالم الملك.

ومنهم ﷺ: الأوتاد، وهم أربعة في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، رأينا منهم شخصًا بمدينة فاس يقال له: ابن جعدون كان ينخل الحناء بالأجرة، الواحد منهم يحفظ الله به المشرق وولايته فيه، والآخر المغرب، والآخر الجنوب، والآخر الشمال، والتقسيم من الكعبة، وهؤلاء قد يعبر عنهم بالجبال لقوله تعالى: ﴿نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۞ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٦،٧]، فإنه بالجبال سكن ميد الأرض، كذلك حكم هؤلاء في العالم حكم الجبال في الأرض، وإلى مقامهم الإشارة بقوله تعالى عن إبليس: ﴿ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧] فيحفظ الله بالأوتاد هذه الجهات، وهم محفوظون من هذه الجهات، فليس للشيطان عليهم سلطان إذ لا دخول له على بني آدم إلا من هذه الجهات، وأما الفَوق والتحت فربما يكون للستة التي نذكر أمرهم بعد هذا إن شاء الله.

وكل ما نذكره من هؤلاء الرجال باسم الرجال فقد يكون منهم النساء، ولكن يغلب ذكر الرجال، قيل لبعضهم: كم الأبدال؟ فقال: أربعون نفسًا، فقيل له: لم لا تقول أربعون رجلاً؟ فقال: قد يكون فيهم النساء، ألقابهم: عبد الحي، وعبد العليم، وعبد القادر، وعبد المريد.

ومنهم ﷺ: الأبدال، وهم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة، لكل بدل إقليم فيه ولايته، الواحد منهم على قدم الخليل عليه السلام، وله الإقليم الأول، وأسوقهم على الترتيب إلى صاحب الإقليم السابع والثاني على قدم الكليم عليه السلام، والثالث على قدم هارون، والرابع على قدم إدريس، والخامس على قدم يوسف، والسادس على قدم عيسى، والسابع على قدم آدم على الكل السلام.

وهم عارفون بما أودع الله سبحانه في الكواكب السيارة من الأمور والأسرار في حركاتها ونزولها في المنازل المقدرة، ولهم من الأسماء أسماء الصفات فمنهم: عبد الحي، وعبد العليم، وعبد الودود، وعبد القادر، وهذه الأربعة هي أربعة أسماء الأوتاد، ومنهم: عبد الشكور، وعبد السميع، وعبد البصير، لكل صفة إلهية رجل من هؤلاء الأبدال بها ينظر الحق إليهم، وهي الغاية عليه، وما من شخص إلا وله نسبة إلى اسم إلهي منه يتلقى ما يكون عليه من أسباب الخير، وهم بحسب ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم الإلهي من الشمول والإحاطة، فعلى تلك الموازنة يكون علم هذا الرجل.

وسموا هؤلاء أبدالاً لكونهم إذا فارقوا موضعًا ويريدون أن يخلفوا بدلاً منهم في ذلك الموضع لأمر يرونه مصلحة وقربة يتركوا به شخصًا على صورته، لا يشك أحد ممن أدرك رؤية ذلك الشخص أنه عين ذلك الرجل وليس هو بل هو شخص روحاني يتركه بدله بالقصد على علم منه، فكل من له هذه القوة فهو البدل، ومن يقيم الله عنه بدلاً في موضع ما ولا علم له بذلك فليس من الأبدال المذكورين، وقد يتفق ذلك كثيرًا عايناه ورأيناه ورأينا هؤلاء السبعة الأبدال بمكة لقيناهم خلف حطيم الحنابلة وهناك اجتمعنا بهم فما رأيت أحسن سمتًا منهم، وكنا قد رأينا منهم موسى السدراني بإشبيلية سنة ست وثمانين وخمسمائة، وصل إلينا بالقصد واجتمع بنا، ورأينا منهم شيخ الجبال محمد بن أشرف الرندي ولقي منهم صاحبنا عبد المجيد بن سلمة شخصًا اسمه: معاذ بن أشرس كان من كبارهم، وبلغني سلامه علينا سأله عبد المجيد هذا عن الأبدال: بماذا كانت لهم هذه المنزلة؟ فقال: بالأربعة التي ذكرها أبو طالب المكي، يعني: الجوع، والسهر، والصمت، والعزلة.

وقد يسمون: الرجبيين أبدالاً، وهم أربعون، وقد يسمون الاثني عشر أبدالاً، وسيأتي ذكر هؤلاء في الرجال المعدودين، فمن رأى الرجبيين قال: إن الأبدال أربعون نفسًا، فإنهم أربعون.

ومنهم ﷺ: النقباء، وهم اثنا عشر نقيبًا في كل زمان، لا يزيدون ولا ينقصون على عدد بروج الفلك الاثني عشر برجًا، كل نقيب عالم بخاصية كل برج وبما أودع الله في مقامه من الأسرار والتأثيرات، وما يعطي للنزلاء فيه من الكواكب السيارة والثوابت، فإن للثوابت حركات وقطعًا في البروج لا يشعر به في الحس؛ لأنه لا يظهر ذلك إلا في آلاف من السنين، وأعمار أهل الرصد تقصر عن مشاهدة ذلك.

واعلم أن الله قد جعل بأيدي هؤلاء النقباء علوم الشرائع المنزلة، ولهم استخراج خبايا النفوس وغوائلها، ومعرفة مكرها وخداعها، وأما إبليس فمكشوف عندهم يعرفون منه مالا يعرفه من نفسه، وهم من العلم بحيث إذا رأى أحدهم أثر وطأة شخص في الأرض علم أنها وطأة سعيد أو شقي مثل العلماء بالآثار والقيافة، وبالديار المصرية منهم كثير، يخرجون الأثر في الصخور وإذا رأوا شخصًا يقولون: هذا الشخص هو صاحب ذلك الأثر، ويكون كذلك وليسوا بأولياء الله، فما ظنك بما يعطيه الله هؤلاء النقباء من علوم الآثار!

ومنهم ﷺ: النجباء، وهم ثمانية في كل زمان، لا يزيدون ولا ينقصون، وهم الذين تبدو منهم وعليهم أعلام القبول من أحوالهم، وإن لم يكن لهم في ذلك اختيار لكن الحال يغلب عليهم، ولا يعرف ذلك منهم إلا من هو فوقهم لا من هو دونهم، وهم أهل علم

الصفات الثمانية السبع المشهورة، والإدراك الثامن، ومقامهم الكرسي لا يتعدوه ماداموا نجباء، ولهم القدم الراسخة في علم تسيير الكواكب من جهة الكشف والاطلاع لا من جهة الطريقة المعلومة عند العلماء بهذا الشأن.

والنقباء هم الذين حازوا علم الفلك التاسع، والنجباء حازوا علم الثمانية الأفلاك التي دونه، وهي كل فلك فيه كوكب.

ومنهم ﷺ: الحواريون، وهو واحد في كل زمان لا يكون فيه اثنان، فإذا مات ذلك الواحد أقيم غيره، وكان في زمان رسول الله ﷺ الزبير بن العوام هو كان صاحب هذا المقام مع كثرة أنصار الدين بالسيف، فالحواري من جمع في نصرة الدين بين السيف والحجة فأعطى العلم العبارة والحجة وأعطى السيف والشجاعة والأقدام ومقاومة التحدي في إقامة الحجة على صحة الدين المشروع كالمعجزة التي للنبي، فلا يقوم بعد رسول الله ﷺ بدليله الذي يقيمه على صدقه فيما ادعاه إلا حواريه، فهو يرث المعجزة ولا يقيمها إلا على صدق نبيه ﷺ هذا مقام الحواري ويبقى عليها اسم المعجزة، أعني: على تلك الدلالة فإنه يقترن بها مع الحواري ما يقترن بها مع النبي كما يضيفها النبي إلى نفسه، ولا يسمى مثل هذا كرامة لولي؛ لأنه ما كان معجزة النبي على حدها وشمول لوازمها لا يكون ذلك أبدًا كرامة لولي، وإلى هذا ذهب الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، ولكن على غير هذا الوجه الذي أومأنا إليه، فإن أبا إسحاق يحيل وقوع عين الفعل المعجز، وأكثر المتكلمين لا يحيله أن يكون كرامة لا على طريق الإعجاز، فإذا وقع من الشخص على حد ما وقع من النبي بطريق الإعجاز لصدق ذلك النبي من هذا التابع فإنه يقع ولابد، وهذا لا يكون إلا من الحواري خاصة، فمن ظهر منه مثل هذا على حد ما رسمناه فهو حواري ذلك العصر، وقد رأيناه في زماننا سنة ست وثمانين وخمسمائة، فهذا هو المسمى بالحواري.

ومنهم ﷺ: الرجبيون، وهم أربعون نفسًا في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، وهم رجال حالهم القيام بعظمة الله، وهم من الأفراد وهم أرباب القول الثقيل من قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل:٥].

وسموا رجبيون؛ لأن حال هذا المقام لا يكون لهم إلا في شهر رجب من أول استهلال هلاله إلى انفصاله ثم يفقدون ذلك الحال من أنفسهم فلا يجدونه إلى دخول رجب من السنة الآتية، وقليل من يعرفهم من أهل هذا الطريق، وهم متفرقون في البلاد، ويعرف بعضهم بعضًا منهم من يكون باليمن وبالشام وبديار بكر، لقيت واحدًا منهم بدنيسير من ديار بكر ما رأيت منهم غيره، وكنت بالأشواق إلى رؤيتهم، ومنهم من يبقى عليه في سائر السنة أمر ما مما كان يكاشف به في حاله في رجب، ومنهم من لا يبقى عليه

شيء من ذلك، وكان هذا الذي رأيته قد أبقى عليه كشف الروافض من أهل الشيعة سائر السنة فكان يراهم خنازير، فيأتي الرجل المستور الذي لا يعرف منه هذا المذهب قط وهو في نفسه مؤمن به يدين به ربه فإذا مر عليه يراه في صورة خنزير فيستدعيه ويقول له: تب إلى الله فإنك شيعي رافضي فيبقى الآخر متعجبًا من ذلك، فإن تاب وصدق في توبته رآه إنسانًا، وإن قال له بلسانه تبت وهو يضمر مذهبه لا يزال يراه خنزيرًا، فيقول له: كذبت في قولك تبت، وإذا صدق يقول له: صدقت، فيعرف ذلك الرجل صدقه في كشفه فيرجع عن مذهبه ذلك الرافضي.

ولقد جرى لهذا مثل هذا مع رجلين عاقلين من أهل العدالة من الشافعية ما عرف منهما قط التشيع ولم يكونوا من بيت التشيع أداهما إليه نظرهما وكانا متمكنين من عقولهما فلم يظهرا ذلك وأصرا عليه بينهما وبين الله فكانا يعتقدان السوء في أبي بكر وعمر ويتغالون في علي، فلما مرا به ودخلا عليه أمر بإخراجهما من عنده فإن الله كشف له عن بواطنهما في صورة خنازير وهي العلامة التي جعل الله له في أهل هذا المذهب، وكانا قد علما من نفوسهما أن أحدًا من أهل الأرض ما اطلع على حالهما، وكانا شاهدين عدلين مشهورين بالسنة فقالا له في ذلك، فقال: أراكما خنزيرين، وهي علامة بيني وبين الله فيمن كان مذهبه هذا فأضمرا التوبة في نفوسهما، فقال لهما: إنكما الساعة قد رجعتما عن ذلك المذهب؛ فإني أراكما إنسانين فتعجبا من ذلك وتابا إلى الله.

وهؤلاء الرجبيون أول يوم يكون في رجب يجدون كأنما أطبقت عليهم السماء فيجدون من الثقل بحيث لا يقدرون على أن يطرفوا ولا يتحرك فيهم جارحة، ويضجعون فلا يقدرون على حركة أصلاً ولا قيام ولا قعود ولا حركة يد ولا رجل ولا جفن عين، يبقى ذلك عليهم أول يوم ثم يخف في ثاني يوم وفي ثالث يوم أقل، وتقع لهم الكشوفات والتجليات والاطلاع على المغيبات، ولا يزال مضطجعًا مسجى يتكلم بعد الثلاث أو اليومين ويتكلم معه، ويقال له إلى أن يكمل الشهر، فإذا فرغ الشهر ودخل شعبان قام كأنما نشط من عقال، فإن كان صاحب صناعة أو تجارة اشتغل بشغله وسلب عنه جميع حاله كله إلا من شاء الله أن يبقى عليه من ذلك الشيء أبقاه الله عليه هذا حالهم، وهو حال غريب مجهول السبب، والذي اجتمعت به منهم كان في شهر رجب وكان في هذه الحال.

ومنهم ﷺ: الختم، وهو واحد لا في كل زمان، بل هو واحد في العالم يختم الله به الولاية المحمدية فلا يكون في الأولياء المحمديين أكبر منه، وثَمَّ ختم آخر يختم الله به الولاية العامة من آدم إلى آخر ولى وهو عيسى عليه السلام هو ختم الأولياء كما كان ختم دورة الملك فله يوم القيامة حشران يحشر في أمة محمد ﷺ ويحشر رسولاً مع الرسل عليهم السلام أجمعين».

وذكر الشيخ ﷺ في سياق هذه الرجال من أهل الله تعالى وخصائصه ثمانين صنفًا من رجال الله، ومنهم الملامتية والصوفية الذين سبق ذكرهم قبل هذا، ويطول كلامه فيه ﷺ من أراد أن يطلع تفصيله فليطالع هذا الباب في «الفتوحات المكية».

وقال الشيخ – قدس سره- في الباب السادس والثلاثين وثلاثمائة في معرفة منزل مبايعة النبات القطب صاحب الوقت في كل زمان، وهو من الحضرة المحمدية: «اعلم – أيدك الله- أن المبايعة العامة لا تكون إلا لواحد الزمان خاصة، وأن واحد الزمان هو الذي يظهر بالصورة الإلهية في الأكوان هذا علامته في نفسه ليعلم أنه هو ثم له الخيار في إمضاء ذلك الحكم أو عدم إمضائه، والظهور به عند الغير، فذلك له فمنهم الظاهر، ومنهم من لا يظهر ويبقى عبدًا إلا أن أمره الحق بالظهور؛ فيظهر على قدر ما وقع به الأمر الإلهي لا يزيد على ذلك شيئًا هذا هو المقام العالي الذي يعتمد عليه في هذا الطريق؛ لأن العبد ما خلق بالأصالة إلا ليكون لله فيكون عبدًا دائمًا ما خلق أن يكون ربًا، فإذا خلع الله عليه خلعة السيادة وأمره بالبروز فيها برز عبدًا في نفسه سيدًا عند الناظر إليه، فتلك زينة ربه وخلعته عليه.

قيل لأبي يزيد البسطامي – قدس سره- في تمسح الناس به وتبركهم فقال ﷺ: ليس بي يتمسحون، وإنما يتمسحون بحلية حلانيها ربي، أفأمنعهم ذلك وذلك لغيري؟!

وقيل لأبي مدين – قدس سره – في تمسح الناس به بنية البركة وتركهم يفعلون ذلك: أما تجد في نفسك من ذلك أثرًا؟ فقال: هل يجد الحجر الأسود في نفسه أثرًا يخرجه عن حجريته إذا قبلته الرسل والأنبياء والأولياء وكونه يمين الله؟ قيل: لا، قال: أنا ذلك الحجر، قال تعالى في هذا المقام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:١٠] فنفاه بعدما أثبته صورة كما فعل ربه في الرمي سواء أثبته ونفاه ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] ثم جعل الله يده في المبايعة فوق أيدي المبايعين.

فمن أدب المبايعة إذا أخذ المبايعون يد المبايع للبيعة ليقبلوها جعلوا أيديهم تحتها وجعلوها فوق أيديهم كما يأخذ الرحمن الصدقة بيمينه من يد المتصدق، فمن الأدب من المتصدق أن يضع الصدقة في كف نفسه وينزل بها حتى تعلو يد السائل إذا أخذها على يد المعطي حتى تكون هي اليد العليا وهي خير من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة فيأخذها الرحمن لينفقها له تجارة حتى تعظم فيجدها يوم القيامة قد نمت وزادت، هذا مذهب الجماعة.

وأما مذهبنا الذي أعطاه الكشف إيانا فليس كذلك إنما السائل إذا بسط يده لقبول

الصدقة من المتصدق جعل الحق يده على يد السائل، فإذا أعطى المتصدق الصدقة وقعت بيد الرحمن قبل أن تقع بيد السائل كرامة بالمتصدق، ويخلق مثلها في يد السائل لينتفع بها السائل، ويأخذ الحق عين تلك الصدقة فيربيها فتربو حتى تصير مثل جبل أحد في العظم، وهذا من باب الغيرة الإلهية حيث كان العطاء من أجله لما يرى أن الإنسان يعطي من أجل هواه ما يعظم شأنه من الهبات، ويعطي من أجل الله أحقر ما عنده هذا هو الغالب في الناس فيغار الله لجنابه ألا يرى في مقام الاستهضام فيربي تلك الصدقة حتى تعظم، فإذا جلاها في صورة تلك العظمة حصل المقصود فيد المعطي تعلو على يد الآخذ، ولهذا قال: «تقع»، والوقوع لا يكون إلا من أعلى، وقد قال ﷺ: «لو دليتم بحبل لهبط على الله»[1] أي: كما ينسب إلى العلو في الاستواء على العرش هو في التحت أيضًا كما هو بكل شيء محيط للحفظ كما يحفظ محيط الدائرة الوجود أو نسبة الوجود على النقطة التي ظهرت عنها نسبة الإحاطة لوجود الدائرة المحيطة، فله الفَوق كما له التحت، وله الظاهر كما له الباطن، فهو المبايع والمبايع؛ فإنه لا يبايع إلا بالسمع والطاعة، والسمع لا يكون إلا هو، والعمل بالطاعة لا يكون إلا له، فهو السميع العامل لما أمر بعمله.

فلنذكر صورة البيعة، ولنا فيها كتاب مستقل سميناه: «مبايعة القطب» يتضمن علمًا كبيرًا ما علمنا أنا سبقنا إليه، وإن كان العارفون من أهل الله شاهدوه وعلموه ولكن شغلهم عن تبيينه للناس ما كان المهم عندهم كما كان إظهاره للناس من المهم عندنا إذ هذه الطائفة لا شغل لها إلا بالأهم، هذا إذا لم يظهر بحكم القوة الإلهية، فإذا ظهر بها لم يشغله شيء عن شيء إذ هو حق كله؛ فأعلم ذلك إيضاح وبيان لمنصب البيعة وصورتها، فاعلم أن الله سبحانه إذا ولى من ولاه النظر في العالم لمعبر عنه بالقطب وواحد الزمان والغوث والخليفة نصب له في حضرة المثال سريرًا أقعده عليه ينبئ صورة ذلك المكان عن صورة المكانة كما أنبأ صورة الاستواء على العرش عن صورة إحاطته علمًا بكل شيء.

فإذا نصب له ذلك السرير خلع عليه جميع الأسماء التي يطلبها العالم، وتطلبه بها حللاً وزينة متوجًا مسورًا مدملجًا لتعمه الزينة علوًا وسفلاً ووسطًا وظاهرًا وباطنًا، فإذا قعد عليه بالصورة الإلهية، وأمر الله العالم ببيعته على السمع والطاعة في المنشط والمكره؛ فيدخل في بيعته كل مأمور أعلى وأدنى إلا العالين، وهم المهيمون العابدون بالذات لا بالأمر، فيدخل في أول من يدخل عليه في ذلك المجلس الملأ الأعلى على مراتبهم الأول فالأول، فيأخذون بيده على السمع والطاعة، ولا يتقيدون بمنشط ولا مكره؛ لأنهم لا

---

(١) رواه أحمد في مسند (٢/ ٣٧٠).

يعرفون هاتين الصفتين فيهم إذ لا يعرف شيء منهما إذا بذوق ضده، فهم في منشط لا يعرفون له طعمًا؛ لأنهم لم يذوقوا المكره.

وما منهم روح يدخل عليه للمبايعة إلا ويسأله في مسألة من العلم الإلهي فيقول له: يا هذا، أنت القائل كذا؟ فيقول له: نعم، فيقول له: في المسألة وجه يتعلق بالعلم بالله يكون أعلى من الذي كان عند ذلك الشخص؛ فيستفيد منه كل من بايعه، وحينئذٍ يخرج عنه هذا شأن هذا القطب.

والكتاب الذي صنفته فيه ذكرت فيه سؤالاته للمبايعين له التي وقعت في زماننا القطب وقتنا؛ فإنها ما هي مسائل معينة تتكرر من كل قطب، وإنما يسأل كل قطب فيما يخطر الله في ذلك الحين مما جرى لهذا الذي بايعه من الأرواح فيه كلام، فأول مبايع له العقل الأول، ثم النفس، ثم المقدمون من عمال السماوات والأرض من الملائكة المسخرة، ثم الأرواح المدبرة للهياكل التي فارقت أجسامها بالموت، ثم الجن، ثم المولدات، وذلك أنه كل ما سبح الله من مكان ومتمكن ومحل وحال فيه يبايعه إلا العالين من الملائكة، وهم المهيمون، والأفراد من البشر الذين لا يدخلون تحت دائرة القطب، وما له فيهم تصرف وهم كمل مثله، مؤهلون لما ناله هذا الشخص من القطبية.

لكن لما كان الأمر لا يقتضي أن يكون في الزمان إلا واحد يقوم بهذا الأمر تعين ذلك الواحد لا بالأولوية ولكن بسبق العلم فيه بأن يكون الوالي، وفي الأفراد من يكون أكبر منه في العلم بالله.

وهذا المنزل يتضمن مبايعة النبات من المولدات، ويدخل فيه قوله في الأجسام الإنسانية: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح:١٧] فنبتم ﴿نَبَاتٗا﴾ فجاء في ذكرهم بالإنبات أنه أنبتهم، ولم يؤكده بالمصدر، وجاء بمصدر آخر ليعرف بأنهم نبتوا حين أنبتهم، فأوقع الاشتراك بينه وبينهم في الخلق ينبه أنه لولا استعدادهم للإنبات ما أثرت فيهم الأسماء، فكان خروجهم من الأسماء والاستعداد، فللأسماء قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ وللاستعداد قوله: ﴿نَبَاتٗا﴾ لأن ﴿نَبَاتٗا﴾ مصدر: نبت، لا مصدر: أنبت، فإن مصدر أنبت إنما هو: إنبات، فانظروا ما أعجب مساق القرآن، وإبراز الحقائق فيه كيف يعلمنا الله في إخباراته ما هي الأمور عليه؛ فيعطي كل ذي حق حقه، إذ لا ينفذ الاقتدار الإلهي إلا فيمن هو على استعداد النفوذ فيه، ولا يكون ذلك إلا في الممكنات، إذ لا نفوذ له في الواجب الوجود لنفسه، ولا في المحال الوجود فسبحان العليم الحكيم.

واعلم أن الإنسان شجرة من الشجرات أنبتها الله شجرة لا نجمًا؛ لأنه قائم على ساق، وجعله شجرة من التشاجر الذي فيه لكونه مخلوقًا من الأضداد تطلب الخصام

والتشاجر والمنازعة، ولهذا يختصم الملأ الأعلى، وأصل وجوده في العالم حكم الأسماء الإلهية المتقابلة في الحكم لا غير، هذا مستندها الإلهي، قال تعالى في حق محمد ﷺ أنه قال: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص:٦٩] حتى أعلمه الله تعالى، فعلم أن للطبيعة فيهم أثرًا كما أن للأركان في أجسام المولدات أثرًا؛ فلما كان الناس شجرات جعل فيهم ولاة يرجعون إليهم إذا اختصموا ليحكموا بينهم ليزول حكم التشاجر، وجعل لهم إمامًا في الظاهر واحدًا يرجع إليه أمر الجميع لإقامة الدين، وأمر عباده ألا ينازعوه، ومن ظهر عليه ونازعه أمرنا الله بقتاله؛ لما علم أن منازعته تؤدي إلى فساد في الدين الذي أمرنا الله بإقامته، وأصله قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

فمن هناك ظهر اتخاذ الإمام، وأن يكون واحدًا في الزمان ظاهرًا بالسيف، فقد يكون قطب الوقت هو الإمام نفسه كأبي بكر وغيره في وقته، وقد لا يكون قطب الوقت فتكون الخلافة لقطب الوقت، الذي لا يظهر إلا بصفة العدل.

ويكون هذا الخليفة الظاهر من جملة نواب القطب في الباطن من حيث لا يشعر فالجور والعدل يقع في أئمة الظاهر، ولا يكون القطب إلا عدلاً.

وأما سبب ظهوره في وقت وخفاء بعضهم في وقت فهو أن الله ما جبر أحدًا على كينونته في مقام الخلافة، وإنما الله أعطاه الأهلية لذلك المقام، وعرض عليه الظهور فيه بالسيف حسبما ما أمره فمن قبله ظهر بالسيف، فكان خليفة ظاهرًا وباطنًا ما ثم غيره، وإن اختار عدم الظهور لمصلحة رآها أخفاه الله وأقام عنه نائبًا في العالم يسمى: خليفة يجور ويعدل، وقد يكون عادلاً على قدر ما يوفقه الله سبحانه، ويكون حكمه وإن كان جائرًا حكم الإمام العادل من نازعه قتل ولا يقتل إلى الآخر، فإنه المنازع وأمرنا الله ألا نخرج يدًا من طاعته، وأخبرنا أنه من عدل منهم عليهم، وأن من جار منهم فعليهم ولنا.

ولما كان الإنسان شجرة كما ذكرناه نهى الله أول إنسان عن قرب شجرة عينها له دون سائر الشجرات، كما هو الإنسان شجرة معينة بالخلافة دون سائر الشجرات، فنبهه ألا يقرب هذه الشجرة المعينة على نفسه، وظهر ذلك في وصيته لداود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص:٢٦] يعني: هوى نفسه، فهو الشجرة التي نهى آدم عليه السلام أن يقربها، أي: لا تقارب موضع النزاع والخلاف فيؤثر فيك نشأة جسدك الطبيعي العنصري، يقول ذلك لنفسه الناطقة المدبرة؛ فإن بها يخالف أمر الله فيما أمره به أو نهاه عنه، فقوله: ﴿هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة:٣٥] بحرف الإشارة تعيين لشجرة معينة.

ولما كانت الإمامة عرضًا كما كانت الأمانة عرضًا، والإمامة أمانة؛ لذلك ظهر بها بعض الأقطاب ولم يظهر بها بعضهم.

فنظر الحق لهذا القطب بالأهلية، ولو نظر الله للإمام الظاهر بهذه العين ما جار إمام قط، كما تراه الإمامية في الإمام المعصوم؛ فإنه من شرط الإمام الباطن أن يكون معصومًا، وليس الظاهر إن كان غيره يكون له مقام العصمة، ومن هنا غلطت الإمامية فلو كانت الإمامة غير مطلوبة له وأمره الله أن يقوم فيها عصمه الله بلا شك عندنا.

وقد نبه رسول الله ﷺ على ما قررناه كله، فنبه على العرض بفعله حيث لم يجبر أحدًا على ولاية، بل ذكر أنه من تركها كان خيرًا له، وأنها يوم القيامة حسرة وندامة إلا لمن قام فيها بصورة العدل، ونبه على عصمة من أمر بها بقوله: «**فمن أعطيها عن مسألة وكِّل إليها، ومن جاءته من غير مسألة وكَّل الله به ملكًا يسدده**»[1].

وهذا معنى العصمة، والسؤال هنا إشارة إلى الرضا بها، والمحبة لهذا المنصب، فهو سائل بباطنه وغيره ممن يكره ذلك يجبره أهل الحل والعقد عليها، ويرى أنه قد تعين عليه الدخول فيها، والتلبس بها لما يرى أن تخلف عنها من ظهور الفساد؛ فيقوم له ذلك في الظاهر مقام الجبر الإلهي بالأمر على التلبس بها فيعصم فيكون عادلاً، إذ المَلَك الذي يسدده لا يأمره إلا بخير حتى القرين كما قال ﷺ: «**أنه أعانه الله عليه فأسلم**» برفع الميم ونصبها، وقال: «**فلا يأمرني إلا بخير**»[2].

فمبايعة النبات هذا القطب هو أن تبايعه نفسه لا أن تخالفه في منشط ولا مكره مما يأمرها به من طاعة الله في أحكامه، فإن الله قد جعل زمام كل نفس بيد صاحبها وأمرها إليه، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠] يعني: نفسه، وكذلك في داود ﷺ ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص:٢٦] يعني: نفسه، فإنه لو كان هوى غيره نهى أن يتبعه فاتبعه فما يتبعه إلا بهوى نفسه فطاوع نفسه في ذلك، فلذلك تعين أنه أراد بالهوى نفسه لا غيره، وهو أن يأمره بمخالفة ما أمره الله به أن يفعله أو ينهاه عنه، فإذا بايعته نفسه انصرف حكم شَجريتها إلى منازعة من ينازع أمر الله.

فبقي حكم حقيقتها في المخالفين أمر الله، إذ علم الله أن حقيقة الخلاف لا تزول، فإنها شجرة لعينها فلو زال لزال عينها، فلهذا عين الله لها مصرفًا خاصًّا يكون فيها سعادتها.

وكل من عرف القطب من الناس لزمته مبايعته، وإذا بايعه لزمته بيعته، وهي من مبايعة النبات؛ فإنها بيعة ظاهرة لهذا القطب التحكم في ظاهره بما شاء، وعلى الآخر التزام طاعته.

---

(١) ذكره الشيخ الأكبر في «الفتوحات» (٥/ ١١٩).
(٢) رواه مسلم (٤/ ٢١٦٧).

وقد ظهر مثل هذا في الشرع الظاهر أن المتنازعين لو اتفقا على حكم بينهما فيما تنازعا فيه فحكم بينهما بحكم لزمهما الوقوف عند ذلك الحكم، وألا يخالفا ما حكم به، فالقطب المنصوب من جهة الحق أولى بالحكم فيمن عرف إمامته في الباطن من الناس، ولهذا التحكم الذي قلناه منه في ظاهر من بايعه ألحقنا هذه المبايعة ببيعة النبات.

بل إن حققت الأمر، واتبعت فيه الأصل وجدت النباتية في النفس الجزئية الناطقة؛ لأنها ما ظهرت إلا من هذا الجسم المسوي المعدل، وعلى صورة مزاجه، فهي أرضه التي نبتت منه حين أنبتها الله بالنفخ في هذا الجسم من روحه، وهكذا كل روح مدبر لجسم عنصري، فالسعيد من عرف إمام وقته فبايعه وحكمه في نفسه وأهله وماله كما قال ﷺ في حق نفسه: «**لا يكمل لعبد الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين**»(١).

ولهذا يشترط في البيعة المنشط والمكره؛ لأن الإنسان ما ينشط إلا إذا وافق الله هوى نفسه، والمكره إذا خالف أمر الله هوى نفسه فيقوم به على كره لإنصافه ووفائه بحكم البيعة، فإنه ما بايع إلا الله إذا كانت يد الله فوق أيديهم، وما شاهدوا بالأبصار إلا يد هذا الشخص الذي بايعوه، والنفس أبدًا في الغالب تحت حكم مزاجها، والقليل من الناس من يحكم نفسه على طبيعته ومزاجه، فإن الأمومة للجسم المسوي والبنوة للنفس، وقد أمر الإنسان بالإحسان لأبويه والبر بهما، وامتثال أوامرهما ما لم يأمره أحد الأبوين بمخالفة أمر الحق فلا يطعه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمان:١٥].

فأمر باتباع المنيبين إلى الله، ومخالفة نفوسهم إن أبت ذلك، فحق الإمام أحق بالاتباع، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩] وهم الأقطاب والخلفاء والولاة، وما بقي لهم حكم إلا في صنف ما أبيح لك التصرف فيه، فإن الواجب والمحظور من طاعة الله وطاعة رسوله فما بقي للأئمة إلا المباح ولا أجر فيه ولا وزر، فإذا أمرك الإمام المقدم عليك الذي بايعته على السمع والطاعة بأمر من المباحات وجبت عليك طاعته في ذلك وحرمت مخالفته، وصار حكم ذلك الذي كان مباحًا واجبًا؛ فيحصل للإنسان إذا عمل بأمره أجر الواجب، وارتفع حكم الإباحة منه بأمر هذا الذي بايعه؛ فتدبر ما ذكرناه، وما نبهنا عليه من أمر الإمام بالمباح، واعرف منزلة البيعة، وما أثمرت، وما أثرت، وكيف نسخت حكم الإباحة بالوجوب عن

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٤)، ومسلم (١/ ٦٧).

أمر الحق بذلك، فنزل الإمام منزلة الشارع بأمر الشارع، فتغير الحكم في المحكوم عليه عما كان عليه في الشرع قبل أمر هذا الإمام، فمن أنزله الحق منزلته في الحكم تعين اتباعه.

واعلم أن النبات عالم وسط بين المعدن والحيوان، فله حكم البرازخ، فله وجهان؛ فيعطي من العلم بذاته لمن كوشف بحقيقة ما فيه من الوجوه، فإن الكمال في البرازخ أظهر منه في غير البرازخ؛ لأنه يعطيك العلم بذاته وبغيره، وغير البرزخ يعطيك العلم بذاته لا غير؛ لأن البرزخ مرآة للطرفين، فمن أبصره أبصر فيه الطرفين لابد من ذلك.

وفي النبات سرٌّ برزخي لا يكون في غيره، فإنه برزخ بينه من قوله: ﴿نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧] وبين ربه من قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ والمنصف العادل من حكم بين نفسه وربه، ولا يكون حكمًا حتى تكون نفسه تنازع ربها، فيحكم له عليها لعلمه أن الحق بيد الله بكل وجه وعلى كل حال، وسبب نزاعها كونها على الصورة، ففيها مضادة الأمثال لا مضادة الأضداد، فيدخل الإنسان حكمًا بين ربه وبين نفسه ألا تراه مأمورًا بأن ينهاها عن هواها، فأنزلها منزلة الأجنبي، وليس إلا عينها، وهي التي ادعت فهي الحكم والخصم، ولو اقتصر الأمر دونها على الجسم النامي منه وغير النامي لم تكن منازعة، فإنه مفطور على التسبيح لله بحمده، فالجسم الإنساني كالنجم من النبات لا يقوم على ساق، فلا يرجع شجرة إلا بوجود الروح المنفوخ فيه، فحينئذٍ يقوم على ساق بخلاف الأشجار كلها، فإنها تقوم على ساق من غير نفخ الروح الحيواني فيها، فهو نجم بالأصالة، وشجرة بالنفخ، فسجوده لله سجود الظلال، وسجود الشجر لله سجود الأشخاص القائمين على ساق.

ولما كان النبات برزخيًا كان مرآة قابلاً لصور ما هو برزخ، وهما الحيوان والمعدن إذا بايع، بايع لبيعته ما ظهر فيه من صور ما هو برزخ لهما تابعًا له، فتضمنت بيعة النبات بيعة الحيوان والمعادن؛ لأن هذا المقام يشاهد الصور الظاهرة في مرآة البرازخ.

وهو علم عجيب كما يرى الناظر في المرآة في الحس غير صورته مما تقبله المرآة من صور غير الناظر من الأشخاص؛ فيدرك فيها ما هي تلك الأشخاص عليه في أنفسها مع كونها في أعيانها غيبًا عنه، وما رأى لها صورة إلا في هذا الجسم الصقيل، فإن أعطته تلك الصورة علمًا غير النظر إليها كان ذلك العطاء بمنزلة ما يعطي المبايع في البيعة من السمع والطاعة لمن بايعه، وإن لم تعط علمًا لم يرجع ذلك إليها وإنما هو رجع إلى الناظر، وإنه ليس بإمام ولا خليفة ولا له بيعة أصلاً، وبهذا يتميز الإمام في نفسه عن غيره، ويعلم أنه إمام فإن أخذ العلم هذا الناظر من تلك الصورة بحكم التفكر والاعتبار، فيتخيل أنه إمام وقته فليس كذلك إلا أن تعطيه الصور العلم من ذاتها كشفًا من غير فكر ولا اعتبار.

وإن اتفق أن يساويه صاحب الفكر في ذلك العلم الكشفي فليس بإمام لاختلاف

الطريق، فإن الإمام لا يقتني العلوم من فكره بل لو رجع إلى نظره لأخطأ فإن نفسه ما اعتادت إلا الأخذ عن الله، وما أراد الله لعنايته بهذا العبد أن يرزقه الأخذ من طريق فكره فيحجبه ذلك عن ربه، فإنه في كل حال يريد الحق أن يأخذ عنه ما هو فيه من الشئون في كل نفس فلا فراغ له ولا نظر لغيره.

وللعاقل إذا استبصر دليل قد وقع يدل على صحة ما ذكرناه نهى النبي ﷺ عن إبار النخل ففسد؛ لأنه لم يكن عن وحي إلهي، ونزوله يوم بدر على غير ماءٍ فرجع إلى كلام أصحابه فإنه ﷺ ما تعود أن يأخذ العلوم إلا من الله لا نظر له إلى نفسه في ذلك، وهو الشخص الأكمل الذي لا أكمل منه، فما ظنك بمن هو دونه!

وما بقي للعارفين بالله علاقة بين الفكر وبينهم بطريق الاستفادة، ولا يسمى الشخص إلهيًّا إلا ألا يكون أخذه العلوم إلا عن الله من فتوح المكاشفة بالحق، يقول أبو يزيد البسطامي: أخذتم علمكم ميتًا عن ميت، حدثنا فلان، وأين هو؟ قال: مات، عن فلان وأين هو؟ قال: مات، فقال أبو يزيد: وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت.

فلا حجاب بين الله وبين عبده أعظم من نظره إلى نفسه وأخذه العلم عن فكره ونظره، وإن وافق العلم فالأخذ عن الله أشرف، وعلم ضرورات العقول من الله؛ لأنها حاصلة لا عن فكر واستدلال، ولهذا لا تقبل الضروريات الشبه أصلاً ولا الشكوك إذا كان الإنسان عاقلاً، فإن حيل بينه وبين عقله فما هو الذي قصدنا البيان عنه، وبعد أن أعلمناك ببيعة النبات ومرتبته وأنك نبات وأمثالك، فافهم».

وقال الشيخ ﷺ في الباب السبعين ومائتين في معرفة منزل القطب والإمامين في المناجاة المحمدية: «اعلم - أيدك الله بروح منه- أن ممن تحقق بهذا المنزل من الأنبياء - صلوات الله عليهم- أربعة: محمد ﷺ، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق - عليهم السلام- ومن الأولياء اثنان وهما: الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ، وإن كان لمن عدا هؤلاء المذكورين منه شِرب معلوم على قدر مرتبته من الإمامة.

فاعلم أن الأقطاب والصالحين إذا سموا بأسماء معلومة لا يدعون هناك إلا بالعبودية إلى الاسم الذي يتولاهم قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجن:١٩] فسماه: ﴿عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ وإن كان أبوه قد سماه: محمد أو أحمد.

فالقطب أبدًا مختص بهذا الاسم الجامع، فهو عبد الله هناك ثم إنهم يفضل بعضهم بعضًا مع اجتماعهم في هذا الاسم الذي يطلبه المقام، فيختص بعضهم باسم ما غير هذا الاسم من باقي الأسماء الإلهية فيضاف إليه، وينادي في غير مقام القطبية، كموسى عليه السلام اسمه: عبد الشكور، وداود عليه السلام اسمه: عبد الملك، ومحمد ﷺ اسمه: عبد الجامع.

وما من قطب إلا وله اسم يخصه زائد على الاسم العام الذي له، الذي هو: عبد الله

سواء كان القطب نبيًا في زمان النبوة المقطوع بها، أو وليًا في زمان شريعة محمد ﷺ، وكذلك الإمامان لكل واحد منهما اسم يخصه ينادي به كل إمام في وقته هناك، فالإمام الأيسر: عبد الملك، والإمام الأيمن: عبد ربه، وهما للقطب الوزيران، فكان أبو بكر ﷺ: عبد الملك، وكان عمر ﷺ: عبد ربه في زمان رسول الله ﷺ إلى أن مات ﷺ فسمي أبو بكر: عبد الله، وسمي عمر: عبد الملك، وسمي الإمام الذي ورث مقام عمر: عبد ربه، ولا يزال الأمر على ذلك إلى يوم القيامة، وكان الحسن والحسين - رضي الله عنهما- أمكن الناس في هذا المقام من غيرهما ممن اتصف به.

وجرت السنة الإلهية في القطب إذا ولي المقام أن يقوم في مجلس من مجالس القربة والتمكين، وينصب له فيه تخت عظيم لو نظر إلى بهائه الخلق لطاشت عقولهم، فيقعد عليه ويقف بين يديه الإمامان اللذان قد جعلهما الله له، ويمد يده للمبايعة الإلهية والاستخلاف، وتؤمر الأرواح من الملائكة والجن والبشر الروحاني بمبايعته واحدًا بعد واحدٍ، فإنه جل جناب الحق أن يكون مصدرًا لكل وارد، وأن يرد عليه إلا واحد بعد واحد، فكل روح يبايعه في ذلك المقام يسأله الروح القطب عن مسألة من المسائل، فيجيبه أمام الحاضرين ليعرفوا منزلته من العلم؛ فيعرفون في ذلك الوقت أي اسم إلهي يختص به.

وقد أفردنا لهذه المبايعة كتابًا كبيرًا سميناه: «مبايعة القطب في حضرة القرب» وذكرنا فيه مسائل كثيرة مما سُئل عنها فأجاب، ولا يتابعه إلا الأرواح المطهرة المقربة، ولا يسأله من الأرواح المبايعة من الملائكة والجن والبشر إلا أرواح الأقطاب الذين درجوا خاصة، فذكرنا في ذلك الكتاب سؤالاتهم وجوابه عليها موفى.

وهكذا هي حالة كل قطب يبايع في زمانه، فلنذكر في هذا الباب من بعض أحواله العامة لكل قطب دون الأحوال الخاصة به؛ ليعلم الواقف على كتابي هذا صاحب الذوق المشاهد إياه أنَّا ما عدلنا في كتابنا هذا عن الطريق التي لا يجهلها كل عارف من أهل هذا الشأن، فلو ذكرنا الحال الخاص به ربما كان يقول: هذه دعوى، فلنبدأ أولاً بحال الإمام الأقصى، ثم الإمام الأدنى، ثم القطب.

فأما الإمام الأقصى وهو: عبد ربه، فإن حاله البكاء شفقة على العالم لما يراهم عليه من المخالفات من العفو والتجاوز، فلهذا يكثر بكاؤه، فلا يزال داعيًا لعباد الله، رحيمًا بهم، سائلاً الله سبحانه أن يسلك بهم طريق الموافقات.

ولقد عاينت في بعض سياحاتي هذا الإمام، فما رأيت ممن رأيت من الصالحين أشد خوفًا منه على عباد الله، ولا أعظم رحمة، فقلت له: لم لا تأخذ الغيرة لله؟ فقال: إني لا أريد أن يغار لله من أجلي، ولكن أريد أن يُسأل الله من أجلي ليرحمني ويتجاوز، فلا أحب لعباد

الله إلا ما أحبه لنفسي، ولا ينبغي للصادق مع الله أن يتصور في صورة حال لا يعطيه مقامه.

ولهذا الإمام قوة سلطان على الشياطين الملازمين أهل الخير والصلاح؛ ليصرفوهم عن طريقهم، فإذا وقع نظر الشيطان على هذا الإمام وهو عند بعض الصالحين يحتال كيف يصرفه عن طريقته يذوب كما يذوب الرصاص في النار، فيناديه الإمام عسى يسلم فيدبر هاربًا، فلا يزال ذلك الصالح محفوظًا من إلقاء هذا الصنف من الشياطين إليه، ما يخرجه عن صلاحه ما دام هذا الإمام حاضرًا ناظرًا إليه، وإن كان ذلك الصالح لا يعرفه، ولا يعرف ما جرى، وقد عاينا هذه الطائفة، فيدفع الله عن عباده بهذا الإمام الشرور التي تختص بالصالحين من عباده خاصةً عنايةً منه بهم.

ومن خاصية هذا الإمام التصديق بكل خبر مخبر به عن الله سواء كان ذلك المخبر صادقًا في أخباره أو مفتريًا، فإن هذا الإمام يصدقه لكونه ناظر إلى الاسم الإلهي الذي يتولى هذا المخبر في أخباره فإن كان صادقًا فأخباره عن كشفٍ محقق، فيستوي هو والإمام في ذلك، وإن لم يكن له كشف وأخبر عما وقع عنده وهو لا يدري من أوقعه ويقصد الكذب، فإن هذا الإمام يصدقه في أخباره والمخبر معاقب من الله محروم بقصده الكذب، وهو في نفس الأمر ليس كذلك فوبال قصده عاد عليه فعذب أن آخذه الله بذلك.

ومن أحوال هذا الإمام أن يسأل دائمًا الانتقال إلى مقام المشاهدة من الأحوال، ومقام الصلاح من المقامات، وله اطلاع دائم إلى الجنان، وإنما خصّه الله بهذا الاطلاع إبقاءً عليه، فيقابل ما هو عليه من البكاء والحزن المؤدي إلى القنوط بما يراه ويطلعه الله عليه من سرور الجنان ونعيم أهله فيه، ويعاين اشتياق أهله إليه، وانتظارهم لقدومه؛ فيكون ذلك سببًا لاعتداله.

ومقام هذا الإمام الإحسان الأول، وهو قول جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ: « **مَا الْإِحْسَانُ**؟ وجوابه ﷺ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[١].

والذي بعده ليس لهذا الإمام، وبيد هذا الإمام مصالح العالم، وما ينتفعون به، وهو يربي الأفراد ويغذيهم بالمعارف الإلهية، ويقسم المعارف على أهلها بميزان محقق على قدر ما يرى فيه صلاح ذلك العارف لتحيى بتلك المعرفة نفسه، وله السيادة على الثقلين، والحكم والتصرف فيهما بما تعطيه المصلحة لهم.

ومن خصائص هذا الإمام الإقامة على كل ما يحصل له من الأحوال والمقامات

---

(١) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٩).

وليس ذلك لكل أحد، فلا يتصف بحال فينتقل عنه ولا بمقام، وغير هذا الإمام إذا انتقل إلى مقام أو حال حكم عليه سلطان ذلك المقام والحال، وغيبه عما انتقل عنه، وهذا الإمام ليس كذلك؛ فإن المقام الذي انتقل عنه محفوظ عليه لا يغيب عنه قوة إلهية خصَّه الله بها، ولروحه من أجنحة مائتان جناح وأربعة أجنحة أي جناح نشر منها طار به حيث شاء.

وله قدم في المرتبة الأولى فكان طريقته من غايته إلى بدايته بخلاف السلوك المعروف، فرجع القهقري بقطع المقامات والدرجات والمنازل، فمن نهايته إلى بدايته تسعة عشر منزلاً، فيها منزل البداية والنهاية، فتم منزل درجاته مائة واثنتان وعشرة وتسعون وعشرون وثلاثة وأربعة وثلاثون وخمسة وأربعون وستة وخمسون وسبعة وستون وثمانية وسبعون وثمانون وتسعة ومائتان.

ولما كانت المراتب أربعًا لا زائد عليها، وكل مرتبة تقتضي أمورًا لا نهاية لها من علوم وأسرار وأحوال، فالمرتبة الأولى: إيمان، والثانية: ولاية، والثالثة: نبوة، والرابعة: رسالة، والرسالة والنبوة - وإن انقطعت في هذه الأمة بحكم التشريع- فما انقطع الميراث منهما، فمنهم من يرث نبوة، ومنهم من يرث رسالة ونبوة معًا.

وإذ قد ذكرنا ما لهذا الإمام الأقصى فلنذكر للإمام الأدنى، وهو: عبد الملك، فنقول والله يقول الحق وهو يهدي السبيل: إن لهذا الإمام الأدنى من جهة روحانيته من الأجنحة تسعين جناحًا أي جناح نشر منها طار به حيث شاء، وكانت بدايته ونهايته في المرتبة الثانية، ليس له قدم في باقي المراتب الثلاثة، فلم يكن له منازل ولا درجات ولا مقامات يقطعها.

ولهذا الإمام الشدة والقهر، وله التصرف بجميع الأسماء الإلهية التي يستدعي الكون مثل: الخالق، والرزاق، والملك، والبارئ، على بعض وجوهه وغير ذلك، وليس له تصرف بأسماء التنزيه بخلاف الإمام الذي تقدم ذكره، ويلجأ إليه في الشدائد والنوازل الكبار فيفرجها الله على يده؛ فإن الله قد جعل له عليها سلطانًا، وله الكرم، وليس له الإيثار لنزاهته عن الحاجة إلى ما يقع به الإيثار، وله الإنعام على الخلق من حيث لا يشعرون.

ولقد أنعم عليَّ هذا ببشارة بشرني بها، وكنت لا أعرفها في حالي، وكانت حالي فأوقفني عليها، ونهاني عن الانتماء إلى من لقيت من الشيوخ، وقال لي: لا تنتم إلا إلى الله، فليس لأحد ممن لقيته عليك يد مما أنت فيه، بل الله تولاك بعنايته، فاذكر فضل من لقيت إن شئت، ولا تنتسب إليهم، وانتسب إلى ربك، وكان حال هذا الإمام مثل حالي سواء، لم يكن لأحد ممن لقيه عليه يد في طريق الله إلا الله، هكذا انقل لي الثقة عندي عنه، وأخبرني الإمام بذلك عن نفسه عند اجتماعي به في مشهد برزخي اجتمعت به فيه، لله الحمد والمنة على ذلك.

وولاة أمور الخلق راجعون إلى هذا الإمام، فيولي ويعزل، ويدفع الله به الشرور، وله سلطان قوي على الأرواح النارية من الشياطين المبعودين من رحمة الله، ويجتمع مع الإمام الأول الأقصى في درجة واحدة من خمس درجات، وينفرد عنه الإمام الأقصى بأربع درجات، وقد ذكرنا من أحوال الإمامين ما فيه كفاية، فلنقتصر على ما قد ذكرناه رغبة في الاختصار، وإذ قد ذكرناه من أحوال الإمامين هذا القدر فنذكر أيضًا من حديث القطب ما تقع به الكفاية في هذه العجالة إن شاء الله.

فأما القطب، وهو: عبد الله، وهو عبد الجامع، فهو المنعوت بجميع الأسماء تخلقًا وتحققًا، وهو مرآة الحق، ومجلى النعوت المقدسة، ومجلى المظاهر الإلهية، وصاحب الوقت، وعين الزمان، وسر القدر، وله علم دهر الدهور الغالب عليه الخفاء محفوظ في خزائن الغيرة، ملتحف بأردية الصون لا تعتريه شبة، ولا يخطر له خاطر يناقض مقامه، كثير النكاح راغب فيه، محب للنساء يوفي الطبيعة حقها على الحد المشروع له، ويوفي الروحانية حقها على الحد الإلهي، يضع الموازين، ويتصرف على المقدار المعين الوقت له ما هو للوقت، وهو لله لا لغيره، حاله العبودية والافتقار، يقبح القبيح، ويحسن الحسن، يحب الجمال المقيد في الزينة والأشخاص، تأتيه الأرواح في أحسن الصور، يذوب عشقًا، يغار لله، ويغضب لله، لا تتقيد له المظاهر الإلهية بالتدبير بل له الإطلاق فيها فتظهر له في تدبير المدبر روحانية من البشر المحسوس من خلف حجاب الشهادة والغيب، لا يرى من الأشياء إلا وجه الحق فيها، يضع الأسباب ويقيمها ويدل عليها ويجري بحكمها، ينزل إليها حتى تحكم عليه، وتؤثر فيه، لا يكون فيه ربانية بوجه من الوجوه، مصاحب لهذا الحال دائمًا إن كان صاحب دنيا وثروة وتصرف فيها تصرف عبد في مال سيد كريم، وإن لم يكن له دنيا وكان على ما يفتح له لم تستشرف له نفس بل يقصد بنفسه عند الحاجة إلى بعض ما تحتاج إليه طبيعته بيت صديق ممن يعرفه، يعرض عليه ما تحتاج إليه طبيعته كالشفيع لها عنده؛ فيتناول لها منه قدر ما تحتاج إليه وينصرف، لا يجلس عن حاجته إلا من ضرورة، فإذا لم يجد لجأ إلى الله في حاجة طبيعية؛ لأنه مسئول عنها لكونه واليًا عليها، ثم ينتظر الإجابة من الله فيما سأله، فإن شاء أعطاه ما سأل عاجلاً أو آجلاً.

فمرتبته الإلحاح في السؤال والشفاعة في حق طبيعته بخلاف أصحاب الأحوال، فإن الأشياء تتكون عن همتهم وطرحهم الأسباب عن نفوسهم، فهم ربانيون، والقطب منزه عن الحال، ثابت في العلم، مشهود فيه فيتصرف به، فإن أطلعه الحق على ما يكون أخبر بذلك على جهة الافتقار والمنة لله لا على جهة الافتخار، لا تطوى له أرض، ولا يمشي في هواء، ولا على ماء، ولا يأكل من غير سبب، ولا يطرأ عليه شيء مما ذكرناه من

خرق العوائد، وما تعطيه الأحوال إلا نادرًا لأمر يراه الحق فيفعله، لا يكون ذلك مطلوبًا للقطب، يجوع اضطرارًا لا اختيارًا، ويصبر عن النكاح كذلك لعدم الطول، يعلم من تجلي النكاح ما يحرضه على طلبه والتعشق به، فإنه لا يتحقق له ولا لغيره من العارفين، عبوديته أكثر مما يتحقق له في النكاح، لا في أكل ولا في شرب، ولا في لباس لدفع مضرة، ولا يرغب في النكاح للنسل بل لمجرد الشهوة وإظهار التناسل في نفسه لأمر مشروع، والتناسل في ذلك للأمر الطبيعي لحفظ بقاء النوع في هذه الدار، فإن نكاح صاحب هذا المقام كنكاح أهل الجنة لمجرد الشهوة إذ هو التجلي الأعظم الذي خفي عن الثقلين إلا من اختصه الله به من عباده، وعلى هذا يجري نكاح البهائم لمجرد الشهوة، لكن غاب عن هذه الحقيقة كثيرٌ من العارفين؛ فإنه من الأسرار التي لا يقف عليها إلا القليل من أهل العناية.

ولو لم يكن فيه من الشرف التام الدال على ما تستحقه العبودية من الضعف إلا ما يجد فيه من قهر اللذة المفنية له عن قوته ودعواه فهو قهر لذيذ إذ القهر مناف للالتذاذ به في حق المقهور؛ لأن اللذة في القهر من خصائص القاهر لا من خصائص المقهور، إلا في هذا الفعل خاصة، وقد غاب الناس عن هذا الشرف وجعلوه شهوة حيوانية نزهوا نفوسهم عنها مع كونهم سموها بأشرف الأسماء وهو قولهم: حيوانية، أي: هي من خصائص الحيوان، وأي شرف أعظم من الحياة، فما اعتقدوه قبحًا في حقهم هو عين المدح عند العارف المكمل هذا مضى بسبيله.

وأما حب القطب الجمال المقيد المندرج في الجمال المطلق فذلك لقربه في المناسبة إلى الجمال، فلا يحتاج فيه إلى غور بعيد، وقوة يشق بها حجاب قبح الطبع إلى إدراك الجمال الإلهي المودع في ذلك القبح، فالجمال المقيد يعطيه بأول وهلة مقصوده حتى يتفرغ إلى أمر آخر آكد عليه من مقاومة القبح الطبيعي لإدراك الجمال المطلق، إذ الأنفاس عزيزة في دار التكليف، ويريد ألا يكون له نفس إلا وقد تلقاه بأحسن أدب، وصرفه بأحسن خلعة وزينة.

وقد غاب عن هذا القدر من المعرفة جماعة من العارفين، وأنفت نفوسهم من ذلك لمشاركة أهل الأعراض من العامة فيه، وما علموا أن هذا الرجل له مشاهدة الجمال المطلق في الجمال المقيد وفي غيره بخلاف العامة.

واعلم أن القطب هو الرجل الكامل الذي قد حصل الأربعة الدنانير الذي كل دينار منها خمسة وعشرون قيراطًا، وبها توزن الرجال، فمنهم ربع رجل، ونصف رجل، ونصف، وثمن، وسدس، ونصف سدس، وثلاثة أرباع، ورجل كامل، فالدينار الواحد للمؤمن الكامل، والدينار الثاني للولي الخاص، والدينار الثالث للنبوتين، والدينار الرابع

للرسالتين، أعني: الأصلية بحكم الأبوة، والوراثة بحكم البنوة.

فمن حصل الثاني كان له الأول، ومن حصل الثالث كان له الثاني والأول، ومن حصل الرابع حصل الكل، والقطب من الرجال الكمل، وإنما قلنا من الرجال الكمل من أجل الأفراد فإنهم مكملون.

ومن أحوال القطب تقرير العادات، والجري عليها، ولا يظهر عليه خرق عادة دائمًا كما ظهر على صاحب الحال، ولا يكون خرق العادة مقصودًا له، بل تظهر منه، ولا تظهر عنه، إذ لا اختيار له في ذلك، كما قال العارف أبو السعود بن الشبلي في الرجل يتكلم على الخاطر وما هو مع الخاطر فيكون في حقه بحكم الاتفاق الوجودي، وفي حق الله بحكم الإرادة والقصد: فقد بينا بحمد الله الضروري الخاص من أحوال القطب، وبينا رتبته لمن جهلها، وإن الرجولية ليست فيما يتخيله الجهال من عامة الطريق بطريق الله فينحجبون بالحال عما يقتضيه العلم والمقام، فيقولون: كل علم لا يكون بالحال فليس بشيء، فقل له: لا تقل ذلك يا أخي، فإنه خلاف الأمر، وإنما الصحيح أن تقول: كل علم لا يكون عن ذوق فليس بعلم أهل الله، فأراك لا تفرق بين الحال والذوق، وما ثم علم قط إلا عن ذوق لا يكون غير هذا، والمتمكن في العبودية لا حال له ألبتة يخرجه عن عبوديته، فلو لم يكن في الأحوال من النقص إلا أنها تخرج العبد عن مقامه إلى ما لا يستحقه ولا هو حق له حتى أنه لو مات في حال الحال لمات صاحب نقص، وحشر صاحب نقص، فليست الأحوال من مطالب الرجال، لكن الأذواق مطالبهم، وهي لهم لما يحصل لهم فيها من العلوم بمنزلة الأدلة لأصحاب النظر فيها، فالله يجعلنا ممن فهم ففهم عن الله مراده، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم».

وقال الشيخ ﷺ في الباب الخامس والتسعين ومائتين: «اعلم أن الله ﷻ لما خلق الأرواح الملكية المهيمة، وهم الذين لا علم لهم بغير الله، لا يعلمون أن الله خلق شيئًا سواهم، وهم الكروبيون المقربون المعتكفون المفردون، المأخوذون عن أنفسهم بما أشهدهم الحق من جلاله، اختص منهم المسمى بالعقل الأول، والأفراد منا على مقامهم فجلال الله في قلوب الأفراد على مثل ذلك، فلا يشهدون سوى الحق، وهم خارجون عن حكم القطب الذي هو الإمام، وهو واحد منهم، ولكنه يكون مادته من العقل الأول، الذي هو أول موجود من عالم التدوين والتسطير، وهو الموجود الإبداعي، ثم بعد ذلك من غير بعدية زمان انبعث عن هذا العقل موجود انبعاثي، وهو النفس، وهو اللوح المحفوظ المكتوب فيه كل كائن في هذه الدار إلى يوم القيامة». ويطال فيه تحقيق الشيخ من أراد أن يعرفه فليطالع ثمة.

وقال الشيخ ﷺ في الفصل السادس في «الفتوحات المكية» في هجيرات الأقطاب المحمديين ومقاماتهم في الباب الثاني والخمسين وأربعمائة: «قال الله تعالى عن الملائكة والملأ الأعلى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات:١٦٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب:١٣] فأشبه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١] أي: تشبه هذه الآيةُ الآيةَ الأخرى، وأصل باب الأقطاب قوله ﷺ: «كلكم راع»[1] حتى الإنسان على جوارحه، وجميع قواه من بادية وهي الظاهرة، وحاضرة وهي الباطنة.

فاعلم أن الأمور كثيرة مختلفة في العالم، فكلَ شيء يدور عليه أمر ما من الأمور فذلك الشيء قطب ذلك الأمر، وما من شيء إلا وهو مركب من روح وصورة، فلابد أن يكون لكل قطب روح وصورة، فروحه تدور عليه أرواح ذلك الأمر الذي هذا قطبه، وصورة ذلك القطب تدور عليه صورة ذلك الأمر الذي هذا قطبه يسمى الوجه الواحد من القطب جنوبيًا وهو الروح، والآخر شماليًا وهو الصورة، فمن جملة أصناف العالم الأناسي وهم المقصودون من وجود العالم بالقصد الثاني لا بالقصد الأوّل.

فالقصد بوجود العالم عبادة الله، أعني: عبادة العرفان الحادث لكمال صورته في الوجود، غير أنه في كل صنف من أصناف العالم تام غير كامل، وما كمل إلا بهذه النشأة الإنسانية الكاملة، وما عدا فهو الإنسان الحيوان المسمى بالحد حيوانًا ناطقًا، والأقطاب من الكمل.

ثم إن الله جعل العالم الجسمي والجسماني في منزلين: منزل يسمى الدنيا، ومنزل يسمى الآخرة، وجعل سكانهما الإنس والجان، والمعتبر فيهما الإنس، والمعتبر من الإنس الكمل لا غير، وهم الذين ذكرهم: (الله) لا يزيدون عليه في نفوسهم، هذا ذكرهم في نفوسهم، وفي خلواتهم باللسان، وأما في العموم فـ(لا إله إلا الله) ثم بعدها أنواع الذكر من (سبحان الله) المقيد والمطلق، و(الحمد لله) كذلك، و(الله أكبر) كذلك، و(لا حول ولا قوّة إلا بالله) كذلك، فعمَّر بهذا الصنف المقصود من العالم أوّلاً الدار الدنيا من الدارين، وجعل سكناهم فيها بآجال مسماة ينتهون إليها ثم ينتقلون عند فراغ مدتهم إلى الدار الآخرة.

ونقلتهم على ضربين: منهم من ينتقل بموت، وهو مفارقة الحياة الدنيا، فيحيى بحياة الآخرة، ومنهم من ينتقل بالحياة الدنيا من غير موت، وهو الشهيد في سبيل الله خاصة، وما يقال فيه بأنه أفضل من الميت إلا أنه أفضل من بعض الموتى.

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٠٤)، ومسلم (٣/ ١٤٥٩).

ثم إن الله جعل هذا الصنف الإنساني في الدنيا أممًا كثيرين، ثم بعث في كل أمة رسولاً ليعلمها ما هو الأمر عليه الذي خلقوا له، ويعلمهم بما للحق عليهم أن يفعلوه، وما لهم إذا فعلوا ذلك من الخير عند الله في الدار الآخرة، وماذا عليهم إذا لم يفعلوا من العقوبة عند الله في الدار الدنيا، إذا علم ولاة أمرهم ذلك، وفي الآخرة ثم جعل الفضل فيهم، فمنهم الفاضل، والأفضل من الأمم ومن الرسل، وختم الأمم بأمة محمد ﷺ وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وختم بمحمد ﷺ جميع الرسل عليهم، وختم بشرعه جميع الشرائع، فلا رسول بعده يشرع، ولا شريعة بعد شريعته تنزل من عند الله إلا ما قرّره شرعه من اجتهاد علماء أمته في استنباط الأحكام من كتابه وسنة نبيه، وأعني بالسنة الحديث لا من قياس، وأعني بالقياس هنا قياس فرع على فرع لا قياس فرع على أصل، فإن قياس الفرع على الأصل هو المستنبط الذي ثبت بالاجتهاد، وجعله الفقهاء أصلاً رابعًا كما جعلوا الإجماع أصلاً ثالثًا، وهو إجماع الصدر الأوّل، وقالوا: إنهم ما أجمعوا على أمر إلا ولابدّ أن يعرفوا فيه نصًّا يرجعون فيه إليه، إلا أنه ما وصل إلينا مع قطعنا به فإنه من المحال أن يجتمعوا على حكم لا يكون لهم فيه نص؛ لأن نظرهم وفطرهم مختلفة فلابد من الاختلاف، وقد أجمعوا على أمر فذلك الحكم مقطوع به عندنا أنهم فيه على نص من الرسول ﷺ ولا حكم بإجماع بعد إجماع الصدر الأوّل.

فلما كان الأمر على ما قرّرناه في هذا الباب فاشتغلنا بذكر الأقطاب المحمديين لكون محمد ﷺ سيد الناس يوم القيامة، وهو وأمته الآخرون الأولون فاعتبرنا من الرسل محمدًا ﷺ ومن الأمم أمته ﷺ.

واعلم أن الأقطاب المحمديين على نوعين: أقطاب بعد بعثته، وأقطاب قبل بعثته، فالأقطاب الذين كانوا قبل بعثته هم الرسل، وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً، وأما الأقطاب من أمته الذين كانوا بعد بعثته إلى يوم القيامة فهم اثنا عشر قطبًا: الأول على قدم نوح عليه السلام، والثاني على قدم إبراهيم الخليل عليه السلام، والثالث على قدم موسى عليه السلام، والرابع على قدم عيسى عليه السلام، والخامس على قدم داود عليه السلام، والسادس على قدم سليمان عليه السلام، والسابع على قدم أيوب عليه السلام، والثامن على قدم إلياس عليه السلام، والتاسع على قدم لوط عليه السلام، والعاشر على قدم هود عليه السلام، والحادي عشر على قدم صالح عليه السلام، والثاني عشر على قدم شعيب عليه السلام.

والختمان خارجان عن هؤلاء الأقطاب، فهم من المفردين، وسيأتي في آخر الكتاب ذكر الختم.

واعلم أقطاب هذه الأمة المحمدية على أقسام مختلفة، وما أعني بالأقطاب الذين لا

يكون في كل عصر منهم إلا واحد، وإنما أعني في الأقطاب المحمديين كل من دار عليه أمر جماعة من الناس في إقليم أو جهة كالأبدال في الأقاليم السبعة، لكل إقليم بدل هو قطب ذلك الإقليم، وكالأوتاد الأربعة فلهم أربع جهات، يحفظها الله بهم من شرق وغرب وجنوب وشمال، لكل جهة وتد، وكأقطاب القرى فلابد في كل قرية من ولي لله تعالى به يحفظ الله تلك القرية سواء كانت تلك القرية كافرة أو مؤمنة، فذلك الولي قطبها، وكذلك أصحاب المقامات، فلابد للزهاد من قطب يكون المدار عليه في الزهد في أهل زمانه، وكذلك في التوكل والمحبة والمعرفة وسائر المقامات والأحوال لابد في كل صنف من أربابها من قطب يدور عليه ذلك المقام».

وكلامه فيه ﷺ يطول ولكن لخصته واختصرته على ما أمكن في هذه الرسالة المنتخبة، ثم ذكر الشيخ ﷺ لهذه الأقطاب وهجيراتهم ومقاماتهم في الباب الثالث والستين وأربعمائة إلى الباب السادس والخمسين وخمسمائة يكون مجموع الأبواب ثلاثًا وتسعين بابًا في كل باب ذكر قطب من الأقطاب المحمدية.

وقال الشيخ ﷺ في الباب الخامس والخمسين وخمسمائة في معرفة السبب الذي منعني أن أذكر فيه بقية الأقطاب في زماننا هذا إلى يوم القيامة:

لكل مَنع سبب ظَاهر أو باطن لابد من كونه
فمانع يظهر من غيره ومانع يظهر من عينه
وقد يكون المنع من قربه وقد يكون المنع من بونه
فصن وجود العقل عن فكره تجد وجود الحق في صونه
فزينة الإنسان في نفسه إدراكه الزِّينة في شينه

اعلم - وفقنا الله وإياك- أن الكتب الموضوعة لا تبرح إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وفي كل زمان لابد من وقوف أهل ذلك الزمان عليها، ولابد في كل زمان من وجود قطب عليه يكون مدار ذلك الزمان، فإذا سميناه وعيناه قد يكون أهل زمانه يعرفونه بالاسم والعين ولا يعرفون رتبته؛ فإن الولاية أخفاها الله في خلقه، وربما لا يكون عندهم في نفوسهم ذلك القطب بتلك المنزلة التي هو عليها في نفس الأمر، فإذا سمعوا في كتابي هذا بذكره أداهم إلى الوقوع فيه فينزع الله نور الإيمان من قلوبهم، كما قال رويم: وأكون أنا السبب في مقت الله إياهم.

فتركت ذلك شفقة مني على أمة محمد ﷺ وما أنا في قلوب الناس ولا في نفس الأمر

ولا عند نفسي بمنزلة الرسول يجب الإيمان بي عليهم وبما جئت به، ولا كلفني الله إظهار مثل هذا فأكون عاصيًا بتركه، ولا هذه المسألة بمنزلة قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] وبسط الرحمة على الكافة الأولى من اختصاصها في حقنا.

وقد فعل مثل هذا القشيريُّ في «رسالته» حيث ذكر أولئك الرجال في أوّل الرسالة وما ذكر فيهم الحلاج للخلاف الذي وقع فيه حتى لا تتطرق التهمة لمن وقع ذكره من الرجال في رسالته، ثم إنه ساق عقيدته في التوحيد في صدر الرسالة ليزيل بذلك ما في نفس بعض الناس منه من سوء الطوية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

وقال ﷺ في الباب السادس والخمسين وخمسمائة في معرفة ختم الأولياء على الإطلاق:

أَلَا إن خَتمَ الأنبياءِ رسولٌ ... وليسَ له في العالمينَ عديلُ
هو الروحُ وابنُ الروحِ والأم مريمُ ... وهذا مقامٌ ما إليه سبيلُ
فينزلُ فينا مُقسطًا حَكمًا لنا ... وما كانَ من حكم له فيزولُ
فيقتلُ خنزيرًا ويدفعُ بَاطلاً ... وليس له إلا الإله دَليلُ
يؤيدهُ في كُلِّ حَالٍ بآيةٍ ... يراهَا برأي العينِ فهوَ كفيلُ
يقيمُ بإعلامِ الهدىَ شرعَ أحمدَ ... يكونُ له منهُ لديه مقيلُ
يفيضُ عليه من وسيلةِ ملكهِ ... ولكنهُ في الحالتينِ نزيلُ

اعلم – وفقنا الله وإياك– أن الله تعالى من كرامة محمد ﷺ على ربه أن جعل من أمته رسلاً، ثم إنه اختص من الرسل من بعدت نسبته من البشر، فكان نصفه بشرًا ونصفه الآخر روحًا مطهرة ملكًا؛ لأن جبريل وهبه لمريم بشرًا سويًا، رفعه الله إليه ثم ينزله وليًا خاتم الأولياء في آخر الزمان، يحكم بشرع محمد ﷺ في أمته، وليس بختم إلا ولاية الرسل والأنبياء وختم الولاية المحمدي يختم ولاية الأولياء لتتميز المراتب بين ولاية الولي وولاية الرسل، فإذا نزل وليًا فإن خاتم الأنبياء يكون ختمًا لولاية عيسى عليه السلام من حيث ما هو من هذه الأمة حاكمًا بشرع غيره كما أن محمدًا خاتم النبيين، وإن نزل بعده عيسى كذلك حكم عيسى في ولايته بتقدمه بالزمان خاتم ولاية الأولياء وعيسى منهم، ورتبته قد ذكرناها في كتابنا المسمى: «عنقاء المغرب» فيه ذكره، وذكر المهدي الذي ذكره رسول الله ﷺ فأغنى عن

ذكره في هذا الكتاب، ومنزلته لا خفاء بها فإن عيسى كما قال تعالى: ﴿رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

الخاتمة في ختم الولاية المحمدية

قال الشيخ ﷺ في الباب السادس والستين وثلاثمائة في معرفة منزل وزراء المهدي الآتي في آخر الزمان الذي بشر به رسول الله ﷺ وهو من أهل البيت:

إنَّ الإمــامَ إلى الــوزيرِ فقــيرُ ... وَعَلــيهما حُكــمُ الوجــودِ يَــدورُ
والملــكُ إنْ لم تــسْتقم أَحْوالــهُ ... لوجــودِ هَــذينِ فَلــيسَ يَنــورُ
إلا الإلــهَ الحــقَّ فَهــو مُنــزهٌ ... مَــا عِنــدَهُ فِــيمنْ يُريــدُ وزيــرُ
جَــلَّ الإلــهُ الحــقُّ في مَلكُوتِــهِ ... عَــن أنْ يــراهُ الخَلــقُ وَهــو فَقِيــرُ

اعلم - أيدنا الله- أن لله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جورًا وظلمًا فيملؤها قسطًا وعدلاً لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، طول الله ذلك اليوم حتى يلي هذا الخليفة من عترة رسول الله ﷺ من ولد فاطمة من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب، يبايع بين الركن والمقام يشبه رسول الله ﷺ في خَلقه - بفتح الخاء- وينزل عنه في الخُلق - بضم الخاء- لأنه لا يكون أحد مثل رسول الله ﷺ في أخلاقه، والله يقول فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

هو أجلى الجبهة، أقنى الأنف، أسعد الناس به أهل الكوفة، يقسم المال بالسوية، ويعدل في الرعية، ويفصل في القضية، يأتيه الرجل فيقول له: يا مهدي، أعطني، وبين يديه المال، فيجيء له في ثوبه ما استطاع أن يحمله، يخرج على فترة من الدين ينزع الله به ما لا ينزع بالقرآن، يمسي جاهلاً بخيلاً جبانًا ويصبح أعلم الناس أكرم الناس أشجع الناس، يصلحه الله في ليلة، يمشي النصر بين يديه، يعيش خمسًا أو سبعًا أو تسعًا، يقفو أثر رسول الله ﷺ لا يخطئ، له ملك يسدده من حيث لا يراه، يحمل الكل، ويقوي الضعيف في الحق، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، يفعل ما يقول، ويقول ما يعلم، ويعلم ما يشهد، يفتح المدينة الرومية بالتكبير في سبعين ألفًا من المسلمين من ولد إسحاق، يشهد الملحمة العظمى مأدبة الله بمرج عكا، يبيد الظلم وأهله، يقيم الدين، ينفخ الروح في الإسلام، يعز الإسلام به بعد ذله، ويحيا بعد موته، ويضع الجزية، ويدعو إلى الله بالسيف فمن أبى قتل، ومن نازعه خذل، يُظهر من الدين ما هو الدين عليه في نفسه ما لو كان رسول الله ﷺ لحكم به، يرفع المذاهب من الأرض فلا يبقى إلا الدين الخالص، أعداؤه مقلدة العلماء أهل

الاجتهاد لما يرونه من الحكم بخلاف ما ذهبت إليه أئمتهم، فيدخلون تحت حكمه خوفًا من سيفه وسطوته ورغبته فيما لديه، يفرح به عامة المسلمين أكثر من خواصهم، يبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف بتعريف إلهي، له رجال يقيمون دعوته وينصرونه، هم الوزراء يحملون أثقال المملكة ويعينونه على ما قلده الله.

ينزل عليه عيسى ابن مريم بالمنارة البيضاء بشرقي دمشق بين «مَهْرُودتَيْن» متكأ على ملكين، ملك عن يمينه وملك عن يساره، يقطر رأسه ماء مثل الجمان ينحدر كأنما خرج من ديماس، والناس في صلاة العصر؛ فيتنحى له الإمام من مقامه، فيتقدم فيصلي بالناس، يؤم الناس بسنة محمد ﷺ، يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويقبض الله المهدي إليه طاهرًا مطهرًا، وفي زمانه يقتل السفياني عند شجرة بغوطة دمشق، ويخسف بجيشه في البيداء بين المدينة ومكة حتى لا يبقى من الجيش إلا رجل واحد من جهينة، يستبيح هذا الجيش مدينة الرسول ﷺ ثلاثة أيام ثم يرحل يطلب مكة؛ فيخسف الله به في البيداء، فمن كان مجبورًا من ذلك الجيش مكرهًا يحشر على نيته، القرآن حاكم، والسيف مبيد، ولذلك ورد في الخبر: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»(١).

إلا أن خَتم الأولياء شَهيد ... وعَين إمام العالمين فَقيدُ

هو السيد المهدي من آل أحمدَ ... هو الصَّارم الهندي حين يبيدُ

هو الشَّمس يجلو كل غَمٍّ وظُلمة ... هو الوابل الوسمي حين يجودُ

وقد جاءكم زمانه، وأظلكم أوانه، وظهر في القرن الرابع اللاحق بالقرون الثلاثة الماضية قرن رسول الله ﷺ وهو قرن الصحابة ثم الذي يليه ثم الذي يلي الثاني، ثم جاء بينهما فترات، وحدثت أمور، وانتشرت أهواء، وسفكت دماء، وعاثت الذئاب في البلاد، وكثر الفساد إلى أن طم الجور وطما سيله وأدبر نهار العدل بالظلم حين أقبل ليله، فشهداؤه خير الشهداء، وأمناؤه أفضل الأمناء.

وأن الله يستوزر له طائفة خبأهم له في مكنون غيبه، أطلعهم كشفًا وشهودًا على الحقائق، وما هو أمر الله عليه في عباده، فمبشاورتهم يفصل ما يفصل، وهم العارفون الذين عرفوا ما ثم.

وأما هو في نفسه فصاحب سيف حق، وسياسة مرتبة، يعرف من الله قدر ما تحتاج إليه مرتبته ومنزلته؛ لأنه خليفة مسدد، يفهم منطق الحيوان يسري عدله في الإنس والجان، من أسرار علم وزرائه الذين استوزرهم الله له قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٠).

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧] وهم على أقدام رجال من الصحابة صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وهم من الأعاجم ما فيهم عربي لكن لا يتكلمون إلا بالعربية، لهم حافظ ليس من جنسهم، ما عصى الله قط، هو أخص الوزراء، وأفضل الأمناء؛ فأعطاهم الله في هذه الآية التي اتخذوها هجيرًا، وفي ليلهم سميرًا فضل علم الصدق حالاً وذوقًا؛ فعلموا أن الصدق سيف الله في الأرض، ما قام بأحد ولا اتصف به إلا نصره الله؛ لأن الصدق نعته، والصادق اسمه، فنظروا بأعين سليمة من الرمد، وسلكوا بأقدام ثابتة في سبيل الرشد، فلم يروا الحق قيد مؤمنًا من مؤمن بل أوجب على نفسه نصر المؤمنين، ولم يقل بمن بل أرسلها مطلقة وجلاها محققة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء:٩٢]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [العنكبوت:٥٢]، وقال: ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ﴾ [غافر:١٢] فسمى المشرك مؤمنًا، فهؤلاء هم المؤمنون الذين أيَّه الله بهم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦] فميزهم عن المؤمنين من أهل الكتاب، والكتب وما ثم مخبر جاء بخبر إلا الرسل فتعين أن المؤمنين الذين أمروا بالإيمان أنهم الذين آمنوا بالباطل وآمنوا بالشريك عن شبه صرفتهم عن الدليل؛ لأن الذين آمنوا بالباطل كفروا بالله، والذين آمنوا بالشريك اشمأزت قلوبهم إذا ذكر الله وحده، فما أتاهم بهذا الخبر إلا أئمتهم المضلون الذين سبقوهم.

وكان ذلك في زعمهم عن برهان أعني: الأئمة عن قصور بل وفوا النظر حقه فما أعطاهم استعدادهم الذي آتاهم الله ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق:٧] وما آتاها غير ما جاءت به، فآمن بذلك أتباعهم، وصدقوا في إيمانهم، وما قصدوا إلا طريق النجاة، ما قصدوا ما يرديهم.

ولما رأوا أن الله يفعل ابتداء، ويفعل بالآلة جعلوا الشريك كالوزير معينًا على ظهور بعض الأفعال الحاصلة في الوجود، فلما ذكر الله وحده رأوا أن هذا الذكر لم يوف الأمر حقه لما علموا من توقف بعض الأفعال على وجود بعض الخلق، وما كان مشهودهم إلا الأفعال الإلهية الحاصلة في الوجود عن الأسباب المخلوقة، فلن يقبلوا توحيد الأفعال؛ لأنهم ما شاهدوه، ولو قبلوه أبطلوا حكمة الله فيما وضع من الأسباب علوًا وسفلاً، فهذا الذي أداهم إلى الاشمئزاز وعدم الإنصاف فذمهم الله إيثار الجناب المؤمنين الذين لم يروا فاعلاً إلا الله، وأن القدرة الحادثة والأمور الموقوفة على الأسباب لا أثر لها في الفعل.

فهذه الطائفة وحدها التي خصَّ الله بها هذا الخطاب، وأما الذين كفروا بالله فهم

الذين ستروه بحجاب الشرك، وآمنوا بالباطل، والباطل عدم، وما رأوا من ينتفي عنه التشبيه، والشرك إلا العدم فإن الموجود صفة مشتركة، فإيمانهم بالباطل إيمان تنزيه، وكفرهم أي: سترهم نسبة الوجود إلى الله لما وقع في ذلك من الاشتراك، ولذلك قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة:٢٧] لأنهم خسروا في تجارتهم وجود الربح إظهار تمام الأمر على ما هو عليه ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٧٥] أي: الحيرة بالبيان، فأخذوا الحيرة، وعلموا أن الأمر عظيم، وأن البيان تقييد، وهو لا يتقيد؛ فآثروا الحيرة على البيان.

وأما أصحاب العقل السليم، والنظر الصحيح، والإيمان العام فهم الذين أثبتوا الحيرة في مقامها وموطنها، فقال ﷺ: «زدني فيك تحيرًا»[1] وأثبتوا البيان في مقامه الذي لا يتمكن معرفة ذلك الأمر إلا بالبيان ولا يقبل الحيرة؛ فأعطوا كل ذي حق حقه، ووضعوا الحكمة في موضعها، فالكل مؤمنون فإن الله سماهم: ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ كما سماهم ﴿كَٰفِرِينَ﴾ و﴿مُشۡرِكِينَ﴾ وجعلهم على مراتب في إيمانهم؛ ولهذا قال: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ [الفتح:٤] فيما آمنوا به كما زادهم مرضًا ورجسًا إلى رجسهم فيما كفروا به، فمنهم الصادق والأصدق فينصر الله المؤمن الذي لم يدخله خلل في إيمانه على من دخله خلل في إيمانه، فإن الله يخذله على قدر ما دخله من الخلل أي مؤمن كان من المؤمنين، فالمؤمن الكامل الإيمان منصور أبدًا، ولهذا ما انهزم نبي قط ولا ولي، ألا ترى يوم حنين لما ادعت الصحابة ﷺ توحيد الله ثم رأوا كثرتهم فأعجبتهم كثرتهم فنسوا الله عند ذلك، فلم تغن عنهم كثرتهم شيئًا كما لم تغن أولئك آلهتهم من الله شيئًا مع كون الصحابة مؤمنين بلا شك، ولكن دخلهم الخلل باعتمادهم على الكثرة، ونسوا قول الله: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩] فما أذن الله هنا إلا للغلبة فأوجدها فغلبتهم الفئة القليلة بها عن إذن الله.

فما ثم إلا الله ليس سواه ... وكل بصير بالوجود يراه

وأما تأثير الصدق فمشهود في أشخاص ما لهم تلك المكانة من أسباب السعادة التي جاءت بها الشرائع، ولكن لهم القدم الراسخ في الصدق، فيقتلون بالهمة، وهي الصدق، قيل لأبي يزيد - قدس سره: أرنا اسم الله الأعظم! فقال لهم: أرونا الأصغر حتى أريكم الأعظم، أسماء الله كلها عظيمة، فما هو إلا الصدق فاصدق وخذ أي اسم شئت، فإنك تفعل به ما شئت، وبه أحيا أبو يزيد النملة، وأحيا ذو النون ﷺ ابن المرأة التي ابتلعه

(١) ذكره الشيخ في «الفتوحات» (١/ ٨١).

التمساح، فإن فهمت فقد فتحت لك بابًا من أبواب سعادتك، إن عملت عليه أسعدك الله حيث كنت، ولن تخطئ أبدًا.

ومن هنا تكون في راحة مع الله إذا كانت الغلبة للكافرين على المسلمين، فتعلم أن إيمانهم تزلزل، ودخله الخلل، وأن الكافرين فيما آمنوا به من الباطل والمشركين لم يتخلخل إيمانهم ولا تزلزلوا فيه، فالنصر أخو الصدق حيث كان يتبعه، ولو كان خلاف هذا ما انهزم المسلمون قط كما أنه لم ينهزم نبي قط، وأنت تشاهد غلبة الكفار ونصرتهم في وقت وغلبة المسلمين ونصرتهم في وقت، والصادق من الفريقين لا ينهزم جملة واحدة، بل لا يزال ثابتًا حتى يقتل أو ينصرف من غير هزيمة.

وعلى هذه القدم وزراء المهدي، وهذا هو الذي يقررونه في نفوس أصحاب المهدي ألا تراهم بالتكبير يفتحون مدينة الروم، فيكبرون التكبيرة الأولى فيسقط ثلث سورها، ويكبرون الثانية فيسقط الثلث الثاني من السور، ويكبرون الثالثة فيسقط الثلث الثالث؛ فيفتحونها من غير سيف، فهذا عين الصدق الذي ذكرنا.

وهم جماعة - أعني: وزراء المهدي- دون العشرة، وإذا علم الإمام المهدي هذا عمل به فيكون أصدق أهل زمانه، فوزراؤه الهداة، وهو المهدي، فهذا القدر يحصل للمهدي من العلم بالله على أيدي وزرائه.

وأما ختم الولاية المحمدية، فهو أعلم الخلق بالله، لا يكون في زمانه ولا بعد زمانه أعلم بالله وبمواقع الحكم منه، فهو والقرآن إخوان، كما أن المهدي والسيف إخوان، وإنما شك رسول الله ﷺ في مدة إقامته خليفة من خمس إلى تسع للشك الذي وقع في وزرائه؛ لأنه لكل وزير معه سنة، فإن كانوا خمسة عاش خمسة، وإن كانوا سبعة عاش سبعة، وإن كانوا تسعة عاش تسعة، فإنه لكل عام أحوال مخصوصة وعلم ما يصلح في ذلك العام خص به وزير من وزرائه، فما هم أقل من خمسة ولا أكثر من تسعة.

ويقتلون كلهم إلا واحدًا منهم في مج عكا في المائدة الإلهية التي جعلها الله مائدة لسباع الطير والهوام، وذلك الواحد الذي يبقى لا أدري هل يكون ممن استثنى الله في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨] أو يموت في تلك النفخة.

وأما الخضر الذي يقتله الدجال في زعمه لا في نفس الأمر، وهو فتى ممتلئ شبابًا هكذا يظهر له في عينه، وقد قيل: إن الشاب الذي يقتله الدجال في زعمه أنه واحد من أصحاب الكهف، وليس ذلك بصحيح عندنا من طريق الكشف.

وظهور المهدي من أشراط قرب الساعة، ويكون فتح مدينة الروم وهي

القسطنطينية العظمى والملحمة الكبرى التي هي المأدبة بمرج عكا وخروج الدجال في ستة أشهر، ويكون بين فتح القسطنطينية وخروج الدجال ثمانية عشرة يومًا، ويكون خروجه من خراسان من أرض المشرق موضع الفتن تتبعه الأتراك واليهود يخرج إليه من أصبهان وحدها سبعون ألفًا مطيلسين، واتباعه كلهم من اليهود، وهو رجل كهل أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية مكتوب بين عينيه: (كاف فاء راء)، فلا أدري هل المراد بهذا الهجاء: (كفر) من الأفعال، أو أراد به: (كفر) من الأسماء إلا أنه حذف الألف كما حذفتها العرب في خط المصحف في مواضع فمثل ألف الرحمن بين الميم والنون، وكان ﷺ يستعيذ وأمرنا بالاستعاذة من فتنة المسيح الدجال ومن الفتن؛ فإن الفتن تعرض على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، نعوذ بالله من الفتن.

حدثنا المكي أبو شجاع بن رستم الأصبهاني إمام مقام إبراهيم بالحرم المكي قال: ثنا أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم بن أبي سهل الكرخي قال: أخبرنا مشايخي الثلاثة القاضي أبو عامر محمود بن القاسم الأزدي وأبو نصر عبد العزيز بن محمد الترياقي وأبو بكر محمد بن أبي حاتم التاجر، قالوا: أخبرنا محمد بن عبد الجبار الجراحي قال: أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي المروزي، قال: أنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، قال: حدثنا علي بن حجر: أنا الوليد بن مسلم وعبد الله بن عبد الرحمن بن يزيد ابن يحيى بن خالد الطائي عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر دخل حديث أحدهما في حديث الآخر عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن يحيى بن خالد الطائي عن عبد الرحمن ابن جبير عن أبيه جبير بن نفير عن النواس بن سمعان الكلابي قال: «ذَكَرَ رَسُولُ الله ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِئَةٌ كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ «الْكَهْفِ» إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالاً يَا عِبَادَ الله فَاثْبُتُوا، قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ؛ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ

فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمْ اللهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمْ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنْ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنْ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنْ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنْ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنْ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنْ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنْ النَّاسِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»(١).

قال أبو عيسى: هذا حديث غريب حسن صحيح.

ثم نرجع إلى ما بنينا عليه الباب من العلم بوزراء المهدي ومراتبهم.

فاعلم أني على الشك من مدة إقامة هذا المهدي أمامًا في هذه الدنيا، فإني ما طلبت من الله تحقيق ذلك ولا تعيينه ولا تعيين حادث من حوادث الأكوان إلا أن يعلمني الله به ابتداءً لا عن طلب، فإني أخاف أن يفوتني من معرفتي به تعالى حظ في الزمان الذي أطلب فيه منه تعالى معرفة كون وحادث، بل سلمت أمري إلى الله في ملكه يفعل فيه ما يشاء، فإني أتيت جماعة من أهل الله تعالى يطلبون الوقوف على علم الحوادث الكونية منه تعالى ولاسيما معرفة إمام الوقت فأنفت من ذلك، وخفت أن يسرقني الطبع بمعاشرتهم، وهم

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٢٥٤)، والترمذي (٤/ ٥١٠).

على هذه الحال، وما أردت منه تعالى إلا أن يرزقني الثبوت على قدم واحدة من المعرفة به وإن تقلبت في الأحوال فلا أبالي.

ولما رأيته قد قدمني وأخرني، ورأيت اختلاف عيني لاختلاف الحال فلم أر عينًا واحدة تثبت فما استقر لي أمر أثبت عليه كما كنت عليه في حال عدمي، ورأيت أن حكم الوجود ومقام الشهود حكم على عيني بذلك طلبت الإقالة من وجودي فخاطبته نظمًا وحكمًا:

لـك العتبى أقلني مـن وجـودي ومـن حكـم التحقـق بالـشهود
لقـد أصـبحت قبلـة كـل شيء وقـد أمـسيت أطلـب بالـسجود
عجبـت لحـالتي إذ قـال كـوني أنـا عـين المـسوّد والمـسود
فإمـا أن تميـزني إمامًـا وإمـا أن أميـز في العبيـد
لقـد لعبـت بنـا أيـدي الخفايـا خفايـا في عـين الوجـود

فلما سألت ذلك أبان لي عن جهلي، وقال لي: أما ترضى أن تكون مثلي، ثم أقام لي اختلاف تجليه في الصور، وما يدركه من ذاته البصر؟ فقلت: ما علي من اختلاف الأحوال على عين ثابتة لا تقبل التقييد، فإني ما أنكرت اختلاف الأحوال، فإن الحقائق تعطي ذلك، وإنما أقلقني اختلاف العين من وجودي لاختلاف الأحوال، فإني أعلم مع كونك كل يوم في شأن أنك العين الثابتة في الغنى عن العالمين فإني علمت:

أن التحـول في الـصور نعـت المهـيمن بـالخبر
وبـذاك أنـزل وحيـه فـيما تـلاه مـن الـسور
ولقـد رأيـت مِثالـه بمطـول وبمختـصر

أردت بالمطوّل العالم كله، وبالمختصر الإنسان الكامل، لما رأيت أن التقلب في كل ذلك لازم، ففي العالم تقلب الليل والنهار، وفي الإنسان الكامل الذي ساد العالم في الكمال وهو محمد ﷺ سيد الناس يوم القيامة، ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٨،٢١٩].

ولما جرى بنا القلم في حلبة العبارة الرقمية؛ لأن التعريف قد يقع لفظًا وكتابةً، وقد يقع في العموم عند الخواص بالنظر، وقد وجدته، وقد يقع بالضرب، وقد وجده رسول الله ﷺ وبأمور كثيرة غير ما ذكرنا، وكل ذلك خطاب وتعريف فطريق علمنا الأخبار.

ولما كنت على هذه القَدم التي جالست الحق عليها ألا أضيع زماني في غير علمي به تعالى قيض الله واحدًا من أهل الله تعالى وخاصته، يقال له: أحمد بن عقاب، اختصه الله بالأهلية صغيرًا، فوقع منه ابتداء ذكر هؤلاء الوزراء، فقال لي: هم تسعة، فقلت له: إن كانوا تسعة، فإن مدة بقاء المهدي ﷺ لابد أن تكون تسع سنين، فإني عليم بما يحتاج إليه وزيره، فإن كان واحدًا اجتمع في ذلك الواحد جميع ما يحتاج إليه، وإن كانوا أكثر من تسعة، فإنه انتهى إليه الشك من رسول الله ﷺ في قوله: «خمسًا أو سبعًا أو تسعًا» في إقامة المهدي ﷺ(١).

وجميع ما يحتاج إليه مما يكون قيام وزرائه به تسعة أمور لا عاشر لها، ولا تنقص عن ذلك، وهي نفوذ البصر، ومعرفة الخطاب الإلهي عند الإلقاء وعلم الترجمة عن الله وتعيين المراتب لولاة الأمر، والرحمة في الغضب، وما يحتاج إليه الملك من الأرزاق المحسوسة والمعقولة، وعلم تداخل الأمور بعضها على بعض، والمبالغة والاستقصاء في قضاء حوائج الناس، والوقوف على علم الغيب الذي يحتاج إليه في الكون في مدته خاصة.

فهذه تسعة أمور لابد أن تكون في وزير الإمام المهدي ﷺ إن كان الوزير واحدًا أو وزرائه إن كانوا أكثر من واحد.

فأما نفوذ البصر فذلك ليكون دعاؤه إلى الله على بصيرة في المدعو إليه لا في المدعو، فينظر في عين كل مدعو وممن يدعو، فيرى ما يمكن له الإجابة إلى دعوته فيدعوه من ذلك ولو بطرق الإلحاح، وما يرى منه أنه لا يجيب دعوته يدعوه من غير إلحاح لإقامة الحجة عليه خاصة؛ فإن المهدي حجة الله على أهل زمانه، وهي درجة الأنبياء التي تقع فيها المشاركة، قال الله تعالى: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٨] أخبر بذلك عن نبيه ﷺ فالمهدي ممن اتبعه، وهو ﷺ لا يخطئ في دعائه إلى الله، فمتبعه لا يخطئ، فإنه يقفو أثره، وكذا ورد في الخبر صفة المهدي إنه قال ﷺ: «يقفو أثري لا يخطئ»(٢)، وهذه هي العصمة في الدعاء إلى الله، وينالها كثير من الأولياء بل كلهم.

ومن حكم نفوذ البصر أن يدرك صاحبه الأرواح النُّورية والنَّارية عن غير إرادة من الأرواح ولا ظهور ولا تصور كابن عباس وعائشة - رضي الله عنهما- حين أدركا جبريل ﷺ وهو يكلم رسول الله ﷺ على غير علم من بذلك ولا إرادة منه للظهور لهم، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ ولم يعلما أنه جبريل ﷺ فقال لها ﷺ: «أو قد رأيته؟»، وقال لابن

---

(١) يُشير إلى حديث ابن ماجه (٢/ ١٣٦٦)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٣١١)، والشك: أي شكنا نحن.
(٢) أورده الشيخ في الفتوحات (٣٦٤).

عباس – رضي الله عنهما: «أرأيته؟» قالا: نعم، قال: «ذلك جبريل»[(١)].

وكذلك يدركون رجال الغيب في حال إرادتهم الاحتجاب، وإلا يظهروا للأبصار فيراهم صاحب هذا الحال.

ومن نفوذ البصر أيضًا إنهم إذا تجسدت لهم المعاني يعرفونها في عين صورها فيعلمون أي معنى هو ذلك الذي تجسد من غير توقف.

وأما معرفة الخطاب الإلهي عند الإلقاء فهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ [الشورى:٥١] فأما الوحي من ذلك فهو ما يلقيه في قلوبهم على جهة الحديث؛ فيحصل لهم من ذلك علم بأمر ما، وهو الذي تضمنه ذلك الحديث، وإن لم يكن كذلك فليس بوحي ولا خطاب، فإن بعض القلوب يجد أصحابها علمًا بأمر ما من العلوم الضرورية عند الناس، فذلك علم صحيح ليس عن خطاب، وكلامنا إنما هو في الخطاب الإلهي المسمى وحيًا، فإن الله تعالى جعل مثل هذا الصنف من الوحي كلامًا، ومن الكلام يستفيد العلم بالذي جاء به ذلك الكلام، وبهذا يفرق إذا وجد ذلك، وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ فهو خطاب إلهي يلقيه على السمع لا على القلب؛ فيدركه من ألقى عليه فيفهم منه ما قصد به من أسمعه ذلك.

وقد يحصل له ذلك في صور التجلي؛ فتخاطبه تلك الصورة الإلهية، وهي عين الحجاب؛ فيفهم من ذلك الخطاب علم ما يدل عليه، ويعلم أن ذلك حجاب، وأن المتكلم من وراء ذلك الحجاب، وما كل من أدرك صورة التجلي الإلهي يعلم أن ذلك هو الله، فما يزيد صاحب هذه الحال على غيره إلا بأن يعرف أن تلك الصورة وإن كانت حجابًا فهي عين تجلي الحق له، وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ فهو ما ينزل به الملك أو ما يجيء به الرسول البشري إلينا إذا نقلا كلام الله خاصة مثل التالي قال تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، وقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، وقوله تعالى: ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل:٨] فإن نقلا علمًا أو إفصاحًا عنه، ووجداه في أنفسهما فذلك ليس بكلام إلهي.

وقد يكون الرسول والصورة معًا، وذلك في نفس الكتابة، فالكتاب رسول، وهو عين الحجاب على المتكلم؛ فيفهمك ما جاء به ولكن لا يكون ذلك إذا كتب ما علم، وإنما يكون ذلك إذا كتب عن حديثه يخاطبه به تلك الحروف التي يسطرها، ومتى لم يكن كذلك

---

(١) رواه الطيالسي في «مسنده» (١/ ٣٥٣).

فما هو كلام هذا هو الضابط فاللقاء للرسل والإلقاء للخبر الإلهي بارتفاع الوسائط من كونه كلمه لا غير، والكتابة رقوم مسطرة حيث كانت لم تسطر إلا عن حديث ممن سطرها إلا عن علم، فهذا كله من الخطاب الإلهي لصاحب هذا المقام.

وأما علم الترجمة عن الله فذلك لكل من كلمة الله في الإلقاء والوحي فيكون المترجم خلافًا لصور الحروف اللفظية أو المرقومة التي يوجدها، ويكون روح تلك الصور كلام الله لا غيرها، فإن ترجم عن علم فما هو مترجم لابد من ذلك يقول الولي: حدثني قلبي عن ربي، وقد يترجم المترجم عن ألسنة الأحوال وليس من هذا الباب بل ذلك من باب آخر يرجع إلى عين الفهم بالأحوال، وهو معلوم عند علماء الرسوم، وعلى ذلك يخرجون قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤] يقولون: يعني بلسان الحال، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب:٧٢] فجعلوا هذه الإبابة والإشفاق حالاً لا حقيقة، وكذلك قوله عنهما: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١] قول حال لا قول خطاب، وهذا كله ليس بصحيح، ولا مراد في هذه الآيات بل الأمر على ظاهره كما ورد، هكذا يدركه أهل الكشف، فإذا ترجموا عن الموجودات فإنما يترجمون عما تخاطبهم به لا عن أحوالهم، إذ لو نطقوا لقالوا هذا، وأصحاب هذا القول انقسموا على قسمين فبعضهم يقول: إن كان هذا وأمثاله نطقًا حقيقة وكلامًا فلابد أن يخلق في هؤلاء الناطقين حياة وحينئذٍ يصح أن يكون حقيقة، وجائز أن يخلق الله فيهم حياة ولكن لا علم لنا بذلك أن الأمر وقع كما جوّزناه، أو هو لسان حال.

فأما أصحاب ذاك القول فكذا وقع في نفس الأمر؛ لأن كل ما سوى الله حيّ ناطق في نفس الأمر، فلا معنى للأحوال مع هذا عند أهل الكشف والوجود.

وأما القسم الآخر هم الحكماء فقالوا: إن هذا لسان حال ولابدّ؛ لأنه من المحال أن يحيا الجماد، وهذا قول محجوب بأكثف حجاب، فما في العالم إلا مترجم إذا ترجم عن حديث إلهيّ؛ فافهم ذلك.

وأما تعين المراتب لولاة الأمر فهو العلم بما تستحقه كل مرتبة من المصالح التي خلقت لها؛ فينظر صاحب هذا العلم في نفس الشخص الذي يريد أن يوليه، ويرفع الميزان بينه وبين المرتبة، فإذا رأى الاعتدال في الوزن، ومن غير ترجيح لكفة المرتبة ولاه، وإن رجح الوالي فلا يضره، وإن رجحت كفة المرتبة عليه لم يوله؛ لأنه ينقص عن علم ما رجحه، فيجوز بلا شك. وهو أصل الجور في الولاة: ومن المحال عندنا أن يعلم ويعدل عن حكم علمه جملة واحدة، وهو جائز عند علماء الرسوم. وعندنا هذا الجائز ليس بواقع

في الوجود، وهي مسألة صعبة؛ ولهذا يكون المهدي يملؤها قسطًا وعدلاً كما ملئت جورًا وظلمًا يعني: الأرض، فإن العلم عندنا يقتضي العمل ولابد وإلا فليس بعلم.

وإن ظهر بصورة علم المراتب ثلاثة، وهي التي ينفذ فيها حكم الحاكم، وهي: الدماء، والأعراض، والأموال؛ فيعلم ما تطلبه كل مرتبة من الحكم الإلهي المشروع، وينظر في الناس فمن رأى أنه جمع ما تطلبه تلك المرتبة نظر في مزاج ذلك الجامع فإن رآه يتصرف تحت حكم العلم أنه عاقل فولاه، وإن رآه يحكم على علمه وأن علمه معه مقهور تحت حكم شهوته وسلطان هواه لم يوله مع علمه بالحكم.

قال بعض الملوك لبعض جلسائه من أهل الرأي والنظر الصحيح حين استشاره فقال له: من ترى أن أولي أمور الناس؟ فقال: ول على أمور الناس رجلاً عاقلاً، فإن العاقل يستبرئ لنفسه، فإن كان عالمًا حكم بما علم، وإن لم يكن عالمًا بتلك الواقعة ما حكمها حكم عليه عقله أن يسأل عالمًا، فإذا عرفه حكم فيها.

فهذا فائدة العقل، فإن كثير ممن ينتمي إلى الدين والعلم الرسمي تحكم شهوتهم عليهم، والعاقل ليس كذلك، فإن العقل يأبى إلا الفضائل؛ فإنه يقيد صاحبه عن التصرف فيما لا ينبغي، ولهذا سمى عقلاً من العقال.

وأما الرحمة في الغضب فلا يكون ذلك إلا في الحدود الموضوعة والتعزيرات، وما عدا ذلك فغضب ليس فيه من الرحمة شيء، ولذلك قال أبو يزيد البسطامي – قدس سره: بطشي أشد؛ لمّا سمع القارئ يقرأ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج:١٢].

فإن الإنسان إذا غضب لنفسه فلا يتضمن ذلك الغضب رحمة بوجه، وإذا غضب الله فغضبه غضب الله، وغضب الله لا يخلص عن رحمة إلهية تشوبه، فغضبه في الدنيا ما نصبه من الحدود والتعزيرات، وغضبه في الآخرة ما يقيم من الحدود على من يدخل النار فهو وإن كان غضبًا فهو تطهير لما شابه من الرحمة في الدنيا والآخرة؛ لأن الرحمة لما سبقت الغضب في الوجود عمت الكون كله ووسعت كل شيء، فلما جاء الغضب في الوجود وجد الرحمة قد سبقته ولابد من وجوده، فكان مع الرحمة كالماء مع اللبن إذا شابه وخالطه فلم يخلص الماء من اللبن كذلك لم يخلص الغضب من الرحمة؛ فحكمت على الغضب؛ لأنها صاحبة المحل فينتهي غضب الله في المغضوب عليهم، ورحمة الله لا تنتهي.

وأما المهدي لا يغضب إلا لله فلا يتعدى في غضبه إقامة حدود الله التي شرعها بخلاف من يغضبه لهواه ومخالفة غرضه، فمثل هذا الذي يغضب لله لا يمكن أن يكون إلا عادلاً ومقسطًا لا جائرًا ولا قاسطًا.

وعلامة من يدعي هذا المقام إذا غضب لله وكان حاكمًا وأقام الحد على المغضوب

عليه يزول عنه الغضب على ذلك الشخص عند الفراغ منه، وربما قام إليه وعانقه وآنسه، وقال له: أحمد الله الذي طهرك، وأظهر له السرور والبشاشة، وربما أحسن إليه بعد ذلك هذا ميزانه، فيرجع في حق ذلك المحدود رحمة كله.

وربما أحسن إليه عقيب ذلك، فإن بقي له الغضب على المحدود بعد أخذ حق الله منه فهو غضب نفس وطبع أو لأمر في نفسه لذلك المحدود ما هو غضب لله؛ فلذلك لا يأجره الله، فإنه ما قام في ذلك مراعاة لحق الله، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١] فابتلاهم أوّلاً بما كلفهم، فإذا عملوا ابتلى أعمالهم، هل عملوها لخطاب الحق أو عملوها لغير ذلك؟ وهو قوله ﷻ أيضًا: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٩].

وهذا ميزانه عند أهل الكشف فلا يغفل الحاكم عند إقامة الحدود عن النظر في نفسه، وليحذر من التشفي الذي يكون للنفوس، ولهذا نُهي عن الحكم في حال غضبه، ولو لم يكن حاكمًا في حق من ابتلي بإقامة حد عليه؛ فإن وجد لذلك تشفيًا؛ فيعلم أنه ما قام في ذلك لله، وما عنده فيه خير من الله، وإذا فرح بإقامة الحد على المحدود إن لم يكن فرحه لما سقط عنه في ذلك الحد في الآخرة من المطالبة، وإلا فهو معلول؛ فإن غير الحاكم ما عين الله له إقامة الحد عليه، فلا ينبغي أن يقوم به غضب عند تعدي الحدود.

فليس ذلك إلا للحكام خاصة ولرسول الله ﷺ من حيث ما هو حاكم، فلو كان مبلغًا لا حاكم لم يقم به غضب على من ورد دعوته، فإنه ليس له من الأمر شيء وليس عليه هداهم، فإن الله يقول في هذا للرسول ﷺ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨] وقد بلغ فأسمع الله من شاء وأصم من شاء.

فهم أعقل الناس – أعني: الأنبياء- وإذا كوشف الداعي على من أصمه الله عن الدعوة فما سمعها لم يتغير لذلك، فإن الصالح إذا نادى من قام به الصمم، وعلم أنه لم يسمع نداءه لم يجد عليه وقام عذره عنده، فإن كان الرسول حاكمًا تعين عليه الحكم بما عين الله له فيه، وهذا علم شريف يحتاج إليه في كل والٍ في الأرض على العالم.

وأما علم ما يحتاج إليه الملك من الأرزاق، فهو أن يعلم أصناف العالم، وليس إلا اثنان، وأعني بالعالم الذي يمشي فيهم حكم هذا الإمام، وهم عالم الصور وعالم الأنفس المدبرون لهذه الصور فيما يتصرفون فيه من حركة أو سكون، وما عدا هذين الصنفين فما له عليهم حكم إلا من أراد منهم أن يحكمه على نفسه كعالم الجان، وأما العالم النوراني فهم خارجون عن أن يكون للعالم البشري عليهم تولية فكل شخص منهم على مقام معلوم عينه له ربه فما يتنزل إلا بأمر ربه فمن أراد تنزيل واحد منهم؛ فيتوجه في ذلك إلى ربه، وربه يأمره ويأذن له في ذلك إسعافًا لهذا السائل، أو ينزله عليه ابتداء.

وأما السائحون منهم فمقامهم المعلوم كونهم سياحين يطلبون مجالس الذكر، فإذا وجدوا أهل الذكر وهم أهل القرآن الذاكرون القرآن فلا يقدمون عليهم أحدًا من مجالس الذاكرين بغير القرآن، فإذا لم يجدوا ذلك ووجدوا الذاكرين الله لا من كونهم تالين قعدوا إليهم، ونادى بعضهم بعضًا: هلموا إلى بغيتكم، فذلك رزقهم الذي يعيشون به، وفيه حياتهم، فإذا علم الإمام ذلك لم يزل يقيم جماعة يتلون آيات الله آناء الليل والنهار.

وقد كنا بفاس من بلاد المغرب قد سلكنا هذا المسلك لموافقة أصحاب موفقين كانوا لنا سامعين وطائعين، وفقدناهم ففقدنا لفقدهم هذا العمل الخالص، وهو أشرف الأرزاق وأعلاها، فأخذنا لما فقدنا مثل هؤلاء في بث العلم من أجل الأرواح الذين غذاؤهم العلم، ورأينا ألا نورد شيئًا منه إلا من أصل هو مطلوب لهذا الصنف الروحاني وهو القرآن، فجميع ما نتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه، أعطيت مفتاح الفهم فيه والإمداد منه، وهكذا كله حتى لا يخرج عنه، فإنه أرفع ما يمنح ولا يعرف قدره إلا من ذاقه، وشهد منزلته حالاً من نفسه، وكلمه به الحق في سره؛ فإن الحق إذا كان هو المكلم عبده في سره بارتفاع الوسائط، فإن الفهم يستصحب كلامه منك فيكون عين الكلام منه عين الفهم منك، لا يتأخر عنه، فإن تأخر عنه فليس هو كلام الله، ومن لم يجد هذا فليس عنده علم بكلام الله عباده، فإذا كلمه بالحجاب الصوري بلسان نبي أو من شاء الله من العالم فقد يصحبه الفهم، وقد يتأخر عنه هذا هو الفرق بينهما.

وأما الأرزاق المحسوسة فإنه لا حكم له فيها إلا في بقية الله، فمن أكل مما خرج عن هذه البقية يأكل من يد هذا الإمام العادل، وليس مسمى رزق الله في حق المؤمنين إلا بقية الله، وكل رزق في الكون من بقية الله، وما بقي إلا أن يفرق بينهما، وذلك أن جميع ما في العالم من الأموال لا يخلو ما أن يكون لها مالك معين فهي لجميع المسلمين؛ فجعل الله لهم وكيلاً هذا الإمام يحفظ عليهم ذلك، فهذا من بقية الله الذي زاد على المال المملوك، فكل رزق في العالم بقية الله، إن عرفت معنى بقية الله فما زيد بقية الله لزيد لما حجر الله عليه التصرف في مال عمرو بغير إذنه، ومال عمرو بقية الله لعمرو لما حجر عليه التصرف في مال زيد بغير إذنه، فما في العالم رزق إلا هو، وبقية الله، فيحكم الإمام فيه بقدر ما أنزل الله من الحكم فيه، فاعلم ذلك.

فالناس على حالتين: اضطرار وغير اضطرار، فحال الاضطرار يبيح قدر الحاجة في الوقت، ويرفع عنه حكم التحجير، فإذا نال ما يزيلها به رجع عليه حكم التحجير، فإن كان المضطر قد تصرف فيما هو ملك لأحدٍ تصرف فيه بحكم الضمان في قول، وبغير ضمان في قول، فإن وجد أداه عند القائل بالضمان، وإن لم يجد فإمام الوقت يقوم عنه في ذلك من

بيت المال، وإن كان المتصرف قد تصرف فيما لا يملكه أحد أو يملكه الإمام بحكم الوكالة المطلقة من الله فلا شيء عليه لا ضمان ولا غيره.

وهذا علم يتعين المعرفة به على إمام الوقت لابد منه فما تصرف أحد من المكلفين بالوجه المشروع إلا في بقية الله ﷻ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود:٨٦].

وهو حكم فرعي، وإنما الأصل أن الله خلق لنا ما في الأرض جميعًا ثم حجر وأبقى فما أبقاه سماه: بقية، وما حجر سماه: حرامًا، أي: المكلف ممنوع من التصرف فيه حالاً أو زمانًا أو مكانًا مع التحجير، فإن الأصل التوقف عن إطلاق الحكم فيه بشيء، فإذا جاء حكم الله فيه كنا بحسب الحكم الإلهي الذي ورد به الشرع إلينا، فمن عرف هذا عرف كيف يتصرف في الأرزاق.

وأما علم تداخل الأمور بعضها على بعض، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [الحج:٦١] فالمولج ذكر، والمولج فيه أنثى، هذا الحكم له مستصحب حيث ظهر فهو في العلوم العلم النظري، وهو في الحس النكاح الحيواني والنباتي، وليس شيء من ذلك مراد لنفسه فقط بل هو مراد لنفسه ولما ينتجه، ولولا اللحمة والسدى ما ظهر للشبه عين، وهو سار في جميع الصنائع العملية والعلمية، فإذا علم ذلك لم تدخل عليه شبهة في أحكامه.

وهذا هو الميزان الموضوع في العالم في المعاني والمحسوسات، والعاقل يتصرف بالميزان في العالمين بل في كل شيء له التصرف فيه.

وأما الحاكمون بالوحي المنزل، أهل الإلقاء من الرسل وأمثالهم فما خرجوا عن التوالج، فإن الله جعلهم محلاً لما يلقى إليهم من حكمه في عباده، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٣،١٩٤]، وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل:٢].

فما ظهر حكم في العالم من رسول إلا عن نكاح معنوي لا في النصوص، ولا في الحاكمين بالقياس، فالإمام يتعين عليه علم ما يكون بطريق التنزيل الإلهي، وبين ما يكون بطريق القياس. وما يعلمه المهدي – أعني: علم القياس- ليحكم به وإنما يعلمه ليتجنبه، فما يحكم المهدي إلا بما يلقي إليه الملك من عند الله الذي بعثه الله إليه ليسدده، وذلك هو الشرع الحقيقي المحمدي، الذي لو كان محمد ﷺ حيًا ورفعت إليه تلك النازلة لم يحكم فيها إلا بما يحكم هذا الإمام، فيعلمه الله أن ذلك هو الشرع المحمدي، فيحرم عليه القياس مع وجود النصوص التي منحه الله إياها؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ في صفة المهدي عليه السلام:

«يقفو أثري لا يخطئ». فعرفنا أنه متبع لا متبوع، وأنه معصوم ولا معنى للمعصوم في الحكم إلا أنه لا يخطئ، فإن حكم الرسول لا ينسب إليه خطأ؛ فإنه لا ينطق عن الهوى، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٤]، كما أنه لا يسوغ القياس في موضع يكون فيه الرسول ﷺ موجودًا، وأهل الكشف النبي عندهم موجود، فلا يأخذون الحكم إلا عنه، ولهذا الفقير الصادق لا ينتمي إلى مذهب إنما هو مع الرسول الذي هو مشهود له، كما أن الرسول مع الوحي الذي ينزل عليه فينزل على قلوب العارفين الصادقين من الله التعريف بحكم النوازل أنه حكم الشرع الذي بعث به رسول الله ﷺ.

وأصحاب علم الرسوم ليست لهم هذه المرتبة لما أكبوا عليه من حب الجاه والرئاسة والتقدم على عباد الله، وافتقار العامة إليهم، فلا يفلحون في أنفسهم، ولا يفلح بهم، وهي حالة فقهاء الزمان الراغبين في المناصب من قضاء وشهادة وحسبة وتدريس، وأما المتمون منهم بالدين فيجمعون أكتافهم، وينظرون إلى الناس من طرف خفي نظر الخاشع، ويحركون شفاههم بالذكر ليعلم الناظر إليهم أنهم ذاكرون، ويتفيهقون في كلامهم ويتشدقون، ويغلب عليهم رعونات النفس، وقلوبهم قلوب الذئاب، لا ينظر الله إليهم، هذا حال المتدين منهم لا الذين هم قرناء الشيطان لا حاجة لله بهم، لبسوا للناس جلود الضأن من اللين، إخوان العلانية، أعداء السريرة، فالله يراجع بهم، ويأخذ بنواصيهم إلى ما فيه سعادتهم.

وإذا خرج هذا الإمام المهدي فليس له عدو مبين إلا الفقهاء خاصة؛ فإنهم لا تبقى لهم رئاسة، ولا تمييز عن العامة، ولا يبقى لهم علم بحكم إلا قليل، ويرتفع الخلاف من العالم في الأحكام بوجود هذا الإمام، ولولا أن السيف بيد المهدي لأفتى الفقهاء بقتله، ولكن الله يظهره بالسيف والكرم؛ فيطمعون ويخافون، فيقبلون حكمه من غير إيمان بل يضمرون خلافه، كما يفعل الحنفيون والشافعيون فيما اختلفوا فيه، فلقد أخبرنا أنهم يقتتلون في بلاد العجم أصحاب المذهبين، ويموت بينهما خلق كثير، ويفطرون في شهر رمضان ليتقووا على القتال، فمثل هؤلاء لولا قهر الإمام المهدي بالسيف ما سمعوا له ولا أطاعوه بظواهرهم، كما أنهم لا يطيعوا له بقلوبهم، بل يعتقدون فيه أنه إذا حكم فيهم بغير مذهبهم أنه على ضلالة في ذلك الحكم؛ لأنهم يعتقدون أن زمان أهل الاجتهاد قد انقطع، وما بقي مجتهد في العالم، وأن الله لا يوجد بعد أئمتهم أحدًا له درجة الاجتهاد.

وأما من يدعي التعريف الإلهي بالأحكام الشرعية فهو عندهم مجنون فاسد الخيال لا يلتفتون إليه، فإذا كان ذا مال وسلطان انقادوا في الظاهر إليه رغبةً في ماله وخوفًا من سلطانه، وهم ببواطنهم كافرون به.

وأما المبالغة والاستقصاء في قضاء حوائج الناس فإنه متعين على الإمام خصوصًا دون جميع الناس، فإن الله ما قدمه على خلقه ونصبه إمامًا لهم إلا ليسعى في مصالحهم، هذا والذي ينتجه هذا السعي عظيم، وله في قصة موسى ﷺ لما مشى في حق أهله ليطلب لهم نارًا يصطلون بها، ويقضون بها الأمر الذي لا ينقضي إلا بها في العادة، وما كان عنده عليه خبر بما جاءه فأنتج له ذلك الطلب أن كلمه الله تعالى في عين حاجته وهي النار في الصورة، ولم يخطر له ﷺ ذلك الأمر بخاطر، وأي شيء أعظم من هذا، وما حصل له لا في وقت السعي في حق عياله ليعلمه بما في قضاء حوائج العائلة من الفضل فيزيد حرصًا في سعيه في حقهم؛ فكان ذلك تنبيهًا من الحق تعالى على قدر ذلك عند الله تعالى وعلى قدرهم؛ لأنهم عبيده على كل حال.

وقد وكل هذا على القيام بهم كما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤] فأنتج له الفرار من الأعداء الطالبين قتله الحكم والرسالة، كما أخبر الله تعالى من قوله ﷺ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:٢١]، وأعطاه السعي على العيال وقضاء حاجاتهم كلام الله، وكله سعي بلا شك، فإن الفار أتى في فراره بنسبة حيوانية فرت نفسه من الأعداء طلبًا للنجاة وإبقاء للملك، والتدبير على النفس الناطقة، فما سعى بنفسه الحيوانية في فراره إلا في حق النفس الناطقة المالكة تدبير هذا البدن.

وحركة الأئمة كلهم العادلة إنما تكون في حق الغير لا في حق أنفسهم، فإذا رأيتم السلطان يشتغل بغير رعيته وما يحتاجون إليه فاعلموا أنه قد عزلته المرتبة بهذا الفعل، ولا فرق بينه وبين العامة.

ولما أراد عمر بن عبد العزيز ﷺ يوم ولي الخلافة أن يقيل راحة لنفسه لما تعب من شغله بقضاء حوائج الناس دخل عليه ابنه فقال له: يا أمير المؤمنين، أنت تستريح وأصحاب الحاجات على الباب! من أراد الراحة لا يلي أمور الناس، فبكى عمر وقال: الحمد لله الذي أخرج من ظهري من ينبهني، ويدعوني إلى الحق، ويعينني عليه، فترك الراحة وخرج إلى الناس.

وكذلك الخضر واسمه: يليا بن ملكان بن فالغ بن غابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ﷺ كان في جيش فبعثه أمير الجيش يرتاد لهم ماء، وكانوا قد فقدوا الماء فوقع بعين الحياة فشرب منه فعاش إلى الآن، وكان لا يعرف ما خص الله به من الحياة شارب ذلك الماء، ثم عاد إلى أصحابه فأخبرهم بالماء؛ فسارع الناس إلى ذلك الموضوع ليستقوا منه فأخذ الله أبصارهم عنه فلم يقدروا عليه، فهذا ما أنتج له سعيه في حق الغير، وكذلك من

والى في الله، وعادى في الله، وأحب في الله، وأبغض في الله، فهو من هذا الباب، قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

فما يدري أحد ما لهم من المنزلة عند الله؛ لأنهم ما تحركوا ولا سكنوا إلا في حق الله لا في حق أنفسهم، إيثارًا لجناب الله على ما يقتضيه طبعهم.

وأما الوقوف على علم الغيب الذي يحتاج إليه في الكون خاصة في مدة خاصة، وهي تاسع مسألة ليس وراءها ما يحتاج إليه الإمام في إمامته، وذلك أن الله تعالى أخبر عن نفسه إنه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] والشأن ما يكون عليه العالم ذلك اليوم، ومعلوم أن ذلك الشأن إذا ظهر في الوجود عرف أنه معلوم لكل من شهده.

فهذا الإمام من هذه المسألة له اطلاع من جانب الحق على ما يريد الحق أن يحدثه من الشئون قبل وقوعها في الوجود؛ فيطلع في اليوم الذي قبل وقوع ذلك الشأن على ذلك الشأن، فإن كان مما فيه منفعة لرعيته شكر الله وسكت عنه، وإن كان مما فيه عقوبة بنزول بلاء عام أو على أشخاص معينين سأل الله فيهم وشفع وتضرع؛ فصرف الله عنهم ذلك البلاء برحمته وفضله، وأجاب دعاءه وسؤاله؛ فلهذا يطلعه الله عليه قبل وقوعه في الوجود بأصحابه.

ثم يطلعه الله في تلك الشئون على النوازل الواقعة من الأشخاص، ويعين له الأشخاص بحليتهم حتى إذا رآهم لا يشك فيهم إنهم عين ما رآه، ثم يطلعه الله على الحكم المشروع في تلك النازلة الذي شرع الله لنبيه محمد ﷺ أن يحكم به فيها، فلا يحكم إلا بذلك الحكم فلا يخطئ أبدًا، وإذا أعمى الله الحكم عليه في بعض النوازل ولم يقع له عليه كشف كان غايته أن يلحقها في الحكم بالمباح، ويعلم بعدم التعريف أن ذلك حكم الشرع فيها؛ فإنه معصوم عن الرأي والقياس في دين الله بما لا يعلم؛ فإنه طرد علة وما يدريك لعل الله لا يريد طرد تلك العلة، ولو أرادها لأبان عنها على لسان رسوله ﷺ وأمر بطردها.

هذا إذا كانت العلة مما نص الشرع عليها في قضية، فما ظنك بعلة يستخرجها الفقيه بنفسه ونظره من غير أن يذكرها الشرع بنص معين فيها، ثم بعد استنباطه إياها يطردها، فهذا تحكم على تحكم بشرع لم يأذن.

وهذا يمنع المهدي من القول بالقياس في دين الله ولاسيما وهو يعلم أن مراد النبي

ﷺ التخفيف في التكليف عن هذه الأمة، ولذلك كان يقول ﷺ: «اتركوني ما تركتم»[1].

وكان يكره السؤال في الدين خوفًا من زيادة الحكم، فكل ما سكت له عنه ولم يطلع على حكم فيه معين جعله عاقبة الأمر فيه الحكم بحكم الأصل، وكل ما أطلعه الله عليه كشفًا وتعريفًا فذلك حكم الشرع المحمدي في المسألة، وقد يطلعه الله في أوقات على المباح أنه مباح وعافية، فكل مصلحة تكون في حق رعاياه يطلعه الله عليها ليسأله فيها، وكل فساد يريد الله أن يوقعه برعاياه فإن الله يطلعه عليه ليسأل الله في رفع ذلك عنهم؛ لأنه عقوبة كما قال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

فالمهدي رحمة كما كان رسول الله ﷺ رحمة، قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٧] والمهدي يقفوا أثره لا يخطئ؛ فلابد أن يكون رحمة كان رسول الله ﷺ يقول لما جرح: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»[2] يعتذر لربه عنهم، ولما علم أنه بشر وأن أحكام البشرية قد تغلب عليه في أوقات دعا ربه فقال: «اللهم إنك تعلم أني بشر أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر»[3] يعني: أغضب عليهم، وأرضى لنفسي «اللهم من دعوت عليه فاجعل دعائي عليه رحمة له ورضوانًا»[4].

فهذه تسعة أمور لم تصح لإمام من أئمة الدين خلفاء الله ورسوله بمجموعها إلى يوم القيامة إلا لهذا الإمام المهدي كما أنه ما نص رسول الله ﷺ على إمام من أئمة الدين يكون بعده يرثه ويقفو أثره لا يخطئ إلا المهدي خاصة، فقد شهد بعصمته في أحكامه كما شهد الدليل العقلي بعصمة رسول الله ﷺ فيما يبلغه عن ربه من الحكم المشروع له في عباده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل» انتهى كلام الشيخ في الإمام المهدي الخاتم في «الفتوحات المكية»[5].

ثم اعلم أن الشيخ ﷺ قال في مصنفه المسمى بـ «عنقاء المغرب»[6] إثبات الإمامة على الإطلاق من غير اختلاف: «اعلم أن الإمامة هي المنزلة التي يكون فيها متبوعًا، وكلامه

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٥٨).

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٢٨٢)، ومسلم (٣/ ١٤١٧).

(٣) رواه مسلم (٤/ ٢٠٠٩).

(٤) رواه ابن فضيل في «الدعاء» (٧)، وابن راهويه في «مسنده» (١/ ٢٧٥)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٣٣٧).

(٥) في (٥/ ٣٧٠).

(٦) في (ص ٩٢).

مسموعًا، وعقده لا يحل، وضرب مهنده لا يفل، فإذا هم مضى، ولا يراد لما به قضى حسامه مصلت، وكلامه مصمت، لا يجد المعترض مدخلاً إليه، وإن رام اعتراضًا عوقب عليه، وقد أثبتها سبحانه كبرى وأكبر وصغرى وأصغر، فأي منزلة كانت صغرت أو كبرت، جلت أو قلت، فإن الطاعة فيها من المأمور واحدة، والمخالفة لها فاسدة، إذ قد وقع التساوي في الطريقة والاشتراك في الحد والحقيقة.

وحكم الإمام على قسمين لما كان الإمام إمامين: ناطق ومضمن نطقًا، وصادق ومودع صدق كالإمام الذي هو الكتاب الصحيح الذي يشهد له بالتصريح؛ فيحكم عليك الكتاب بما شاء كيف يشاء؛ ولذلك قال الصادق المختار: «فيسبق عليه الكتاب فيدخل النار»[1].

وكل ملك لا يكون فيه إمام متبع، فعمّا قريب ينخرب ذلك الملك ويتصدع، ولهذا لو توافرت دواعي كل أمة إلى اتخاذ الأئمة، وهكذا جرت الحكمة الإلهية والنشأة الربانية؛ فقال الحكيم الخبير: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤] كل أمة على حسب ما تعطى حقيقتها وتقبل رقيقتها؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] فألحق البهائم بالأمم، وحكم بذلك، وأعم، وكل أمة في أفقها ناطقة، وفي أوجها عاشقة، فليس في الوجود جماد ولا حيوان إلا ناطق بلسان، لسان ذات لا لسان حال، والقائل بخلاف هذا قائل محال، فالحجب كثيفة، والمعاني لطيفة، فلو كشف الغطاء، وزال الاستبطاء ولرأيت كل ذات مسبحة في جنسها، ناطقة في نفسها ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤] موف بعهده، ألا ترى المؤذن يشهد له مدى صوته، فهذا قد عرفنا بحقيقته لغته، وكلام الميت يسمعه كل حيوان ما عدا الأنس والجان.

وفي كل أمة من هذه الأمم نذير من جنسها على حسب نفسها، ولابد من اتخاذ الإمام المتبع في الشيء الذي قدم له واتبع، فإن نازعه آخر هلك، وبقي الأول على ما ملك إلا إن ظهر منه نقص في شروط الإمامة، ولم يثبت فيه العلامة فليعزل من وقته كل مقته، وليقدم في تلك المنزلة من كانت فيه الشروط على العقد المربوط فإمام الأئمة كلها هاديها ومضلها ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

فقد قرن الفساد بالاشتراك، وقال: إن بها يقع الهلاك؛ فلابد من اتخاذه في حكم بلاده، فلا سبيل إلى منازعته، ولا مدخل إلى مطالبته، إلا كما ذكرت لك من كمال الشروط واستيفائها، والوفاء بالحقوق وأدائها، وإمام الصلاة إمام فيها على أركانها ومبانيها، فإذا

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١١٧٤)، ومسلم (٣/ ١٣١٧).

ركع فاركعوا، وإذا سجد فاسجدوا، ومن رفع قبل الإمام فناصيته بيد الشيطان، وكذلك القاضي إمام فيما نصب إليه، والقائد إمام فيما قدم عليه، و«كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته»(١).

وكل إنسان إمام في بيته وبنيته، والإمام الأكبر المتبع الذي إليه النهاية والمرجع، وتنعقد عليه أمور الإمامة أجمع، فكل إمام لا يخالف في إمامته إذا ظهر بعلامته، وكل إمام تحت أمر هذا الإمام الكبير، كما أنه تحت قهر القاهر القدير، فهو الآخذ عن الحق، والمعطي بحق في حق، فلا تخذلوه وانصروه، ووقروه وعزروه؛ فإنه إلى هذه المنزلة الشريفة الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠].

ولما وقع الاعتراض عليه جعل المعترضين سجدًا بين يديه فاختص بجزي الأبد مَن أبى عن السجود حين بادر من امتثل الأمر وسجد، وكفى بهذا شرفًا للإنسان، فكيف إذا انضاف إلى هذا كونه على صورة الرحمن، فله الفضل على جميع الوجود بالصورة والسجود، فبالصورة صحت له الإمامة، وبالسجود صحت له العلامة حين شهد الحق له أنه علامة.

ولما كان الأمر على هذا الترتيب، وأعطت الحكمة هذا التقديم كذلك هذه النشأة الإنسانية والنكتة الربانية فيها أئمة كما فيها أئمة أمة فوق أمة إذا كان أم الكتاب وحضرة اللباب، والروح الفكري إمام، والروح العقلي إمام، والروح المصور إمام، والروح الخيالي إمام، والروح الوهمي إمام، والحواس أئمة، ولكل إمام من هذه الأئمة أمة، والإمام الأكبر، والنور الأزهر، والقلب المقدم على عالم الشهادة والغيب وهو الروح القدسي، والإمام القدسي، وإليه أشار ﷺ بقوله: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهو القلب»(٢).

فإن كان صالحًا فروح قدسي، وإن كان غير ذلك فشيطان غوي، فالرعية على دين الإمام سواء في عالم البسائط أو في عالم الأجسام، وإمام الإنسان قال فيه الرحمن: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي»(٣).

حين ضاق عنه حمل تجليه الأرض والسماء، واستحال عليهما الاتصاف بالأسماء فصار قلب العارف بيت حق، ومقصد صدق، فقد ثبت الإمام جمعًا، وأتى الناس إليها كرهًا وطوعًا.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (١/ ٢٨)، ومسلم (٣/ ١٢١٩).

(٣) ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٦٥)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ١٢٩).

واعلموا أن المبايعة لا تقع إلا على الشرط المشروط، والعقد الوثيق المربوط كل مبايع على قدر عزمه، ومبلغ علمه، وقد يبايع شخص على الإمامة وفي غيره تكون العلامة؛ فتصح المبايعة على الصفات المعقولة لا على هذه النشأة المجهولة، فيمد عند تلك المبايعة للخليفة الناقص في ظاهر الحس الخليفة المطلوبة يده من حضرة القدس، فتقع المبايعة عليها من غير أن ينظر بصر إليها، ولذلك يقع الاختلاف في الإمام المعين لا في وصف المبين، فقل خليفة تجمع القلوب عليه، ولاسيما إن اختل ما بين يديه فقد صحت المبايعة للخليفة، وفاز بالرتبة الشريفة، وإن توجه اعتراض إلى القلوب المراض المنعوتة بالأمراض، ولما كان الحق تعالى الإمام الأعلى والمتبع الأولى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

ولا ينال هذا المقام الأجسم بعد النبي المصطفى الأعظم الأختم إلا ختم الأولياء الأطول الأكرم، وإن لم يكن من بيت النبي فقد شاركه في النسب العلوي، فهو راجع إلى بيته الأعلى لا بيته الأدنى.

نكتة الشرف في: غرف من فوقها غرف

وكان ولي - وفقه الله- يقول قولاً قياسًا شهادةً وإحساسًا لم يكن الختم من بيته، ومستخرجًا من نسبته حتى يكون الشرف بالنسب أكمل، وأتم للمنصب الشريف وأفضل، ولو كحل هذا القائل عينه، وتحقق أينه، ورأى سلمان ﷺ ملحقًا بأهل البيت لعرف أن المراد ليس في البيت.

فمن شرفِ النبيّ على الوجودِ ... ختامُ الأولياءِ من العقود
من البيتِ الرفيعِ وسَاكِنيه ... من الجنسِ المعظم في الوجودِ
وتبينُ الحقائقِ في ذراها ... وفضلُ الله فيه من الشهودِ
لو أنّ البيت يبقى دون ختمٍ ... لجاء اللصُّ يفتكُ بالوليد
فحقّق يا أخي نظرًا إلى مَن ... حمى بيتَ الولايةِ من بعيدِ
فلولا ما تكوّنَ من أبينا ... لما أمرت ملائكة السجودِ
فذاك الأقدسيّ إمام نفسي ... يُسمى وهو حيٌّ بالشهيد
وحيدُ الوقتِ ليس له نظيرٌ ... فريدُ الذاتِ من بيتِ فريد

لقـــد أبـــصرته حــتمًا كـــريمًا بمـــشهدِه عـــلى رغـــمِ الحـــسودِ
كـــما أبـــصرت شـــمس البيـــتِ منـــه مكـــانَ الخلـــقِ مـــن حبـــلِ الوريـــد
لـــو أنّ النـــورَ يـــشرقُ مـــن ســـناه عـــلى الجـــسمِ المغيـــبِ في اللحـــودِ
لأصـــبح عالمًـــا حيًّـــا كليـــمًا طليـــقَ الوجـــه يرفـــلُ في الـــبرود
فمَـــن فهـــم الإشـــارة فليـــصنها وإلا ســـوف يلحـــقُ بالـــصَّعيد
فنـــورُ الحـــقِّ لـــيس بـــه خفـــاءٌ عـــلى الأفـــلاكِ مـــن سَـــعد الـــسُّعودِ
رأيـــتُ الأمـــر لـــيس بـــه تـــوانٍ ســـواءٌ في هبـــوطٍ أو صـــعودِ
نطقـــتُ بـــه وعنـــه ولـــيس إلا وإنّ الأمـــر فيـــه عـــلى المزيـــد
وكـــوني في الوجـــودِ بـــلا مكـــانٍ دليـــلٌ أننـــي ثـــوبُ الـــشهيد
فـــما وســـعَ الوجـــودُ جَـــلال ربّي ولكـــنْ كـــان في قلـــبِ العميـــدِ
أردتُ تكـــتمًا لمـــا تجـــارى إليـــه النكـــر مـــن بـــيضٍ وَســـودِ
وهـــل يخـــشى الـــذئابَ عليـــه مـــن قـــد مـــشى في القفـــرِ مـــن خفَـــر الأسُـــودِ
وخاطبـــتُ النفيـــسةَ مـــن وجـــودي عـــلى الكـــشفِ المحقـــقِّ والوجـــودِ
أبعـــد الكـــشف عنـــه لكـــل عـــينٍ جحـــدتْ وكيـــف ينفعنـــي جُحـــودي
فـــردَّتْ في الجـــوابِ عـــليَّ صِـــدقًا تـــضرَّعَ للمهـــيمنِ والـــشهيد
وسَـــله الحفـــظَ مـــا دامَ التلقّـــي وسَـــله العـــيشَ للـــزَّمنِ بالـــسعيد
ســـألتك يـــا علـــيم الـــسر متـــى عـــصامًا في المـــودة بـــالورودِ
وأنْ تُبقـــي عـــليَّ رداء جـــسمي بكعبـــتِكم إلى يـــومِ الـــصُّعودِ
وأن تخفـــي مكـــاني في مكـــاني كـــما أخفيـــت بأسَـــكَ في الحديـــدِ
وتـــستر مـــا بـــدا منـــي اضـــطرارًا كـــسترِكَ نـــورَ ذاتِـــك في العبيـــد

وأن تبـــدي عـــليَّ شـــهودَ عجـــزي بتـــــوفيتي مواثيـــــقَ العهـــــود

وسيبدو لك أمره، ويتضح لك سره، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤] فتخلق بالسميع البصير، وتحقق بالعجز والتقصير، فلنذكر الآن نسختك من هذا الخليفة البيتي الإمام، ثم أختم نسختك من ختم الأولياء الكرام، وبالختم يكون الختام.

فصل: ولما تكلمنا على الشرف النبوي الأجلى من طريق البيت الأعلى حتى نستوفيه في آخر الكتاب من غير اختصار ولا إسهاب، ولكن بيسير ألفاظ جزئية تدل على معانٍ كلية.

فصل: كذلك للإنسان نسبتان، وله في العالم منصبان، فأشرف نسبه وأعلى منصبه أن ينتسب للحق لا لوالديه، وأن يقيم سره أبدًا خُديمًا بين يديه، فإذا صحت له هذه المرتبة، وفاز بأعلى درجة القربة، وتصرف على سماع الإذن المتعال صح له النسب العالي، فكان إذ ذاك عبد الله لا ابن فلان، وإمامًا يقتدي به الثقلان.

فصل: ولما قدمنا شرف البيت الأعلى إذ كان الأسَدَّ والأولى أردنا أن تتميز الرتب بالأخذ في شرف النسب الذي يتعلق به الورث الحسي، والغرض النفسي.

فصل: وكذلك صح التقدم لعالم غيب الإنسان على ما فيه من نسب الحيوان، فهو محركه ومصرفه ومنبهه ومعرفه، ولكن احتجب عن أكثر الناس عالم غيبهم بما ظهر، فلذلك حرموا اكتساب اللآلئ، واقتناء الدرر، وحيل بينهم وبين الأسرار، وضرب بينهم وبين مطلع الأنوار بظل هذا الجدار، وإن كان له وجود شريف وسر لطيف سأنبهك عليه، وأندبك إليه، وأعرفك أن الورث ورثان، لما كان العالم عالمين، فالورث الأعلى في عالمه الأجلى ورث أسرار وتجليات أنوار، والورث الأدنى في العالم الأدنى ورث استخلاف على أمصار، وتعبد أحرار.

فصل: ولما كانت الشمس لابد لها من تحول مطلعها، وتبدل موضعها، كذلك لابد من طلوع شمس حقك على ظاهر خلقك.

واعلم أن الشمس لم تزل جارية من المغرب إلى المشرق بنفسها كما لم تزل جارية من المشرق إلى المغرب بغيرها غير أن البصر قاصر، واللب حائر، فلابد لها يومًا أن تظهر حركتها وتعطي بركتها، فمن جاء أجله المسمى ولم تغفر حوبته فقد أغلق باب توبته، وطلعت شمسه من المغرب، ولا ينفعه إيمان ذلك الوقت ما لم يكن آمن من قبل وهو قوي مستبصر، فإن الله تعالى يقبل توبة عبده ما لم يغرغر.

فصل: ولما كان هذا الأمر هو الكنز الخفي بالبحر الغربي أشار إلى أن القلب هو

مقعد الصدق، ومحل أسرار الحق، وهو البحر المحيط، والمعبر بالعالم البسيط عنه، تكون المركبات، ومنه تصدر الحركات والسكنات».

وفي سياق هذه التحقيقات أشار الشيخ ﷺ إلى أسرار لطيفة فليطلب ثمة.

ثم قال - قدس الله سرَّه-: **نكتة تمام الأنباء في تعيين ختم الأولياء**

وهو النسب الأعلى الذي تقدم ذكره في نكتة الشرف: جهل مَن جهل، وعرف من عرف.

ولما أشار من إشارته علم وطاعته غنم، وهو الذي يلقي الأمور، ويشرح الصدور، أن أنبه على تعيين هذه النكتة، وأن تأتي كالساعة بغتة، وذلك لتوفير داعية من أذن واعية، فلابد من بسطها، وحل ما قوي من ربطها، وما ذكر الله تعالى في كتابه في هذا الختم من الأسرار، وما ورد عن النبي ﷺ من الأخبار، وورد الأمر بأن أذكر من الكتاب العزيز مقاماته وآياته، ونلغز إيضاح أسمائه وصفاته.

فاعلم - أيدك الله بكلمه، ووهبك معالم حكمه، وأوضح لك سر قدسه- أن الختم الذي يحمل لواء الولاية، ويكون المنتهى للمقام والغاية أنه قد كان ختمًا لا يعرف، وكان له الأمر لا يرد ولا يصرف في روحانية متجسدة، وفردانية متعددة، ختم أمرًا جسميًا فاستتر، وختم أمرًا مقاميًا فظهر، وإن ظهر بعده ولي فليس له المقام العلي، فإنه من جملة أتباعه وصحابته وأشياعه، ألا ترى الأمر الإلهي قد حكم، ونفذ تقديره وختم، فصير من كان نبيًّا عندما بعث ﷺ وليًّا بحسن الاستماع وحكم الاتباع، والتحق بالأمة، وكان من بعض أطوار القيامة كذا جرى الحكم في هذا الولي الآتي بهذا الختم العلي، فليس الختم بالزمان، وإنما هو باستيفاء مقام العيان، وإن كان لابد أن يقارن حركة فلك فهي زمانه ووقته وأوانه، فينسب إلى الزمان من هذا الجانب، وهكذا أمره في سائر المراتب.

إفصاح الكتاب العزيز بمقاماته، والإعلام بأحواله وآياته

واعلم أن الله تعالى ذكر هذا الختم المكرم، والإمام المتبوع المعظم، حامل لواء الولاية وخاتمها، وإمام الجماعة وحاكمها، وأنبأ به سبحانه في مواضع كثيرة من كتابه العزيز تنبيهًا عليه، وعلى مرتبته؛ ليقع التمييز، فإن الإمام المهدي المنسوب إلى بيت النبي ﷺ لما كان إمامًا متبوعًا، وآمرًا مسموعًا ربما اشتبهت على الدخيل صفاتهما، واختلطت عليه آياتهما.

وأما عيسى ﷺ فلا يقع في آياته اشتراك، فإنه نبي بلا ريب ولا ارتباك.

ولما كان الختم والمهدي كل واحد منهما ولي ربما وقع اللبس، وحصل التعصب لدواعي النفس، فلهذا الأمر الكبار ما نبه عليه أهل البصائر والأبصار، وأما العوام فليس لنا معهم كلام، ولا لنا بساحتهم إلمام؛ فإنهم تابعون لعلمائهم، مقتدون بأمرائهم، والأمراء

والعلماء يعرفون ويقتفون أثره، ويتبعونه حتى أن عيسى عليه السلام ليدركه ويشهد له بين الأنام، والإمام الأعظم والختام لمقام الأولياء الكرام، وكفى بعيسى عليه السلام شهيدًا، وإن وراءكم له عقبة كئود، لا يقطعها إلا من ضمر بطنه، وسهل حزنه، فموضع نبه عليه سبحانه أنه سيظهر على أوليائه، وينصر على أعدائه، فاعلم هذا.

فصل: يحتوي على مولده، ونسبه، ومسكنه، وقبيلته، وما يكون من أمره إلى حين موته، واسمه، واسم أبويه مما تضمنه نص القرآن الصحيح، والخبر الوارد الصريح، فأما القرآن فتضمن ذكره، وذكر أخيه، وأما الخبر فتضمن ذكره دون أخيه إلا في موضع واحد فذكره مع متبعيه، وتتبعت مواضع التنبيهات عليه، والتنصيص في القرآن فوجدته كثيرًا لكن على تقاسم القرآن.

فمنها في «البقرة» موضعان، علاماته ومكانته وآياته.

وفي «آل عمران» أربعة مواضع، الاعتناء به قبل وجود عينه، وتقدم شرفه قبل كونه، وآثاره الحميدة، وأفعاله المشهورة، وإلحاقه بالنقص والحط والحل بعد الشد والربط، ومسكنه الذي لا تغيره الذاريات، ولا تجهله التاليات، أوجب التصديق به خالقه، وأودعه في الشرع وائقه.

وفي «النساء» أربعة مواضع، التحق بعضها بصاحب النور، وتنزه في ذاته عن قول الزور، ومناجاته مع إخوانه، وجولاته في ميدانه أفرده بالصدق في نطقه مناسبة بينه وبين خلقه، جاء حرف تنبيه، لا حرف لتبعيض فأبانه، وأظهر للعقول السليمة منزلته ومكانته، ثم ذكره بما دلَّ عليه أبو يزيد – قدس سره - في مناجاته بأسماء التوحيد، وشاركه في بعض ما أوضح الأسماء صاحب سورة الإسراء.

وفي «المائدة» في ثمانية مواضع، علمه الراسخ، ومنصبه الشامخ، ونوره الأوضح، وسره الأفصح، ونصحه، وتخويفه، وتحريضه، وتخصيصه بالأنقص بصريح النص لتكميل علمه، وتنقيح فهمه، خاطب الحق عباده على مقوله، كما فعل بأنبيائه ورسله، وذكره بالأفعال المغيبة في العين، ورده من عالم البقاء إلى عالم نفس الكون، وتعلق بسيطه الأعلى من المقامات العلا، فألحق بالسفلى، وبالعدول عن الطريق المثلى اتحد سرُّه بربه تعشقًا لانسلاخ زمان قربه، فأراد الرجوع على مدرجه، والسلوك على منهجه، فنودي في الأعيان، في عرصات الكيان بلسان الشرك، والبراءة من الإفك؛ فوحد واستشهد، وسجد للواحد الأحد.

وفي «الأنعام» موضع رتقه رتقًا لا يفتق، وجعله خلقًا لا يخلق. وفي «براءة» موضع لما وقف على حقيقة شرف نفسه. ولـ«طه» بما يسره من جنسه. وفي «مريم» موضعان، توج

فساد، وأخمد نار العناد. وفي «الأنبياء» موضع، زكى فتزكى، ونوْدي فلم يتلكأ.

وفي «المؤمنون» تشام فربع، وأخصب ورتع. وفي «الصافات» عرض بأخيه مع جملة بنيه. وفي «الشورى» موضع مهد له السبيل، وعرف أسباب التنزيل. وفي «الزخرف» موضع نبه على مقامه تنبيهًا لا يرد ببرهان لا يصد. وفي «الحديد» موضع الحق تاليًا، ولم يصح متلوًّا، فكان صديقًا وليًّا؛ فإن النبي هو المتلو لا التالي، والولي هو المولى عليه ليس الوالي. وفي «الصف» موضعان، قبل عنه، فقال: ورد دينه فزال المظان. وفي «التحريم» حرم، وأقرَّ له بالمقام وسلم، وأما الخبر الصحيح في مثل البخاري ومسلم، فانظروا إلى ما أشار إليه ابن بطال، وصاحب كتاب معلم إلى غير ذلك من الآيات البينات.

وأما النبي محمد ﷺ فإنه اجتمع به في الأرض التي خُلق منها آدم ﷺ، وفي هذه الأرض من العجائب ما يعظم سماعه، ويكبر استبشاعه، وقد ذكرت هذه الأرض وما فيها من الغرائب في كتاب أفردته لها سميته بـ«كتاب الإعلام بما خلق الله تعالى من العجائب في الأرض التي خلقت من بقية طينة آدم ﷺ».

واعلموا أن زمانه أربع من صورة العقود الأول على حسب ما خط له في الأزل، فكان العام الأول كشهر، والعام الثاني كجمعة، والعام الثالث كيوم، والعام الرابع كساعة، وما بقي من الأعوام كخطرات الأماني والأوهام، وإنه زائل عن مرتبته بختمه، وظاهر بعلم غيره لا بعلمه، وجارٍ في حكمه على خلاف حكمه، ولولا ظهوره بهذا العلم، وحكمه بهذا الحكم ما صح له مقام الختم، ولا ختمت به ولاية، ولا كملت به هداية، وإن له حشرين، ولصبحه فجرين، ولوجهه نورين، وفي حفظه علمين، وله عالمين يشركهما في حكم، ويخص أحدهما بحكم، فهو صاحب حكمين، وهو من العجم لا من العرب، آدم اللون، أصهب أقرب إلى الطول منه إلى القصر، كأنه البدر الأزهر، اسمه: عبد الله، وأما اسمه الذي يختص به فلا يظهر فيه إعراب ولا ينصرف في صناعة الإعراب، أوله عين اليقين، وآخره قيومية التمكين، ونصفه دائرة الفلك من جهة النصف الذي هلك، لا يدعي اسم سواه، ولا يعرف أباه، إن وقف قلت سرولة، وإن مشى مشى بين السعي والهرولة، مرضي القول، مشكور الفعل، وهو هذا فاعلمه [.....][1].

بهذا قد أوضحت لك فيه الدليل، ومهدت لك السبيل، وأغلقت عليك بالنص باب التأويل، وعينته لك باسمه ونسبه [.....][2].

وسره الشريف ومنصبه، وأن الصديق الأكبر تحت لوائه، وأن سيد الأولياء كما أن

---

(١) كلام غير واضح بالمخطوط.

(٢) كلام غير واضح بالمخطوط.

سيدنا سيد الأنبياء، وإن شئت أن أوضحه لك في العدد، وأقسم لك بهذا البلد، أنها للسيد الصمد، فانظره في ثلاثين عددًا، وكن لشيطان جهلك شهابًا رصدًا، وإن لم تقف على التفسير فعن قريب يأتيك بقميصه فيكشف كروبك ويرد بصيرًا يعقوبك، وهو شق في خلقه، وسطر من جهة خلقه وحقه، فانظر هناك تجده إياك.

وأما الختم في حق الإنسان فهو عبارة عن المقام الذي ينتهي بك إليه، ويوقف بك لديه، وكل سالك حيث وصل، ومقامه حيث نزل، فلا يتعين فيوقف عنده، ولا تظهر المعارف لنا حده، ولكن ختم المقامات التوحيد وأسرار الوجود في مزيد.

اللؤلؤة اللاحقة بالياقوتة السابعة

ولما كانت القطوف دانية في انعطاف القرون الثالثة المتوالية، وكان قطف فوق قطف، وعطف فوق عطف، وانتهى الأمر، وقيل: ما بقي خير ولا ضير، واستمسكوا بحديث النبي ﷺ حين بلغهم عنه: «أنه ما ينقضي زمان إلا ويأتي شر منه»[1] وغفلوا عن القرن الرابع الآتي بعد الثلاثة التابع الذي هو زمن المهدي، والخاتم الولي، ونزول عيسى عليه السلام وذلك أنه لما انتهت القرون الثلاثة ودخل صفر ظهر الفساد في البشر، وتوالت أدوار النحوس في الأكبر إلى أن دخل رجب الفرد المحلق بأول الثلاثة السرد، والتحق بأصحابه وتميز بأترابه، والتحمت القرون بظهور السر المصون، ولما كان ذو الحجة وسط الثلاثة المحرمة، وكان من أعظم الشهور المعظمة شهر رمضان التبعات والمغفرة لأهل عرفات، فهو الأول بالفضيلة، وهو الوسط بالدورة الزمانية، والحكمة الاصطلاحية فخذ روحانيته في التقديم، وذلك من باب الحكمة لا التحكيم، فهو الأول، وإن كان وسطًا ولم أقل في ذلك شططًا ثم لما كان الترحيب والتعظيم التحق الآخر بصاحب التقديم، وهو الأصب الأصم الملحق بالثلاثة الحرم، لكن أقوي ما تقوم عليه الحجة إلحاقه في التعظيم بذي الحجة، وقد يكون الآخر بالجسم، يتقدم على الأول في الحكم، ألا ترى النبي ﷺ مؤخرًا في النشأة الدنياوية، مقدمًا في النشأة الأخراوية، وإذا صح التقدم فالتساوي أحرى، وبهذا أشار من جرى هذا المجرى، ألا ترى نص رسول الله ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم: «للعامل منهم أجر سبعين منكم، فقالوا: بل منهم، فقال: بل منكم»[2] وأكّد بالعطف التفاضل في النطف.

فانظر إلى عظيم هذا البذل، وعميم هذا الفضل، فإن احتج عليك الخصم الضعيف بمفاضلة المُدّ والنصيف، فاعلم أن للمفاضلة أبوابًا، وأن لها عند المفضل أسبابًا إذ هي راجعة إلى الزيادة والنقص بالحكم الاصطلاحي والنص فقد فضل الواحد صاحبه بتكليم الله له، وفضله الآخر بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وإذ قد صح القول وتبين

(١) روى البخاري ما يدل على ذلك (٤/ ١٧٢٧).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٤١)، وذكره ابن الحاج في «المدخل» (٥/ ٤٣)، بنحوه.

التساوي فقد فضلونا من غير الجهة التي بها فضلناهم، وعرفونا بغير الدليل الذي عرفناهم، وقد يقع الاشتراك بيننا في الصفة، ويجتمع في بعض مراتب المعرفة، فإذا تحققت هذا التفضيل فقد فتح لك في التفضيل، وساغ لك التأويل.

ولما كان ذو الحجة أوان الفضل والتعيين حملنا ما بعده من الشهور على المئين من السنين، فكان طلوع بعد انقضاء الخاء من حروف الهجاء، وكان ميلاده بعد انقضاء الضاد والباء بعد ميلاد الإنشاء، وانتظام الأجزاء، ولعل الناقد يدخل السابع في العلم، فقل له: ذلك أوان الحكم في دولة العز بظهوره، وعند انقضائه وجود ختم أوليائه عند فناء العدد الوتر المذكور في الشعر، وهو قوله:

وكنتُ به لفردٍ بعدَ ستٍ لعامِ العقدِ قوَّامًا عليما

واعلم أن الشيخ ﷺ قدر في هذا الكتاب ظهور الإمام المهدي الهمام، ونزول عيسى عليه السلام، وبين فيه علامات بزوغ زمانهما، وأمارات بزوغ أوانها بعبارات بديعة، وإشارات بريقة، وعين اسمهما ونسبهما ومكانتهما، وما يكون من أمرهما إلى حين موتهما بالنصوص التي وجدها في سور القرآن، وبأحاديث النبي عليه صلوات الله الرحمن.

ولكن أسس بنيان بيانه برسم الحروف المرموزة التي هي عن العموم مكتومة، لا يعرفها إلا من عرف هذه الأسرار المختومة، ولاسيما أكثر الناسخين أخطئوا، وغلطوا في رسم أشكالها؛ فوقع الإشكال في استخراجها، فجاء الشيخ العارف الفاضل الكامل عبد الرحمن ابن الحسن الشافعي الحلبي - رحمه الله- حرر له شرحًا موضحًا في حل معضلاته، وسماه بـ«إظهار المختوم عنه السر المكتوم المودع في عنقاء مغرب» فمن أراد أن ينكشف له قناع النصوص التي وجدها الشيخ في آي القرآن وأحاديث النبي- عليه صلوات الله المنان- وإني أوردت بعض تلك المقالة في هذه المجموعة، وألحقت ما يناسب لسياقها سياق هذه الخاتمة نسأل الله تعالى من محض فضله ورحمته أن يغفر لنا، ويختم نسمتنا بحسن الخاتمة بحرمة خاتم الرسالة والنبوة، عليه من رب العزة ألف صلاة وتحية.

وأما ختم الخاتمة ففي ذكر بعض أحوال الشيخ الأكبر ومنقبته، وعلو مكانته

اعلم أن الشيخ ﷺ ولد في مرسية من بلاد الأندلس، ليلة الجمعة سابع عشرين، وقيل: ليلة الاثنين سابع عشرين من شهر رمضان المبارك، لسنة ستين وخمسمائة، ونشاء بها إلى أن انتقل إلى إشبيلية سنة ثمان وستين وخمسمائة، ثم سافر ودخل بلاد الشرق، وطاف البلاد مصر والشام وحلب وديار بكر والموصل وخراسان، ودخل بغداد مرتين، مرة أقام بها اثني عشر يومًا، ومرة دخلها حاجًا، وسافر إلى بلاد الروم، وسكن بلدة قونية، وتزوج

بوالدة الشيخ صدر الدين محمد بن إسحاق بن يوسف القونوي ﷺ صاحب «العلوم اللدنية والأسرار الربانية» ببركات تربية الشيخ ﷺ، وعلى يده نجزت.

ثم انتقل الشيخ إلى مكة - شرفها الله تعالى- وجاور بها، وصنف فيها تصانيف كثيرة أعظمها كتابه المسمى بـ«الفتوحات المكية» منه ما يعقل ويعرف، ومنه ما لا يعقل ولا يعرف، ثم انتقل إلى دمشق، وصنف بها كتبًا كثيرة أجودها كتابه المسمى بـ «فصوص الحكم».

وتوفي بدمشق الليلة الثانية والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة، ودفن بمقبرة القاضي محيي الدين الزَّكي بصالحية دمشق بسفح جبل قاسيون، فيكون مجموع مدة عمره سبعة وسبعين سنة وستة أشهر وخمسة وعشرين يومًا قدس الله سره، ونور الله رمسه، ونفعنا الله ببركاته في الدنيا والآخرة.

وقال الشيخ الإمام عبد الله اليافعي - روح الله روحه- في تاريخه حاكيًا عن الشيخ شمس الدين الذهبي - رحمه الله- حافظ الشام، وصاحب «تاريخ الإسلام» لما ذكر الشيخ قال في ترجمته: هو الشيخ الإمام الزاهد، الولي، بحر الحقائق والفنون، ذو العلوم المفيدة، التصانيف السعيدة، أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي الحاتمي الطائي الأندلسي الملقب بالمحيي المعروف بابن العربي كان طودًا في العلوم أسطحه راسخ، وأوجهه شامخ لم يكن فيها نظير، ولا في عصره شبيه، انتقل إلى بلاد الروم بعد حجته، وتزوج بأم القطب، قطب الوقت الشيخ صدر الدين محمد بن إسحاق القونوي صاحب العلوم اللدنية والأسرار الربانية وعلى يده تخرج، وكان من أعيان أصحابه المختصين بجنابه، وقد أتهم بأمر عظيم، أعني: الشيخ محيي الدين العربي ﷺ، وما أظن أن الشيخ محيي الدين يتعمد الكذب أصلاً. انتهى كلام الذهبي الذي حكاه الإمام اليافعي رحمهما الله.

ثم قال الإمام اليافعي: قلت الأمر العظيم الذي اتهم به الشيخ الأكمل محيي الدين ﷺ فهو أنه ذكر في ديباجة الفصوص ما هذا ترجمته: «أما بعد، فإني رأيت رسول الله ﷺ في مُبشِّرة أُرِيتُها في العشر الآخِر من محرم سنة سبع وعشرونَ وستمائة بمحروسة دمشق، وبيده ﷺ كتاب، فقال لي: هذا «كتاب فصوص الحكم» خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منا كما أُمِرْنَا؛ فحقَّقْتُ الأمنية، وأخلصت النيَّة، وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب كما حدَّه لي رسول الله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان؛ وسألت الله تعالى أن يجعلني فيه وفي جميع أحوالي من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطانٌ، وأن يَخُصَّني في جميع ما يرقُمُه بَنَانِي، وينطق به لساني،

وينطوي عليه جَناني بالإلقاء السُّبُوحي والنَّفْث الروحي في الرُّوع النفسي بالتأييد الاعتصامي؛ حتى أكون مترجمًا لا متحكمًا، ليتحقق مَن يقف عليه من أهلِ الله أصحاب القلوبِ أنه من مقام التقديس المنزَّه عن الأغراض النفسية التي يدخلها التلبيس، وأرجو أن يكون الحق لَمَّا سمع دعائي قد أجاب ندائي؛ فما أُلقي إلا ما يُلقِي إليَّ، ولا أُنزل في هذا المسطور إلاَّ ما ينزِّل به عليَّ، ولست بنبيٍّ رسول ولكنِّي وارث، ولآخرتي حارث». انتهى كلام الشيخ ﷺ.

وأخذ الجمهور في تهمة الشيخ محيي الدين ﷺ إذ لم يجدوا سبيلاً في طعن الرؤيا؛ لأنه يقتضي القبول، فطعنوا في الرائي، فقال فيه بعض العارفين: لعمري، ما أنصفوا؛ لأنهم لم يعرفوه؛ لأن الشيخ ﷺ كان يجتمع بالنبي ﷺ وبمن شاء من المنتقلين إلى الدار الآخرة متى شاء من ليل أو نهار.

هكذا ذكر صدر الدين القونوي - قدس سرَّه- قال في «فكوك الفصوص»: وجربت مرارًا، وكان يشهد الاستعدادات التي للناس جزئياتها وكلياتها، ويشهد نتائجها، وما سمو كل استعداد منها إلى منتهى كل إنسان بخصوصيته، ينظر بها إلى الشخص أي شخص كان، والاستطراق على كنه حاله، وما يستقبله إلى حين مستقره في مرتبة نقصه وكماله، ثم يخبر ولا يخطئ، شاهدت ذلك منه في غير واحد، وفي غير قضية من القضايا الإلهية في الأمور الكونية، واطلعت بعد فضل الله ببركته على سر القدر، وبجند الحكم الإلهي على الأشياء، فبشرني بالإصابة في الحكم بعد ذلك فيما أحكم به؛ لهذا الاطلاع، ونيل ما يتعلق الإرادة بوقوعه بموجب هذا الكشف الأعلى، فلم ينخرم الأمر عليَّ، ولم ينسخ هذا الحكم، والحمد لله المنعم المفضل المكرم. انتهي كلام الشيخ صدر الدين قدس سره في «فكوك الفصوص».

ثم قال اليافعي - رحمه الله-: وللشيخ محيي الدين تصانيف كثيرة في التصوف، وفي سائر العلوم، وأشعار لطيفة، وأخبار غريبة، وأكثر ما طعن الطاعنون في كتابه المسمى بـ«فصوص الحكم»، وقدم الإمام شيخ الإسلام كمال الدين الزملكاني شرحه شرحًا شافيًا، وبينه بيانًا كافيًا، ووجهه توجيهًا وافيًا.

وأخبرني بعض العلماء الصالحين أن كلام الشيخ محيي الدين له تأويل بعيد، ومذهبي فيه التوقف، وقال محيي الدين أبو الفرج بن الجوزي في «تاريخه»: هو الشيخ الإمام العالم الفاضل الكامل، شيخ زمانه، وفريد عصره، وإذا فيه لم يوجد له نظيره في العلوم الشرعية والحقيقية وغير ذلك من فنون العلوم، وله تضايف كثيرة، وتواليف غزيرة لم ينسج على منوالها ناسج، وكان يحفظ الاسم الأعظم، ويكفي أنه يعلم الكيمياء بطريق

المنازلة لا بطريق الكسب، وللناس فيه أقوال كثيرة، ومذهبي فيه التوقف، والله أعلم بشأنه.

قال فيه بعض من العرفاء: ما أنصف فيه ابن الجوزي بقوله: يعلم الاسم الأعظم، إذ كان بذا الاسم الأعظم، فإن الإنسان إذا كمل صار الاسم الأعظم، إذا المراد من الاسم الأعظم سرعة الإجابة، وقد ذكر صدر الدين القونوي في «النصوص» - بالنون- أن الشيخ محيي الدين ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ في مبشرةٍ، فقال لي: يا محمد، إن الله سبحانه أسرع أجابتك من دعائك إياه.

وقال أيضًا هذا العارف: وما أنصف ابن الجوزي في قوله: إنه يعلم الكيمياء عند أرباب الصناعة قلب الأعيان حتى ينقلب الرصاص فضة والنحاس ذهبًا بواسطة الإكسير، وقد كان ﷺ إكسير زمانه، طالما انقلب بإرشاده أعيان الأعيان من خساسة الحيوان إلى نفاسة الإنسان، كما قيل:

الكيميـــــا بتحقيـــــق وعرفـــــان ... بتبـــديل أخـــلاق حيـــوان بإنـــسان

فـــإن يكـــن غـــير هـــذا ضـــيعت عمـــــ ... ــــرك في تقطـــير مـــاء وتـــصعيد نـــيران

واعترض أيضًا بعض العارفين على من قال في الشيخ: ومذهبي فيه توقف، وقال: العجب في شأن هؤلاء العلماء الأعلام، كيف توقفوا في مثل هذا الهمام بعدما وصفوه بالإجلال والإعظام والإكرام والاحترام التام، إذ ما منهم إلا مَن أقر بولايته، واعترف بكرامته ومكانته، فما هذا بعد ذلك التعريف؟! وما هذا الإنكار بعد ذلك الإقرار؟! وهل بعد الجنة إلا النار؟!

إنما هم في ذلك كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ في الذين تخلفوا عنه وعن معاوية ﷺ: ما قاموا مع الحق، ولا قعدوا بالباطل.

وأما الفرقة الأخرى هم الذين لم يوطنوا الأشياء مواطنها، ووقفوا مع ظواهرها، وتركوا بواطنها، فلا حاجة إلى الاستشهاد بالآيات البنيات على قبائحهم بالأحاديث الصحيحات على فضائحهم، إذ القرآن مشحون بهتك أستارهم، والحديث مخزونٌ لكشف أسرارهم؛ لأن البراهين القاطعة، والحجة الساطعة مسلطة على الظواهر بغير لبس، والأمر عند العلماء الراسخين بالعكس، والحكم المعتاد مطرد بين الإنسان لكل قوم لسان واعتبار، واصطلاح في سيرهم تفردوا وتميزوا به عن غيرهم، فإذا سمعوا مَن لم يكن منهم أنكرهم، وربما أداه الجهل إلى أن كفرهم، ولا يلزم من أن يكون لزيد لسان واصطلاح لا يفهمه عمرو أن يكون ذلك باطلاً في نفسه.

وهذه الفرقة نبهها الله من سِنتها، وأيقظها من غفلتها، كما قيل:

وَكَم مِن عائِبٍ قَولاً صَحيحًا وَآفَتُهُ مِنَ الفَهمِ السَقيمِ

فليتهم إذ لم يعرفوا اعترفوا، وإذا اعترفوا أنصفوا، ولكنهم كما قال حجة الإسلام الإمام محمد الغزالي ﷺ: كصخرة في فم الوادي، فما هي شربت الماء ولا تركت غيرها يشرب، وما أحسن ما قال بعض المشايخ: إذا عجزت عن شيء، فلا تعجز عن رؤية العجز والتقصير.

أما مصنفات الشيخ ﷺ فهي تزيد على خمسمائة مصنف، فقد ذكر الشيخ في رسالة كتبها لبعض المديرين، فقال فيها: قد سألني بعض الأخوان أن أقيد مصنفات في علم الحقائق والأسرار على طريق التصوف وفي غير هذا الفن، فقيدت له - وفقه الله تعالى- إلا أن بعض هذه الكتب إن طلبت فهي قليلة؛ لأني كنت قد أودعتها لشخص لأمر طرأ فلم يردها عليَّ ذلك الشخص، ومنها كمل وهو الأكبر، ومنها لم يكمل وهو الأقل، وما قصدت في كل ما ألفته مقصد المؤلفين ولا التأليف، وإنما كانت ترد عليَّ من الحق نوادر يكاد العقول تحترق منها، فكنت أتشاغل عنها بتقييد ما يمكن منها، فخرجت مخرج التأليف لا من حيث القصد، ومنها ألفته عن أمر إلهي يأمرني الحق سبحانه وتعالى في واقعة أو مكاشفة، ثم ذكر ﷺ الكتب التي صنفها إلى حين سؤال السائل، وصنف ﷺ بعد ذلك تصنيفات كثيرة.

وقال ﷺ في «الفتوحات المكية» في الباب الثالث والسبعين وثلاثمائة في معرفة ثلاثة أسرار: «فالعلم الإلهيّ هو الذي كان سبحانه معلمه بالإلهام والإلقاء وبإنزال الروح الأمين على قلبه، وهذا الكتاب من ذلك النمط عندنا فوالله ما كتبت منه حرفًا إلا عن إملاء إلهيّ، وإلقاء رباني أو نفث روحاني في روع كياني، هذا جملة الأمر مع كوننا لسنا برسل مشرعين ولا أنبياء مكلِّفين بكسر اللام - اسم فاعل- فإن رسالة التشريع ونبوّة التكليف قد انقطعت عند رسول الله محمد ﷺ فلا رسول بعده ﷺ، ولا نبيّ يشرِّع ولا يكلف، وإنما هو علم وحكمة وفهم عن الله فيما شرعه على ألسنة رسله وأنبيائه عليهم سلام الله، وما خطه وكتبه في لوح الوجود من حروف العالم وكلمات الحق، فالتنزيل لا ينتهي بل هو دائم دنيا وآخرة.

وإنما قلنا ذلك لئلا يتوهم متوهم أني وأمثالي ادعي نبوة، لا والله ما بقي إلا ميراث وسلوك على مدرجة محمد رسول الله ﷺ خاصة، وإن كان للناس عامة ولنا ولأمثالنا خاصة من النبوة ما أبقى الله علينا منها مثل: المبشرات، ومكارم الأخلاق، ومثل حفظ القرآن إذا استظهره الإنسان؛ فإن هذا وأمثالها من أجزاء النبوة الموروثة».

وقال في بيان وزراء المهدي في «الفتوحات»: «فجميع ما نتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه، أعطيت مفتاح الفهم فيه والإمداد منه».

فإذا عرفت هذا فلنذكر بعض مصنفاته ﷺ فمنها:

في التفسير: «التفسير الصغير» في ثمانية مجلدات. و«التفسير الكبير» المشتمل على تسعة وتسعين مجلدًا إلى سورة الكهف، وهو كفى مصنفِه. وكتاب: «الجمع والتفصيل في أسرار عالم التنزيل»، قال ﷺ في شأنه: أكملت إلى سورة «مريم»، وجاء بديعًا في شأنه، وما أظن على البسيطة مَن نزع في القرآن ذلك المنزع، وذلك إلى رتبت الكلام فيه كل آية على ثلاث مقامات: مقام الجلال أولاً، ثم مقام الجمال ثانيًا، ثم مقام الاعتدال، وهو البرزخ من حيث الورث الكامل المحمدي، وهو مقام الكمال، وآخذ الآية من مقام الجلال والهيبة، وأتكلم عليها حتى أردها إلى المقام بألطف إشارة، وأحسن عبارة، ثم آخذ تلك الآية بعينها فأتكلمْ عليها من مقام الجمال، وهو يقابل المقام الأول حتى أردها إلى المقام كأنها إنما أنزلت في ذلك خاصة، ثم آخذ تلك الآية بعينها فأتكلم عليها في مقام الكمال بكلام لا يشبه الوجهين المتقدمين في هذا المقام. أتكلم على ما فيها من أسرار الحروف الكبار والحروف الصغار التي هي الحركات، والسكون الحي، والسكون بالميت إن كان فيها شيء من ذلك والنسب والإضافات والإشارات وما أشبه ذلك، وإذا فرغت من ذلك انتقلت إلى الآية التي تجاورها، وما فيه كلمة لأحد أصلاً إلا إن كان استشهادًا وهو قليل.

وكتاب: «المثلثات الواردة في القرآن»، مثل قوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٦٨] ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:١١٠]. وكتاب: «المسبعات الواردة في القرآن»، مثل قوله تعالى: ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف:٤٣] و﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ﴾، و﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت:١٢]، و﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة:١٩٦]. وكتاب: «إيجاز البيان من الترجمة عن القرآن».

وأما تصانيفه في الأحاديث الشريفة فمنها: كتابه المسمى بـ«مختصر المسند الصحيح لمسلم بن الحجاج». وكتاب: «مختصر مصنف ابن عيسى الترمذي». وكتاب: «المصباح في الجمع بين الصحاح». وكتاب: «مفتاح السعادة» جمع فيه بين متون مسلم والبخاري وبعض أحاديث الترمذي. وكتاب: «الحديث العالي» لم يشترط ﷺ فيه الصحة. وكتاب: «كنز الأبرار فيما روي عن النبي المختار ﷺ في الأوعية والأذكار». وكتاب: «مشكاة الأنوار فيما روي عن الله سبحانه من الأخبار». وكتاب: «الأربعين المتكاملة». وكتاب: «الأربعين الطوال».

وأما تصنيفه في أصول الكلام فهو: كتاب: «المعلوم في عقائد علماء الروم». وكتاب: «المعلى باختصار المحلى» لابن الحزم في الفقه. وكتابه: «الحجة البيضاء على طريق الفقهاء» وهي في مجلداتٍ، كبير الحجم.

وأما تصانيفه في علوم الحقائق على لسان أهل التصوف فمنها: كتاب: «مبايعة القطب بحضرة القرب» يحتوي على مسائل جمة من مراتب الأملاك، والمرسلين، والنبيين، والعارفين، والروحانيين. وكتاب: «منهاج الارتقا إلى افتضاض أبكار النقا بجنان اللقا» رتبه على ثلاثمائة باب، في كل باب عشر مقامات، وهي يتضمن ثلاثة ألف مقام. وكتاب: «الكنه الذي لابد للمريد منه». وكتاب: «كشف المعنى عن ستر أسماء الله الحسنى». وكتاب: «الجلاء في أسرار روحانيات الملأ الأعلى». وكتاب: «عقلة المستوفز».

وكتاب: «التدبيرات الإلهية في المملكة الإنسانية». وكتاب: «الإسفار عنه نتائج الأسفار». وكتاب: «التنزلات الموصلية في أسرار الطهارات والصلوات الخمس والأيام المقدرة الأصلية». وكتاب: «إنزال الغيوب على مراتب القلوب». وكتاب: «مشاهدات الأنوار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية». وكتاب: «الأمر المحكم المربوط في معرفة ما يحتاج إليه أهل طريق الله بالشروط». وكتاب: «إنشاء الجداول والدوائر في الرقائق والدقائق والحقائق». وكتاب: «مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم» وهو كتاب غريب، قال الشيخ ﷺ فيه: لم يصنف في ظني مثله. وكتاب: «حلية الأبدال». وكتاب: «المبادئ» يشار فيه أن الإعادة مبدأ، وأن العالم في كل نفس يبدأ. وكتاب: «الحكم والشرائع الصحيحة والسياسة». وكتاب: «الغيب» وكتاب: «الخزائن» وكتاب: «روضة العاشقين». وكتاب: «الأحدية» وهو يتضمن الأحدية والوحدانية والفردانية والوترية، ونفي الكثرة من الوجود العددي. وكتاب: «الهو» وهو يتضمن معرفة الضمان، وإضافات النفس. وكتاب: «الرحمة» يتضمن معرفة التخصيص عنها، والتعميم. وكتاب: «الدرة الفاخرة في ذكر مشايخ المغرب» صنفه الشيخ ببلاد المغرب، ولم يصبحه معه إلى المشرق، فلما ورد الشام اختصره في خاطرة في غير مراجعة إلى الأصل. وكتاب: «المسامرات». وغير ذلك إلى أن تزيد على خمسمائة تصنيف.

وذكر الشيخ ﷺ من تصانيفه كتاب «جلاء القلوب» وقال: اتفق لي في هذا الكتاب عجيبة، وذلك أني لما وضعته أخذ كل واحد من إخواننا كراسة للنظر إليها، وأخذت أنا صدر الكتاب، وكان في نحو عشرين ورقة، فخرجنا إلى خارج البلد مع أصحابنا فعقدنا في ربوة نطالع فيه، وكان من أبدع المصنوعات فلما فرغنا من قراءته وضعناه في الأرض فاختطفت، وما أدري اختطفه الجن أم رجال من البشر ممن يحتجب عن الأبصار، وما

عرفت له خبرًا إلى الآن، وأما بقية الكتاب فما جمعته بعد ذلك وما رد عليَّ شيء منه مما كان في أيديهم فتلف. وهذا كان من شأنه.

ورُوي أن الشيخ لما صنف «الفتوحات المكية» من ظهر قلبه، وضعها بعدما فرغ أجزاءً غير مخيطة ولا مجلدة على سطح الكعبة - شرفها الله تعالى- ولم ينزلها إلا بعد سنة ولم تلعب به الرياح، ولم تبلها الأمطار مع كثرة رياح مكة المشرفة وأمطارها، فعند ذلك ارتفع الالتباس، وكتبها العلماء، وانتشرت بين الناس.

واعلم أن جميع مصنفات الشيخ ﷺ لم تخرج إلى الناس فضاع، وجهل أمر بعضها في حياة الشيخ، وبعضها بعد وفاته - روح الله روحه- فالذي ذكرت منها في هذه الرسالة ترغيبًا للطالبين، وتشويقًا للمحبين.

وحُكي أن مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الصديقي الفيروزآبادي صاحب «القاموس» - رحمه الله- قد وقف إجازة الشيخ كتبها للملك المعظم صاحب دمشق، وقال في آخرها: وأجزت له أن يروي عني مصنفاتي، ومن جملتها كذا وكذا، وعد نيفًا وخمسمائة كتاب، وأنا الفقير الجامع لهذه الرسالة قد رأيت في رسالة التي كتبها من العلماء العارفين أحد تلامذة مجد الدين الفيروزآبادي قال فيها: فتكلم الفقهاء في بعض مصنفات الشيخ لقصور فهمهم لإدراك معانيها، فاستفتى السلطان الأعظم الناصر لدين الله لشيخنا وأستاذنا أقضى قضاة المسلمين مجد الدين محمد الفيروزآبادي ما هذا ترجمته: ما تقول السادة العلماء - شيد الله بهم أزر الدين، ولمّ بهم شعث المسلمين- في الشيخ الأعلم الأكمل محيي الدين ابن العربي في كتبه المنسوبة إليه كـ«الفتوحات المكية»، و«فصوص الحكم» وغير ذلك هل يجوز قراءتها وإقرائها؟ وهل هي من الكتب المسموعة المقروءة أم لا؟ فأفتونا جوابًا شافيًا لتحوز جزيل الثواب من الله الكريم الوهاب.

فأجاب شيخنا أقضي القضاة مجد الدين محمد - رحمه الله- ما هذا ترجمته: اللهم أنطقنا بما فيه مرضاتك، الذي أعتقده من حال المسئول عنه، وأدين الله به أنه كان شيخ الطريقة حالاً وعلمًا، وإمام أهل الحقيقة حقيقةً ورسمًا، ومبين رسوم المعارف فعلاً واسمًا، إذا تغلغل فكر المرء في طرف من بحر مجده غرقت خواطره، عباب لا تكدره الولاء، وسحاب تقاطرت عنه الأنواء، كانت دعوته تخترق السبع الطباق، وتتعرف بركاته فضلاء الآفاق، وأنا أصفه وهو فوق ما وصفته، وغالب ظني بل يقيني بأني ما أنصفته

وما علي إذا ما قلت معتقدي دع الجهول يظن القول عدوانا

بالله، وتالله، ووالله العظيم، وبمن أقامه جهة فينا وبرهانه، إن الذي قلت بعض في

مناقبه ما زدت إلا لعلي زدت نقصانًا، ومن خواص كتبه ومصنفاته أنه من واظب على مطالعتها، والنظر فيها، والتأمل في معاينها، انشرح صدره لحل المشكلات والعضلات، هذا اللسان لا يكون إلا لمن خصَّه الله تعالى بالعلوم اللدنية والمعارف الربانية، ومن جملتها تفسير القرآن في تسعة وتسعين مجلدًا بلغ ﷺ فيه إلى تفسير سورة «الكهف» عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥] فاستأثر الله بها، وتوفي الشيخ الأكمل محيي الدين ولم يكمله، وهذا التفسير كتاب عظيم، كل سفر منه بحر لا ساحل له، ولا عجب في ذلك؛ لأنه صاحب الولاية العظمى، والصديقة الكبرى فيما نعتقد، وندين الله تعالى به.

وثم طائفة من جهلهم وعيهم يبالغون في الإنكار على قطب العارفين إمام الحقيقة والشريعة سيدنا شيخ الشيوخ محيي الدين ابن العربي، وربما بلغ بهم العي والجهل إلى التكفير، وما ذلك إلا لقصور أفهامهم عن درك مقاصد أقواله وأحواله، ولم يبلغ أفهامهم إلى اقتطاف ثمار معانيه؛ فلذلك تكلموا فيه، ولله در القائل:

علي نحت القوافي من معادنها وما علي إذا لم تفهم البقر

هذا الذي نعلم ونعتقده، والله هو المرشد والمسدد، كتبه الملتجئ إلى حرم الله تعالى محمد الصديقي. انتهى جواب شيخنا أقضى القضاة.

ثم عُرض هذا الجواب على السلطان المذكور الناصر لدين الله فاستفتى أبا بكر محمد ابن الخياط المحلاني الجيلي - تاب الله عليه أن كان قد رجع إليه- ما هذا ترجمته: ما يقول الفقيه في الكتب المنسوبة إلى الشيخ محيي الدين العربي كـ«الفتوحات المكية» و«فصوص الحكم» وغير ذلك هل يجوز تعلمها وتعليمها، وإظهارها بين الناس واعتقادها أم لا؟ وهل هي مخالفة للسنة أم من العلوم النافعة؟ فإن شيخنا شيخ الإسلام أقضى القضاة مجد الدين - نفع الله به المسلمين- لما سُئل عن ذلك فأجاب بما يقتضي تفضيل كتب الشيخ محيي الدين ﷺ على ما استمر من كتب العلوم النافعة، ولم يقر ذلك في القلب فأوضح لنا الجواب، فأجاب الفقيه المذكور وبالله التوفيق قد آن لابن الخياط ألا تأخذه لومة لائم، لا يجوز، ولا يحل تحصيل كتب الشيخ محيي الدين العربي، ولا قرأتها ولا إقراءها؛ فإنها مردودة على مصنفها، وما أظن الشيخ مجد الدين أقدم على ما أقدم إلا لعدم إمعان النظر، ثم ذكر في فتواه كلامًا لا يليق بنا نقله إذ كلٌّ يعمل على شاكلته.

فأجاب عنه أقضى القضاة مجد الدين محمد بأجوبة طبقت بها الآفاق، ووقع عليه الإجماع والاتفاق، ما هذا ترجمته: الحمد لله على كل حال، اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا

اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً ووفقنا لاجتنابه، فقد ذكرتُ معتقدي في الشيخ الأكمل محيي الدين ابن العربي بعد مواظبتي على كتبه التي تشرح صدور العارفين، وتنور قلوب أهل البداية في السالكين. وأمعنت النظر فيها، والتأمل في حقائقها ومعاينها، واقتطاف أطايب ثمراتها، وهو ﷺ شيخ المحققين، وإمام العارفين، وقطب الأولياء والصالحين، هذا الذي نعرفه، ونتحققه، وندين الله به، ومن نظر في أول «الفتوحات المكية» ومعتقده ﷺ واتباعه السنة الشريفة النبوية واقتفاءه الأحاديث، وبناء أبوابه بملكتها عرف - إن كان ممن شرح الله صدره بنور العلم اللدني- مقدار الشيخ الأكمل محيي الدين ﷺ، وجلالة قدره، وأصالة أمره، وقول الفقيه: إن كتب الشيخ محيي الدين ابن العربي لا يجوز ولا يحل تحصيلها ولا قرأتها ولا سماعها فإنها مردودة إلى مصنفها... إلى آخر مقاله ليس هو منفرد به، بل قول جماعة في فقهاء الظاهرين الذين ينطقون بها، وأكثرهم يعتقدون خلافه، وإنما ينطقون بها يوافق عقول العامة العاجزين عن فهم شيء من معاني كلام الشيخ الأكمل محيي الدين؛ فإنهم متى سمعوا خلافه أنكروا وبدَّعوا وشنعوا، أليس حافظ الأمة أبو هريرة ﷺ يقول: «حفظت من رسول الله ﷺ وعائين من العلم بثثت أحدهما فيكم، وأما الوعاء الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم» هكذا ذكر أبو عبد الله البخاري في صحيحه.

أراد به ﷺ علوم الحقيقة التي ليست من شأن من لا يفهم شيئًا من ذلك خاص من خصَّه الله تعالى من الصديقين والأوتاد المقربين، والظاهري المنكر معذور من هذا الوجه، وأما مبالغته في تكفير الشيخ ابن العربي فقد بسطنا عذره في ذلك كان الشيخ كمال الدين الزملكاني - رحمه الله تعالى- من أجل مشايخ الشام، وكان يقول: ما أجهل هؤلاء الذين ينكرون على الشيخ الأكمل محيي الدين لأجل كلمات وألفاظ وقعت في كتبه قد قصرت أفهامهم عن إدراك معانيها، فليأتوني لأحل لهم ما أشكل عليهم، وأبين لهم مقاصد الشيخ محيي الدين في تلك الكلمات والألفاظ، بحيث يظهر لهم الحق، ويزول عنهم الوهم.

وقول الفقيه: إن كتب الشيخ محيي الدين لا يجوز ولا يحل تحصيلها ولا قرأتها ولا سماعها، هذا جهل صريح، وقول قبيح لا يمكن النطق به لمسلم، ولا يحل إلا إذا وقف على كتب الشيخ جميعها، واطلع على مضمونها ومكنونها، ورأى في جميعها ما يخالف الكتاب والسنة، فإن كتب الشيخ محيي الدين ﷺ تزيد على خمسمائة كتاب كما سبق ذكره، «التفسير الكبير» و«التفسير الصغير» و«تفسير الجمع والتفصيل على طريق المفسرين العارفين» ليس فيه شيء مما ينكر عليه، ومنها كتاب: «المعلى على المحلى» فهو كتاب في الفقه، وهو مختصر أبي محمد بن حازم، وهو من أحسن كتب الفقه بديع لم يصنف مثله في حسن الاختصار

وإحاطته على جميع المجتهدين الكبار من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين إلى زمانه، فهل يجوز لمسلم أن يقول مثل هذه الكتب لا يحل تحصيلها ولا قراءتها ولا سماعها؟!

ومن حرم الاشتغال بالعلوم الشرعية، ومن حرم الاشتغال بها فقد كفر أعاذنا الله تعالى في هذه الفتاوى، والنصائح الفاضحة، والقبائح الواضحة، وكم للشيخ محيي الدين العربي من تصنيف وتأليف لطيف في الأحاديث وغيرها، ومنها «رياض الفردوسية في جميع ما وري عن النبي ﷺ عن رب العالمين بلا واسطة» ولا أعلم أن أحدًا اعتنى بجمعه، وظفر بحصره قبل الشيخ ﷺ، هل يجوز لمن شم رائحة الإسلام أن ينهى عن تحصيل هذا الكتاب أو قراءته أو إسماعه؟!

فمن قال بهذا فهو كافر من أعداء الله ورسوله أعاذنا الله من جهل الجاهلين، وزيغ الزائغين.

فهذا قول من قال: لا يجوز ولا يحل تحصيل كتب الشيخ ابن العربي، ولا قراءتها، ولا إسماعها. انتهى كلام الفيروز آبادي في فتواه.

واعلم أن الحاصل من مفهوم هذه المقالات، أن الناس اختلفوا في الشيخ ﷺ فرقة تعتقد ولايته، وتعرف قدره ومكانته، وفرقه شكت في أمره، أو أنكرت عليه بل على أكثر أهل السلوك لكونهم عن ذوقه غافلين، وفي علم اللدني جاهلين، فذكر الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في «لطائف المنن» أن الشيخ عز الدين - رحمه الله- كان في أول أمره من المنكرين أشد الإنكار على الصوفية، فلما حج الشيخ أبو الحسن الشاذلي - قدس سره- ورجع جاء إلى الشيخ عز الدين قبل أن يدخل بيته، وأقرأه السلام عليه من النبي ﷺ فخضع الشيخ عز الدين لذلك، ولزم مجلس الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وصار يبالغ الثناء على الصوفية، وحضر معهم مجالس السماع، والله يهدي من يشاء.

وحُكي أن الشيخ أبا العباس الخراساني كانت بينه وبين الشيخ موالاه أنه قال: جرت لي أمور غريبة النظر، عجيبة الخبر، رأيت في مشاهدتي أولياء دائرة مستديرة في وسطها اثنان أحدهما الشيخ أبو الحسن الصبان والآخر رجل أندلسي، فقيل لي: أحد هذين هو الغوث، فبقيت متحيرًا لا أعلم من هو منهما، فظهرت لهما آية فخرا ساجدين، فقيل لي: الذي يرفع رأسه أولاً هو القطب الغوث، فرفع الأندلسي رأسه فحققته، فوقفت إليه فسألته سؤالاً بغير حرف ولا صوت، وسرت لسائر دائرة الأولياء أخذ مشكل ولي بقسط.

وحُكي عن عبد الغفار القوصي أن قال: حدثني الشيخ عبد العزيز المنوفي عن خادم الشيخ محيي الدين ابن العربي قال: كان الشيخ يمشي وإنسان يسبه والشيخ ساكت لا يرد عليه، فقلت: يا سيدي ما تنظر إلى هذا؟ قال لي: ولمن يقول؟ قلت: لك يا سيدي، فقال: لا

يسبني، قلت: كيف؟ قال: هذا تصورت له صفات ذميمة، فهو يسب تلك الصفات، وما أنا موصوف بها»(١).

قال الشيخ الأكبر في «الفتوحات المكية» في باب الوصايا(٢): «يا ولي، احبس نفسك عن القليل من الذم تأمن كثيره؛ فإن النفس فيها لجاجة إذا نوزعت صدعت، وإذا سكت عنها انقمعت، قال الأحنف بن قيس في هذا المعنى: من لم يصبر على كلمة أسمع كلمات، ورب غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشد منه. يا ولي، والله ما عاقبت أحدًا يجب على أدبه في حال غضبي فإذا ذهبت عني حالة الغضب والغيظ ورأيت المصلحة له في الأدب أدبته، وأما ما يرجع إلي فأعفو عنه عن طيب نفس وعدم إقامة على دغل وحقد، وأبذل جهدي في إيصال خير إليه، وأسارع إلى قضاء حوائجه».

قال ﷺ أيضًا في وصاياه: «وإذا سبك إنسان فانظر فيما سبك به، فإن كان ما سبك به صفة فيك فلا تلمه، فما قال إلا حقًا، ولُم نفسك، وأزل عنها تلك الصفة المذمومة، واشكره على ما ظهرت منه، فلقد بالغ في نصحك وإن لم يقصده ولكن الله أنطقه، فارع له ذلك، وإن سبك بما ليس فيك فخذ ذلك منه تذكرةً وتحذيرًا يحذرك بما ذكره أن تذكره لئلا تتصف به فيما تستقبله من زمانك، فقد نصحك على كل حال، فإن صدق فيما قال فقل: غفر الله لي ولك وللمسلمين، وإن كذب فيما قال فقل: غفر الله لك».

وصية: واحذر أن تكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب، فقد ثبت أنه: «من قال لأخيه كافر فقد باء به أحدهما، إن كان كما قال وإلا رجعت عليه».

ومعنى الرجوع عليه أنه هو الكافر، فإنه من كفر مسلمًا فهو كافر، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة:١٣] فقال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ والسفيه هو الضعيف الرأي، أي: يقولون إنهم ما آمنوا إلا لضعف رأيهم وعقلهم، فجاز ذلك عليهم لقول الله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي: هم الذين ضعفت آراؤهم؛ فحال ذلك الضعف بينهم وبين الإيمان ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فتحفظ من الكلام القبيح، وهو أن تنسب صفة مذمومة لأخيك المؤمن وإن كانت فيه لا في حضوره ولا في غيبته، فإنك إن واجهته بذلك فقد عيرته، فما تأمن أن يعافيه الله من تلك الصفة ويبتليك بها، وقد ورد: «لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك»(٣).

(١) في «الوحيد في سلوك أهل التوحيد» (٢/ ١٨٧)، بتحقيقنا.

(٢) انظره في (٧/ ٣١٠).

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٥/ ٣١٥).

وإن كان غائبًا فهي غيبة، وقد نهاك الله عن الغيبة، فإنك إذا ذكرته بأمر هو فيه مما يسوؤه لو قابلته به فقد اغتبته، وإن نسبت إليه من القبيح ما ليس فيه فذلك البهتان، ولا بد أن تجني ثمرة غرسك إلا أن يعفو الله بإرضاء الخصم، وأن يعود عليك وبال ما نسبته إلى أخيك المؤمن مما ليس هو عليه.

وكذلك خداع المؤمن فلا تكن ممن يخادع الله، فإنك إن اعتقدت ذلك كنت من الجاهلين بالله حيث تخيلت أنك تلبس على الحق وأن الله لا يعلم كثيرًا مما تعلمون ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٣]، وإن خادعت المؤمن فما تخادع إلا نفسك كما قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ [البقرة:٩] وما يشعرون في خداعهم الذين آمنوا؛ فإنهم مؤمنون أيضًا بالباطل، وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون، فوصفهم بالإيمان بالباطل، وقال في حديث الأنواء فيمن قال مطرنا بنوء كذا: «إنه كافر بي مؤمن بالكوكب»[1]، فهذا قوله: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ في خداعهم الذين آمنوا، وأما في خداعهم الله فإن الله هو خادعهم بخداعهم أي: هو خداع الله بهم لكونهم اعتقدوا أنهم يخادعون الله.

وإياك يا أخي والاستهزاء والسخرية بأهل الله؛ فإن الاستهزاء بأهل الله استهزاء بدين الله، ولا تتخذهم ضحكة؛ فإن وبال ذلك يعود عليك يوم القيامة؛ فيسخر منك ويستهزئ بك، وهو أن يريك بالفعل ما فعلته أنت هنا، أعني: في الدنيا بالمؤمن إذا لقيته تقول: أنا معك، على طريق الهزء به والسخرية منه، فإذا كان يوم القيامة يجازيك الله عدلاً بقدر ما تراءيت به للمؤمنين من الإقبال عليهم والإيمان بما هم عليه أهل الله ﷻ.

وقد رأينا على ذلك جماعة من المدرسين الفقهاء يسخرون بأهل الله المنتمين إلى الله، المخبرين عن الله بقلوبهم ما يرد عليهم من الله فيأمر من هذه صفته إلى الجنة حتى ينظر إلى ما فيها من الخير فيسرّون أهل الله في حال استهزائهم بهم، ويتخيلون أنهم صادقون فما يظهرون به إليهم، فإذا وفى الله جزاء عملهم، وانفهقت لهم الجنة بخيرها، أمر الله الملائكة أن تصرفهم عنها إلى النار؛ فتصرفهم إلى النار، فذلك استهزاء الله بهم، كما أن هؤلاء المنافقين لما رجعوا إلى أهليهم قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة:١٤]، وقال: ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُ﴾ [هود:٣٨] ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ [المطففين:٣٤] كما كانوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين لإيمانهم.

وكذلك بعض المؤمنين يضحكون من أهل الله في الدنيا ولاسيما الفقهاء إذا رأوا

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٥١)، ومسلم (١/ ٨٣).

العامة على الاستقامة يتحدثون بما أنعم الله عليهم في بواطنهم يضحكون منهم، ويظهرون لهم القبول وهم في بواطنهم على خلاف ذلك، فلا أقل يا أخي إذا لم يكن منهم أن تسلم لهم أحوالهم فإنك ما رأيت منهم ما ينكره دين الله ولا ما يرده العلم الصحيح النقلي والعقلي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين:٣٠،٢٩]، هكذا والله رأيت فقهاء الزمان مع أهل الله يتغامزون عليهم، ويضحكون منهم، ويظهرون القبول عليهم وهم على غير ذلك.

فاحذر مَن هذه الصفة، ومن صحبة مَن هذه صفته لئلا يسرقك الطبع، فما أعظم حسرتهم يوم القيامة فهم الذين اشتروا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، والحياة الدنيا بالآخرة، ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٦].

وصية: واحذر يا أخي، أن تكون من شرار الناس؛ فيتقي الناس لسانك، فإن من شرار الناس الذين يكرمون انتقاء ألسنتهم، وأنت أعرف بنفسك في ذلك، كما روت عائشة – رضي الله عنها– عن رسول الله ﷺ: «إن من شرِّ الناس من أكرمه الناس اتقاء شرّه»(١).

فاحذر أن تكون ممن هذه صفتهم؛ فتكون من شرّ الناس بشهادة رسول الله ﷺ».

وصية: إذا قلت خيرًا، ودللت على خير؛ فكن أنت أوّل عامل به، والمخاطب بذلك الخير، وانصح نفسك؛ فإنها آكد عليك، فإن نظر الخلق إلى فعل الشخص أكثر من نظرهم إلى قوله، والاهتداء بقوله.

واجهد أن تكون ممن يهتدي بهداك؛ فتلحق بالأنبياء ميراثًا فإن رسول الله ﷺ يقول: «لأن يهتدي بهداك رجل واحد خير لك مما طلعت عليه الشمس»(٢).

وإياك أن تدعي ما ليس لك؛ فإن ذلك ليس من المروءة، مع فيه من الوزر عند الله، وإن رميت بشيءٍ مذموم فلا تنتصر لنفسك، واسكت، ولا تكذب مَن رماك، ولا تقر على نفسك بما لم تفعل مما نسب، وهكذا فعل ذو النون مع المتوكل حين سأله عمّا يقول الناس فيه من رميه بالزندقة، فقال: يا أمير المؤمنين، إن قلت: (لا) أكذب الناس، وأن قلت: (نعم) كذبت على نفسي؛ فاستحسن ذلك منه أمير المؤمنين وما قيل فيه قول قائل، فرده إلى مصر مكرمًا، واعتذر له، وحكايته في ذلك مشهورة.

أيها الإخوان الخلان، إذا عرفتم بعض أخلاق الشيخ ومنقبته، وأصغيتم بحسن القبول لوصيته فاستمعوا الآن سمو مكانته، وعلو درجته، ولاسيما حسن عقيدته وسيرته ﷺ وجعل مثواه بحبوحة الجنات بفضله ورحمته.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢٤٤).

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٣٥٧)، ومسلم (٤/ ١٨٧٢).

أما علو مكانته قال - قدس سره- في أول «الفتوحات المكية»: بعد الحمد لله والتحية، والصلاة على سر العالم ونكتته، ومطلب العالم وبغيته، السيد الصادق المدلج إلى ربه، الطارق المخترق به السبع الطرائق ليريه من أسرى به إليه ما أودع من الآيات والحقائق فيما أبدع من الخلائق الذي شاهدته عند إنشاء هذه الخطبة في عالم حقائق المثال في حضرة الجلال مكاشفة قلبية في حضرة غيبته، ولما شهدته ﷺ في ذلك العالم سيدًا معصوم المقاصد، محفوظ المشاهد، منصورًا مؤيدًا، وجميع الرسل بين يديه مصطفون، وأمته التي هي خير أمة أخرجت عليه ملتفون، وملائكة التسخير من حول عرش مقامه حافون، والملائكة المولدة من الأعمال بين يديه، والصديق على يمينه الأنفس، والفاروق على يساره الأقدس، والختم بين يديه، وعلي يترجم عن الختم بلسانه، وذو النورين مشتمل برداء حياته مقبل على شأنه، فالتفت السيد الأعلى، والمورد العذب الأحلى، والنور الأكشف الأجلى، فرآني وراء الختم لاشتراك بيني وبينه في الحكم، فقال له السيد: هذا عديلك وابنك وخليلك، انصب له منبر الطرفاء بين يدي، ثم أشار إلى أن عليه يا محمد، فأين على من أرسلني، وعلى فإن فيك شعرة مني لا صبر لها عنى، هي السلطانة في ذاتك، فلا ترجع إلي إلا بكاتبك، ولابد لها من الرجوع إلى اللقاء، فإنها ليست من عالم الشقاء، فما كان مني بعد بعثي شيء في شيء إلا سعد.

وكان ممن شكر في الملأ الأعلى وحمد، فنصب الختم المنبر في ذلك المشهد الأخطر، وعلى جهة المنبر مكتوب بالنور الأزهر الأخضر: هذا هو المقام المحمدي الأطهر، من رقي فيه فقد ورثه، وأرسله الحق في العالم حافظًا لحرمة الشريعة، وبعثه، ووهبت في ذلك الوقت مواهب الحكم حتى أوتيت جوا مع الكلم، وشكرت الله ﷻ، وصعدت أعلاه، وحصلت في موضع وقوفه ﷺ، ومستواه، وبُسط لي على الدرجة التي أنا فيها كم قميص أبيض، فوقفت عليه حتى لا أباشر الموضع الذي باشره ﷺ بقدميه تنزيهًا له، وتشريفًا، وتنبيهًا لنا، وتعريفًا أن المقام الذي شاهده من ربه لا تشاهده الورثة إلا من وراء ثوبه، ولولا ذلك لكشفنا ما كشف، وعرفنا ما عرف، ألا ترى أن تقفو أثره لتعرف خبره، لا تشاهد من طريق سلوكه ما شهد منه، ولا تعرف كيف تخبر بسلب الأوصاف عنه، فإنه شاهد مثلاً ترابًا مستويًا لا صفة له، فمشى عليه، وأنت على أثره لا تشاهد إلا أثر قدميه، وهنا سر خفي إن بحثت عليه وصلت إليه، وهو من أجل أنه إمام، وقد حصل له الإمام لا يشهد أثرًا، ولا يعرفه فقد كشفت ما لا يكشفه.

وهذا المقام قد ظهر إنكار موسي عليه السلام وعلى سيدنا على الخضر، قال العبد: فلما

وقفت ذلك الموقف الأسنى بين يدي من كان في ليلة إسرائه قاب قوسين أو أدنى قمت مقنعًا خجلاً، ثم أُيدت بروح القدس؛ فافتتحت مرتجلاً:

يــا منــزل الآيــات والأشــياء ... مــا نــزل عــلى معــالم الأســماء
حتــى أكــون لحمــد ذاتــك جامعــا ... بمحامــد الــسراء والــضراء

ثم أشرت إليه ﷺ:

ويكــون الــسيد العلــم الــذي ... جردتــه مــن ذروة الخلفــاء
وجعلتــه أصــل الكــريم وآدم ... مــا بــين طينــه خلقــه والمــاء
ونقلتــه حتــى اســتدار زمانــه ... وعطفــت آخــره عــلى الإبــداء
وأقمتــه عبــدًا ذلــيلاً خاضــعًا ... دهــرًا ينــاجيكم بغــار حــراء
حتــى أتــاه مبــشرًا مــن عنــدكم ... جبريــل المخــصوص بالأنبــاء
قــال الــسلام عليــك أنــت محمــد ... سر العبــاد وخــاتم النبــاء
يــا ســيدي أقــول فقــال لي صــدقًا ... نطقــت فأنــت ظــل رداء
فاحمــد وزد في حمــد ربــك جاهــدًا ... فلقــد وهبــت حقــائق الأشــياء
وانشر لنا من شــأن ربــك مــا انجــلى ... لفــؤادك المحفــوظ في الظلــماء
مــن كــل حــق قــائم بحقيقــة ... يأتيــك موهوبًــا بغــير شراء

ثم شرح ﷺ في الكلام بلسان العلام من بدء العالم إلى الختام بالتفصيل التام، فليطالع ثمة.

ثم قال في سياقه: ثم أظهرت أسرارًا، وقصصت أخبارًا لا يسع الوقت إيرادها، ولا يعرف أكثر الخلق إيجادها، فتركتها موقوفة على رأس [الهقعة][1] خوفًا من وضع الحكمة في غير موضعها، ثم رددت من ذلك المشهد النوري العلي إلى العالم السفلي، فجعلت ذلك الحمد المقدس خطبة الكتاب، والحمد لله المغني الوهاب. فهذه سمو منزلته.

وأما عقيدته وهي هذه فقال ﷺ: فيا إخواني المؤمنين - ختم الله لنا ولكم بالحسنى-

---

(١) أي الجوزاء.

لما سمعت قوله تعالى عن نبيه هود ﷺ حين قال لقومه المكذبين به وبرسالته: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [هود:٥٤] فأشهد ﷺ قومه مع كونهم مكذبين به على نفسه بالبراءة من الشرك بالله والإقرار بالوجدانية لما علم ﷺ أن الله سبحانه سيوقف عباده بين يديه ويسألهم عمّا هو عالم به لإقامة الحجة لهم أو عليهم حتى يؤدي كل شاهد شهادته.

وقد ورد «أن المؤذن يشهد له مدى صوته من رطب ويابس، وكل من سمعه، ولهذا يدبر الشيطان عند الأذان وله حصاص»، وفي رواية: «وله ضراط» وذلك حتى لا يسمع نداء المؤذن بالشهادة له من جملة من يسعى في سعادة المشهود له، وهو عدو محض ليس له إلينا خير ألبتة، فإذا كان العدو لابد أن يشهد لك بما أشهدته به على نفسك لأن ذلك المشهد الحق يعطي ذلك بحقيقته، فأحرى أن يشهد لك وليك وحبيبك ومن هو على دينك وملتك، وأحرى أن تشهده أنت في الدار الدنيا على نفسك بالوجدانية والإيمان.

فيا إخواني ويا أحبائي - رضي الله عنا وعنكم- أشهدكم[1] عبد ضعيف ومسكين فقير إلى الله تعالى في كل لحظة وطرفة، وهو مؤلف هذا الكتاب، ومنشؤه - ختم الله لنا ولكم بالحسنى- أشهدكم على نفسه بعد إشهاد الله سبحانه وتعالى وملائكته ومن حضره من الروحانيين والمؤمنين أو سمعه أنه يشهد قولاً وعقدًا بأن الله سبحانه إله واحد لا ثاني له في ألوهيته، منزه عن الصاحبة والولد، مالك لا شريك له، ملك لا وزير له، صانع لا مدبر معه، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده، بل كل موجود سواه مفتقر إليه في وجوده، فالعالم كله موجود به، وهو موجود بنفسه، لا افتتاح بوجوده، ولا نهاية لبقائه، بل وجود مطلق غير مقيد، قائم بنفسه ليس بجوهر متحيز فيقدر له المكان، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء، ولا بجسم فيكون له الجهة والتلقاء، مقدس عن الجهات والأقطار، مرئي بالقلوب والأبصار إذا شاء، استوى على عرشه كما قاله، وعلى المعنى الذي أراده، كما أن العرش وما حواه به استوى، وله الآخرة والأولى، ليس له مثل معقول، ولا دلت عليه العقول، ولا يحده زمان، ولا يقله مكان، بل كان ولا مكان، وهو على ما عليه كان، خلق المتمكن والمكان، وإنشاء الزمان، وقال: أنا الواحد الحي الذي لا يؤده حفظ المخلوقات،

---

(١) ثبت في حاشية المخطوط: بأني أشهد الله تعالى وحملة عرشه وملائكته ورسله وأنبياءه - عليهم السلام- وأولياءه والمؤمنين وجميع خلقه لهذه المذكورات التي ذكرها الشيخ كلها على نفسي، وأنا الذليل الحقير الفقير إلى الله العليم الخبير وهو السميع البصير عبد الله بن محمد وهو منشئ هذه الرسالة بإقراري وبإيماني ويقيني واعتقادي وتصديقي - ختم الله لنا ولكم بالإيمان الكامل والعمل الصالح وحشرنا وإياكم مع الأبرار- بحرمة رسوله المختار صلى الله عليه وعلى آله وأحبابه الأخيار.

ولا ترجع إليه صفة لم تكن عليها من صفة المصنوعات، تعالى إلى تحله الحوادث، أو يحلها، أو أن تكون بعده، أو أن يكون قبلها، بل تعالى كان ولا شيء معه، فإن القبل والبعد من صيغ الزمان الذي أبدعه، فهو القيوم الذي لا ينام، والقهار الذي لا يُرام، ليس كمثله شيء خلق العرش وجعله حد الاستواء، وإنشاء الكرسي، وأوسعه الأرض والسماء، اخترع اللوح والقلم الأعلى وأجراه كاتبًا بعلمه في خلقه إلى يوم الفصل والقضاء، أبدع العالم كله على غير مثال سبق، وخلق الخلق

وأخلق الذي خلق أنزل الأرواح في الأشباح أمناء، وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح في الأرض خلفاء، وسخر لها ما في السماوات في الأرض جميعًا منه، فلا تتحرك ذرة إلا إليه وعنه، خلق الكل من غير حاجة إليه، ولا موجب أوجب ذلك عليه لكن علمه سبق بأن يخلق ما خلق، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو على كل شيء قدير، أحاط بكل شيء علمًا، وأحصي كل شيء عددًا، يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، كيف لا يعلم شيئًا وهو خلفه؟! ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

علم الأشياء قبل وجودها ثم أوجدها على حد ما علمها، ولم يزل عالمًا بالأشياء، ولم يتجدد له علم عند تجدد الأشياء، بعلمه أتقن الأشياء وأحكمها، وبه حكم عليها من شاء وحكمها، علم الكليات على الإطلاق كما علم الجزئيات بإجماع من أهل النظر الصحيح واتفاق فهو ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام:٧٣] ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٦٣]، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦].

فهو المريد للكائنات في عالم الأرض والسماوات، لم تتعلق قدرته تعالى بإيجاد شيء حتى أراده كما أنه لم يرده سبحانه حتى علمه، إذ يستحيل في العقل أن يريد ما لم يعلم، أو يفعل المختار المتمكن من ترك ذلك الفعل ما لا يريده، كما يستحيل أن توجد هذه الحقائق من غير حي، كما يستحيل أن تقوم هذه الصفات بغير ذات موصوفة بها، فما في الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران، ولا عبد ولا حر، ولا برد ولا حر، ولا حياة ولا موت، ولا حصول ولا فوت، ولا نهار ولا ليل، ولا اعتدال ولا ميل، ولا بر ولا بحر، ولا شفع ولا وتر، ولا جوهر ولا عرض، ولا صحة ولا مرض، ولا فرح ولا ترح، ولا ظلام ولا ضياء، ولا أرض ولا سماء، ولا تركيب ولا تحليل، ولا كثير ولا قليل، ولا غداة ولا أصيل، ولا بياض ولا سواد، ولا رقاد ولا سهاد، ولا ظاهر ولا باطن، ولا متحرك ولا ساكن، ولا يابس ولا رطب، ولا قشر ولا لب، ولا شيء من هذه المتضادات منها والمختلفات والمتماثلات إلا وهو مراد للحق تعالى، وكيف لا يكون مراد له وهو أوجده؟!

فكيف يوجد المختار ما لا يريد؟! يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ما شاء كان، وما لم يشاء لم يكن.

لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئًا لم يرد الله تعالى أن يريدوا ما أرادوا، أو يفعلوا شيئًا لم يرد الله إيجاده وأرادوا غير ما أراد منهم ما فعلوا ولا استطاعوا على ذلك، ولا أقدرهم عليه، فالكفر والإيمان والطاعة والعصيان من سببه وحكمه وإرادته، ولم يزل سبحانه بهذه الإرادة أزلاً، والعالم معدوم غير موجود، وإن كان ثابتًا في العلم في عينه، ثم أوجد العالم من غير تفكير ولا تدبر عن جهل، أو عدم علم فيعطيه التدبر والتفكر علم ما جهل كمل وعلا عن بذلك، بل أوجده عن العلم السابق، وتعيين الإرادة المنزهة الأزلية القاضية على العالم، أوجده عليه من زمان ومكان وألوان، فلا مريد من الوجود على الحقيقة سواه إذ هو القائل سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠].

وأنه سبحانه كما علم فأحكم، وأراد فخص، وقدر فأوجد، كذلك سمع ورأى ما تحرك وسكن أو تعليق في الورى من عالم الأسفل والأعلى لا يحجب سمعه البعد فهو القريب ولا بصره القرب فهو البعيد يسمع كلا من النفس في النفس، وصوت المماسة الخفية عند اللمس، ويجري السواد في الظلماء، والماء في الماء، ولا يحجبه الامتزاج ولا الظلمات ولا النور، وهو السميع البصير.

تكلم سبحانه لا عن صمت متقدم، ولا سكوت متوهم بكلام قديم أزلي كسائر صفاته من علمه وإرادته وقدرته كلم به موسى عليه السلام كالتنزيل والتوراة والزبور الإنجيل من غير حروف ولا أصوات، ولا نغم ولا لغات، بل هو خالق الأصوات والحروف واللغات، فكلامه سبحانه من غير لهاة ولا لسان كما أن سمعه من غير أصمخة ولا آذان، كما أن بصره من غير حدقة ولا أجفان، كما أن إرادته في غير قلب ولا جنان، كما أن علمه من غير اضطراب ولا نظر في برهان، كما أن حياته من غير تكيفًا وتجويف قلب حدث عن امتزاج أركان، كما أن ذاته لا تقبل الزيادة والنقصان، فسبحانه سبحانه عظيم السلطان، عميم الإحسان، جسيم الامتنان، كل ما سواه فهو عن جوده فائض، وفضله وعدله الباسط له والقابض، أكمل صنع العالم وأبدعه حين أوجده واخترعه، لا شريك له في ملكه، ولا مدبر معه في ملكه، إن أنْعَم فنعَّم فذلك فضله، وإن أبلى فعذب فذلك عدله، لم يتصرف في ملكه غيره فينسب إلى الجور الحيف، ولا يتوجه عليه حكم فيتصف لذلك بالجزع والخوف، كل ما سواه تحت سلطان قهره، ومتصرف عن إرادته وأمره، فهو الملهم نفوس المكلفين التقوى والفجور، وهو المتجاوز عن سيئات من شاء، والآخذ بها من شاء هنا وفي يوم النشور، لا يحكم عدله في فضله، ولا فضله في عدله، أخرج العالم قبضتين،

وأوجد لهم منزلتين، فقال: «**هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي**»[١].

فلم يعترض عليه معترض هناك، إذ لا موجود كان ثمة سواه، والكل تحت تصريف أسمائه، قبضة تحت أسماء بلائه، وقبضة تحت أسماء آلائه، ولو أراد سبحانه وتعالى أن يكون العالم كله سعيد لكان، أو شقيًا لكان، لما كان ذلك في شأن، لكنه سبحانه لم يرد فكان كما أراد، فمنهم الشقي والسعيد هنا وفي يوم الميعاد، فلا سبيل إلى تبديل ما حكم عليه القديم، وقد قال تعالى في الصلاة: «**هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد**»[٢].

لتصر بها في ملكي، وذلك حقيقة عميت عنها الأبصار والبصائر، ولم تعثر عليها الأفكار ولا الضمائر إلا بوهب إلهي، وجود رحماني لمن اعتنى الله به من عباده، وسبق له ذلك بحضرة إشهاده، فعلم حين أعلم أن الألوهة قد أعطت هذا التقسيم، وإنه من دقائق القديم فسبحان من لا فاعل سواه، ولا موجود بذاته لا إياه ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] و﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣] فلقنه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين.

الشهادة الثانية: وكما أشهدت الله وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسي بتوحيده فكذلك بالإيمان بمن اصطفاه واختاره واجتباه ممن مَنِّه وجوده ذلك سيدنا ومولانا محمد ﷺ الذي أرسله إلى جميع الناس كافة بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

فبلغ ﷺ ما أنزل إليه من ربه، وأدى أمانته، ونصح نفسه، ووقف في حجة وداعه على كل من حضر من أتباعه، فخطب وذكر وخوف وحذر، وبشر وأنذر، ووعد وأوعد، وأمطر وأرعد، وما خصَّ بذلك التذكير أحدًا دون أحد عن إذن الواحد الصمد، ثم قال: «**ألا هل بلغت؟ فقالوا: بلغت يا رسول الله، فقال ﷺ: اللهم اشهد**»[٣].

وأني مؤمن بكل ما جاء به ﷺ مما عملت وما لم أعلم مما جاء به، فقرر أن الموت عن أجل مسمى عند الله إذ جاء لا يؤخره، وأنا مؤمن بهذا لا ريب فيه ولا شك.

كما آمنت وأقررت أن سؤال القبر حق، وعذاب القبر حق، وبعث الأجساد من القبر حق، والعرض على الله حق، والحوض حق، والميزان حق، وتطاير الصحف حق، والصراط حق، والجنة حق، والنار حق، وفريقًا في الجنة وفريقًا في النار حق على طائفة، وكرب ذلك اليوم حق، وطائفة أخرى لا يحزنهم الفزع الأكبر، وشفاعة الملائكة والنبيين

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤/ ١٨٦).

(٢) رواه البخاري (١/ ١٣٦)، ومسلم (١/ ١٤٨).

(٣) رواه البخاري (٢/ ٦٢٠)، ومسلم (٣/ ١٣٠٧).

والمؤمنين، وإخراج أرحم الراحمين بعد الشفاعة من النار من شاء حق، وجماعة من أهل الكبائر المؤمنين يدخلون جهنم ثم يخرجون منها بالشفاعة والامتنان حق، والتأبيد للمؤمنين والموحدين في النعيم في الجنان حق، والتأبيد للكافرين والمنافقين في النار حق، وكل ما جاءت به الكتب والرسل من عند الله علم أو جهل حق.

فهذه شهادتي على نفسي أمانة عند كل مؤمن وصلت إليه أن يؤديها إذا سألها حيث ما كان، نفعنا الله وإياكم بهذا الإيمان، وثبتنا عليه عند الانتقال من هذه الدار إلى الدار الحيوان، وأحلفنا منها دار الكرامة والرضوان، وحال بيننا وبين دار سرابيلها القطران، وجعلنا من العصابة التي أخذت الكتب بالإيمان، وممن انقلب من الحوض وهو ريان، وثقل له الميزان، وثبت له على الصراط القدمان، إنه المنعم المحسان، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والله الموفق لا رب غيره.

وقال الشيخ ﷺ في الباب الخامس والستين وثلاث مائة في «الفتوحات المكية»: «جعلنا الله وإياكم من الوارثين، وكل من أظهر اعتقاد النبوة، وصرف ما جاءت به من الأحكام الظاهرة إلى معان نفسية لم تكن من قصد النبي بما ظهر عنه ما اعتقدته العامة من ذلك فإنه لا يحصل على طائل من العلم، ومن اعتقد فيما جاء به هذا النبي أنه في الظاهر والعموم على ما هو عليه حق كله وله زيادة مصرف آخر مع ثبوت هذه المعاني فجمع بين الحس والمعنى في نظره فذلك الوارث العالم الذي شاهد الحق على ما هو عليه، وهذا لا يحصل إلا بالتعمل، وليس معنى التعمل أن يقول: هذا الذي ليس له هذا الاعتقاد، ثم يسمع به مني أو من غيري، فيقول: أنا أعتقده وأربط نفسي به، فإن كان ما قاله حقًّا فإنا له وإن لم يكن فما يضرني، فمثل هذا لا ينفعه ولا يفتح له فيه؛ لأنه غير مصدق به على القطع بل هو صاحب تجربة، وأين الإيمان من الشك والتجربة؟!

فهذا أعمى البصيرة، ناقص النظر، فإنه لو صحَّ منه النظر الفكري في الأدلة لعثر على وجه الدلالة فانقدح له المطلوب، وأسفر له عن الأمر على ما هو عليه، كما أسفر لغيره ممن وفى النظر حقَّه، فإنه إذا وفى الناظر حقه لزمه الإيمان ملازمة الظل للشخص؛ لأنهما مزدوجان فإنه يطلع بعين الدليل على رتبة هذا المسمى بالنبي والشارع عند الله، فمن المحال أن يشهده ذوقًا ولا يتبعه حالاً، هذا ما لا يتصور.

ولقد آمنا بالله وبرسوله وبما جاء به مجملاً ومفصلاً مما وصل إلينا من تفصيله وما لم يصل إلينا أو لم يثبت عندنا، فنحن بكل ما جاء به في نفس الأمر أخذت ذلك عن أبوي أخذ تقليد، ولم يخطر لي ما حكم النظر العقلي فيه من جواز وإحالة ووجوب، فعملت على إيماني بذلك حتى علمت من أين آمنت، وبماذا آمنت، وكشف الله عن بصري وبصيرتي

وخيالي، فرأيت بعين البصر ما لا يدرك إلا به، ورأيت بعين الخيال ما لا يدرك إلا به، ورأيت بعين البصيرة مالا يدرك إلا بها، فصار الأمر لي مشهودًا، والحكم المتخيل المتوهم بالتقليد موجودًا؛ فعلمت قدر من اتبعته، وهو الرسول المبعوث إليَّ محمد ﷺ، وشاهدت جميع الأنبياء كلهم من آدم إلى محمد - عليهم السلام- وأشهدني الله تعالى المؤمنين بهم كلهم حتى ما بقي منهم من أحد ممن كان ويكون إلى يوم القيامة خاصهم وعامهم، ورأيت مراتب الجماعة كلها فعلمت أقدارهم، واطلعت على جميع ما آمنت به مجملاً مما هو في العالم العلوي، وشهدت ذلك كله فما زحزحني علم ما رأيته وعانيته عن إيماني، فلم أزل أقول وأعمل ما أقوله وأعمله لقول النبي ﷺ، لا لعلمي ولا لعيني ولا لشهودي، فواخيت بين الإيمان والعيان.

وهذا عزيز الوجود في الاتباع؛ فإن مزلة الأقدام للأكابر، إنما تكون هنا إذا وقعت المعاينة لما وقع به الإيمان فتعمل على عين لا على إيمان، فلم يجمع بينهما ففاته من الكمال أن يعرف قدره ومنزلته، فهو وإن كان من أهل الكشف فما كشف الله له عن قدره ومنزلته فجهل نفسه فعمل على المشاهدة، والكامل من عمل على الإيمان مع ذوق العيان، وما انتقل ولا أثر فيه العيان.

وما رأيت لهذا المقام ذائقًا بالحال وإن كنت أعلم أن له رجالاً في العالم لكن ما جمع الله بيني وبينهم في رؤية أعيانهم وأشخاصهم وأسمائهم، فقد يمكن أن أكون رأيت منهم وما جمعت بين عينه واسمه.

وكان سبب ذلك أني ما علقت نفسي قط إلى جانب الحق أن يطلعني على كون من الأكوان، ولا حادثة من الحوادث، وإنما علقت نفسي مع الله أن يستعملني فيما يباعدني عنه وأن يخصني بمقام لا يكون لمتبع أعلى منه، ولو أشركني فيه جميع مَن في العالم لم أتأثر لذلك، فإني عبد محض لا أطلب التفوق على عباده، بل جعل الله في نفسي من الفرح أني أتمنى أن يكون العالم كله على قدم واحدة في أعلى المراتب، فخصني الله بخاتمة أمر لم يخطر لي ببال؛ فشكرت الله تعالى بالعجز عن شكره مع توفيتي في الشكر حقه.

وما ذكرت ما ذكرته من حالي للفخر لا والله، وإنما ذكرته لأمرين: الأمر الواحد لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] وأية نعمة أعظم من هذه، والأمر الآخر ليسمع صاحب همة فتحدث فيه همة لاستعمال نفسه فيما استعملتها فينال مثل هذا فيكون معي وفي درجتي، فإنه لا ضيق ولا حرج لا في المحسوس والألوهية خاصة، ولهذا لا يتعلق حكم الغيرة إلا بهذين المقامين، فأما المحسوس فلحصره فإنه إذا كان لم يكن عين ما هو عندك عند غيرك، وأما في الألوهية فإن المدعي فيها كاذب، فإنها لا

تكون إلا لواحد ليس لغيرة فيها قدم، والغيرة مشتقة من الغير، فهذا قد أبنت لك عن سواء السبيل».

وفي هذا الباب تحقيقات عجيبة من أراد الاطلاع فليطالع ثمة.

وهذه أيضًا من تحقيقات الشيخ في أسرار فاتحة الكتاب، فجعلتها تبركًا وتيمنًا نقش فص خاتم ختم الخاتمة، وختمت بها هذه الرسالة.

فقال ﷺ في الباب الخامس من «الفتوحات المكية»: «واقعة: أرسل رسول الله ﷺ عثمان ﷺ إليَّ آمرًا بالكلام في المنام بعدما وقعت شفاعتي على جماعتي، ونجا الكل من أسر الهلاك، وقرب المنبر الأسنى، وصعدت عليه عن الأذن العالي المحمدي الأسمى بالاقتصار على لفظة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة:٢] خاصة، ونزل التأييد ورسول الله ﷺ عن يمين المنبر قاعد، فقال: العبد بعدما أنشد وحمد وأثنى وبسمل حقيقة الحمد هي العبد المقدس المنزه لله إشارة إلى الذات الأزلية، وهو مقام انفصال وجود العبد من وجود الإله ثم غيبه عن وجوده بوجوده الأزلي، وأوصله به فقال: ﴿لله﴾ فاللام الداخلة على قوله: الله الخافضة له هي حقيقة المألوه في باب التواضع والذلة، وهي من حروف المعاني لا من حروف الهجاء، ثم قدمها سبحانه على اسم نفسه تشريفًا لها وتهممًا وتنزيهًا لمعرفتها بنفسها، وتصديقًا لتقديم النبيّ ﷺ إياها في قوله: «من عرف نفسه عرف ربه»[١]، فقدم معرفة النفس على معرفة الرب.

ثم عملت في الاسم الله لتحقيق الاتصال وتمكينها من المقام، ولما كانت في مقام الوصلة ربما توهم أن الحمد غير اللام فخفض العبد اتباعًا لحركة اللام فقرئ: (الحمدِ لله) بخفض الدال فكان لفظة: (الحمد) بدلاً من اللام بدل شيء من شيء، وهما لعين واحدة، فالحمد هو وجود اللام، واللام هي الحمد، فإذا كانا شيئًا واحدًا كان الحمد في مقام الوصلة مع الله؛ لأنه عين اللام، فكان معنى كما كانت اللام لفظًا ومعنى.

ثم حقيقة الخفض فيها إثبات العبودية ثم أحيانًا يفنيها عن نفسها فناء كليًّا ليرفعها إلى المقام الأعلى في الأوّلية، ثم يبقى حقيقتها في آخرية فيقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة:٢] يرفع اللام اتباعًا لحركة الدال، وهذا مما يؤيد أن الحمدَ اللامُ، وهو المعبر عنه بالرداء والثوب إذ كان هو محل الصفات، وافتراق الجمع فغاية معرفة العباد أن تصل إليه إن وصلت، والحق وراء ذلك كله أو قل ومع ذلك كله فلما رفعها عارضًا في حق الحق فأبقى الهاء مكسورة تدل على وجود اللام في مقام خفض العبودية؛ ولهذا شدت اللام الوسطى

---

(١) تقدم تخريجه.

بلفظة: (لا) أي: ذات الحق ليست ذات العبد، وإنما هي حقيقة المثل لتجلي كل شيء.

فإذا كانت اللام هي نفس الحمد والهاء معمول اللام فالهاء هي اللام، وقد كانت اللام هي الحمد، فالهاء الحمد بلا مزيد، وقد قلنا: إن اللام المشددة لنفي الجمع المتحد موضع الفصل فخرج من مضمون هذا الكلام أن الحمد هو قوله: ﴿لله﴾ وأن قوله: ﴿لله﴾ هو قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ فغاية العبد أن حمد نفسه الذي رأى في المرآة إذ لا طاقة للمحدث على حمل القديم، فأحدث المثل على الصورة، وصار الموحد مرآة، فلما تجلت صورة المثل في مرآة الذات قال لها حين أبصرت الذات فعطست فميزت نفسها: احمدي من رأيت؛ فحمدت نفسها، فقالت: الحمد لله، فقال لها: يرحمك ربك، يا آدم لهذا خلقتك فسبقت رحمته غضبه، ولهذا قال عقيب قوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] فقدم الرحمة، ثم قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧] فأخر غضبه؛ فسبقت الرحمة الغضب في أول افتتاح الوجود، فسبقت الرحمة إلى آدم قبل العقوبة على أكل الشجرة، ثم رحم بعد ذلك فجاءت رحمتان بينهما غضب، فتطلب الرحمتان أن تمتزجا؛ لأنهما مثلان فانضمت هذه إلى هذه فانعدم الغضب بينهما.

إذا ضاقت بك الدنيا ففكر في ألم نشرح

فعسر بين يسرين إذا فكرته فافرح

فالرحمة عبارة عن الموجود الأول المعبر عنه بالمطلوب، والمغضوب عليهم: النفس الأمّارة، والضالون: عالم التركيب مادامت هي مغضوبة عليها، إذ الباري منزه عن أن ينزه، إذ لا غير ولا موجود إلا هو، ولهذا أشار ﷺ بقوله: «المؤمن مرآة أخيه»[1] لوجود الصورة على كمالها إذ هي محل المعرفة، وهي الموصلة، ولو أوجده على غير تلك الصورة لكان جمادًا فالحمد لله الذي مَنَّ على العارفين به الواقفين معه بموادّ العناية أزلاً وأبدًا.

تنبيه: اللام تفني الرسم كما أن الباء تبقيه، ولهذا قال أبو العباس بن العريف: العلماء لي والعارفون بي، فأثبت المقام الأعلى للام، فإنه قال في كلامه: والعارفون بالهمم، ثم قال في حق اللام: والحق وراء ذلك كله، ثم زاد تنبيهًا على ذلك، ولم يقنع بهذا وحده، فقال: والهمم للوصول، والهمة للعارفين البائيين، وقال في العلماء اللاميين: وإنما يتبين الحق عند اضمحلال الرسم.

وهذا هو مقام اللام فناء الرسم، فالحمد لله أعلى من الحمد بالله، فإن الحمد بالله

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٣٢٥). وقد شرحه العلامة الجيلي في «النور المتمكن» بتحقيقنا.

يبقيك، والحمد لله يفنيك، فإذا قال العالم: الحمد لله، أي: لا حامد لله إلا هو فأحرى ألا يكون ثم محمود سواه، وتقول العامة: الحمد لله، أي: لا محمود إلا الله، وهي الحامدة فاشتركا في صورة اللفظ، فالعلماء أفنت الحامدين المخلوقين والمحمودين، والعامة أفنت المحمودين من الخلق خاصة.

وأمّا العارفون فلا يتمكن لهم أن يقولوا: الحمد لله إلا مثل العامة، وإنما مقامهم الحمد بالله لبقاء نفوسهم عندهم، فتحقق هذا الفصل فإنه من لباب المعرفة.

وصل: في قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٢،٣] أثبت بقوله عندنا، وفي قلوبنا رب العالمين حضرة الربوبية، وهذا مقام العارف، ورسوخ قدم النفس، وهو موضع الصفة، فإن قلونا لله ذاتية المشهد، عالية المحتمد، ثم أتبعه بقوله: ﴿﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مربيهم ومغذيهم، والعالمين عبارة عن كل ما سوى الله، والتربية تنقسم قسمين: تربية بواسطة، وبغير واسطة.

فأمّا الكلمة فلا يتصوّر واسطة في حقه ألبتة، وأمّا من دونه فلابد من الواسطة، ثم تنقسم التربية قسمين التي بالواسطة خاصة: قسم محمود، وقسم مذموم، ومن القديم تعالى إلى النفس، والنفس داخلة في الحد ما ثم إلا محدود خاصة، وأمّا المذموم والمحمود فمن النفس إلى عالم الحس فكانت النفس محلاً قابلاً لوجود التغيير والتطهير، فنقول: إن الله تعالى لما أوجد الكلمة المعبر عنها بالروح الكلي إيجاد إبداع أوجدها في مقام الجهل ومحل السلب، أي: أعماه عن رؤية نفسه؛ فبقي لا يعرف من أين صدر؟ ولا كيف صدر؟ وكان الغذاء فيه الذي هو سبب حياته وبقائه وهو لا يعلم فحرّك الله همته لطلب ما عنده، وهو لا يدري أنه عنده فأخذ في الرحلة بهمته؛ فأشهده الحق تعالى ذاته فسكن وعرف أن الذي طلب لم يزل موصوفًا، قال إبراهيم بن مسعود البيري:

قَدْ يَرْحَلُ المَرْءُ لمطلُوبِه وَالسَّبَبُ المطلوب فِي الرَّاحِلِ

وعلم ما أودع الله فيه من الأسرار والحكم، وتحقق عنده حدوثه وعرف ذاته معرفة إحاطية فكانت تلك المعرفة له غذاء معينًا يتقوّت به وتدوم حياته إلى غير نهاية، فقال له عند ذلك التجلي الأقدس: ما اسمي عندك؟ فقال: أنت ربي، فلم يعرفه إلا في حضرة الربوبية وتفرد القديم بالألوهية؛ فإنه لا يعرفه إلا هو، فقال له سبحانه: أنت مربوبي، وأنا ربك، أعطيتك أسمائي وصفاتي، فمن رآك رآني، ومن أطاعك أطاعني، ومن علمك علمني، ومن جهلك جهلني، فغاية من دونك أن يتوصلوا إلى معرفة نفوسهم منك، وغاية معرفتهم بك العلم بوجودك لا بكيفيتك، كذلك أنت معي لا تتعدى معرفة نفسك، ولا

ترى غيرك، ولا يحصل لك العلم بي إلا من حيث الوجود، ولو أحطت علمًا بي لكنت أنت أنا، ولكنت محاطًا لك، وكانت أنيتي أنيتك، وليست أنيتك أنيتي، فأمدك بالأسرار الإلهية، وأريك بها؛ فتجدها مجعولة فيك؛ فتعرفها، وقد حجبتك عن معرفة كيفية إمدادي لك بها إذ لا طاقة لك بحمل مشاهدتها إذ لو عرفتها لاتحدت الأنية، واتحاد الأنية محال، فمشاهدتك لذلك محال هل ترجع أنية المركب أنية البسيط؟ لا سبيل إلى قلب الحقائق.

فاعلم أن من دونك في حكم التبعية لك، كما أنت في حكم التبعية لي، فأنت ثوبي، وأنت ردائي، وأنت غطائي، فقال له الروح: ربي سمعتك تذكر أن لي ملكًا فأين هو؟ فاستخرج له النفس منه، وهي المفعول عن الانبعاث، فقال: هذا بعضي، وأنا كله، كما أنا منك، ولست مني، قال: صدقت يا روحي، قال: بك نطقت يا ربي، إنك ربيتني، وحجبت عني سرّ الإمداد والتربية، وانفردت أنت به، فاجعل إمدادي محجوبًا عن هذا الملك حتى يجهلني كما جهلتك، فخلق في النفس صفة القبول والافتقار، ووزر العقل إلى الروح المقدس.

ثم اطلع الروح على النفس فقال لها: من أنا؟ قالت: ربي بك حياتي، وبك بقائي؛ فتاه الروح بملكه، وقام فيه مقام ربه فيه، وتخيل أن ذلك هو نفس الإمداد، فأراد الحق أن يعرفه أن الأمر على خلاف ما تخيل، وأنه لو أعطاه سر الإمداد كما سأل لما انفردت الألوهية عنه بشيء ولا تحدت الأنية.

فلما أراد ذلك خلق الهوى في مقابلته، وخلق الشهوة في مقابلة العقل، ووزرها للهوى، وجعل في النفس صورة القبول لجميع الواردات عمومًا، فحصلت النفس بين ربين قويين، لهما وزيران عظيمان، ومازال هذا يناديها وهذا يناديها، والكل من عند الله قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٧٨]، و﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء:٢٠].

ولهذا كانت النفس محل التغيير والتطهير، قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٨] في إثر قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧] فإن أجابت منادي الهوى كان التغيير، وإن أجابت منادي الروح كان التطهير شرعًا وتوحيدًا.

فلما رأى الروح ينادي ولا يسمع مجيبًا فقال: ما منع ملكي من إجابتي؟ قال له الوزير: في مقابلتك ملك مطاع، عظيم السلطان يسمى: الهوى، عطيته معجلة له الدنيا بحذافيرها، فبسط لها حضرته ودعاها، فأجابته فرجع الروح بالشكوى إلى الله تعالى، فثبتت عبوديته.

وذلك كان المراد، وتنزلت الأرباب والمربوبون كل واحد على حسب مقامه وقدره،

فعالم الشهادة المنفصل ربهم عالم الخطاب، وعالم الشهادة المتصل ربهم عالم الجبروت، وعالم الجبروت ربهم عالم الملكوت، وعالم الملكوت ربهم الكلمة، والكلمة ربها رب الكل الواحد الصمد.

وقد أشبعنا القول في هذا الفصل في كتابنا المسمى بـ«التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية» فأضربنا عن تتميم هذا الفصل هنا مخافة التطويل، وكذلك ذكرناه أيضًا في تفسير القرآن، فسبحان من تفرد بتربية عباده، وحجب من حجب منهم بالوسائط، وخرج من هذا الفصل لمن عرف روحه ومعناه أن الرب هو الله سبحانه، وأن العالمين هو المثل الكلي، ولذلك أوجده في العالمين على ثمانية أحرف: عرشًا واستوى عليه باللطف، والتربية، والحنان، والرحمة الرحمانية المؤكدة بالرحيمية لتميز الدار الحيوان لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] فعم بالرحمن وخصَّ بالرحيم، فالرحمن في عالمه بالوسائط وغيرها، والرحيم في كلماته بلا واسطة لوجود الاختصاص، وشرف العناية، فافهم، وإلا سلم تسلم».

وتحقيق الشيخ ﷺ فيه مبسوط في تفسير ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١] في أوائل هذا الباب الخامس إن أردت تعرفه فلتنظر ثمة.

وصل: في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] يريد: يوم الجزاء، وحضرة الملك من مقام التفرقة، وهي جمع فإنه لا تقع التفرقة إلا في الجمع، قال فيها: ﴿يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤].

فهي مقام الجمع، وقد قبلت سلطان التفرقة، فهي مقام التفرقة فافترق الجمع إلى أمر ونهي خطايا، وسخط ورضا إرادة، وطاعة وعصيان فعل مألوه، ووعد ووعيد، فعل إله والملك في هذا اليوم من حقت له الشفاعة، واختص بها، ولم يقل نفسي، وقال: «أمتي»(١).

والملك في وجودنا المطلوب للقيامة المعجلة التي تظهر في طريق التصوف هو الروح القدسي، ويوم القيامة وقت إيجاده الجزاء أو طولب به إن كانت عقوبة لابد من ذلك، فإن كانت الطاعة، فجنات من نخيل وأعناب، وإن كانت المعصية الكفرانية فجهنم من أغلال وعذاب.

ومن مقام الدعوى في الصورتين فنفرض الكلام في هذه الآية على حد الملك، وما ينبغي له، وهل ترتقي النفس من يوم الدين إلى الفناء عنه؟

فأقول: إن الملك من صحَّ له الملك بطريق الملك، وسجد له الملك، وهو الروح فلما

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٧٢٧)، ومسلم (١/ ١٨٣).

نازعه الهوى واستعان بالنفس عليه عزم الروح على قتل الهوى، واستعدّ فلما برز الروح بجنود التوحيد والملأ الأعلى، وبرز الهوى كذلك بجنود الأماني والغرور والملأ الأسفل، قال الروح للهوى: مني إليك فإن ظفرت بك فالقوم لي، وإن ظفرت أنت وهزمتني فالملك لك، ولا يهلك القوم بيننا، برز الروح والهوى فقتله الروح بسيف العدم، وظفر بالنفس بعد إبائة منها، وجهد كبير، فأسلمت تحت سيفه، فسلمت وأسلمت، وتطهرت وتقدست، وآمنت الحواس لإيمانها، ودخلوا في رق الانقياد، وأذعنوا وسلبت عنهم أردية الدعاوى الفاسدة، واتحدت كلمتهم، وصار الروح والنفس كالشيء الواحد.

وصح له اسم الملك حقيقة فقال له ملك يوم الدين فردّه إلى مقامه، ونقله من افتراق الشرع إلى جمع التوحيد، والملك على الحقيقة هو الحق تعالى المالك للكل ومصرفه، وهو الشفيع لنفسه عامة وخاصة خاصة في الدنيا وعامة في الآخرة من وجه ما، ولذلك قدم على قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] لتأنس أفئدة المحجوبين عن رؤية رب العالمين، ألا تراه يقول يوم الدين: شفعت الملائكة والنبيون وشفع المؤمنون، وبقي أرحم الراحمين، ولم يقل وبقي الجبار ولا القهار ليقع التأنيس قبل إيجاد الفعل في قلوبهم.

فمن عرف المعنى في هذا الوجود صحَّ له الاختصاص في مقام أرحم، ومن جهلها في هذا الوجود دخل في العامة في الحشر الأكبر، فتجلى في مقام الراحمين، فعاد الفرق جمعًا، والفتق رتقًا، والشفع وترًا بشفاعة أرحم الراحمين من جهنم ظاهر السور إلى جنة باطنه، فإذا وقع الجدار وانهدم السور وامتزجت الأنهار والتقت البحران وعدم البرزخ صار العذاب نعيمًا، وجهنم جنة، فلا عذاب ولا عقاب إلا نعيم وأمان بمشاهدة العيان وترنم أطيار بألحان على المقاصير والأفنان ولثم الحور والولدان وعدم مالك وبقي رضوان، وصارت جهنم تتنعم في حظائر الجنان، واتضح سر إبليس فيهم فإذا هو ومن سجد له سيان، فإنهما ما تصرّفا إلا عن قضاء سابق، وقدر لاحق، لا محيص لهما عنه، فلابد لهما منه، وحاج آدم موسى.

وصل: في قوله جل ثناؤه وتقدس: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] لما ثبت وجوده بـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة:٢]، وغذاؤه بـ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، واصطفاؤه بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] وتمجيده بـ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] أراد تأكيد تكرار الشكر والثناء رغبة في المزيد؛ فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

وهذا مقام الشكر أي: لك نقر بالعبودية، ونؤوي لك وحدك، لا شريك لك،

وإليك نؤوي في الاستعانة لا إلى غيرك على من أنزلتهم مني منزلتي منك، فأنا أمدهم بك لا بنفسي، فأنت الممد لا أنا.

وأثبت له بهذه الآية نفي الشريك، فالياء من ﴿إِيَّاكَ﴾ العبد الكلي قد انحصرت ما بين ألفين، ألفي توحيد حتى لا يكون لها موضع دعوى برؤية غير، فأحاط بها التوحيد، والكاف ضمير الحق فالكاف والألفان شيء واحد، فهم مدلول الذات.

ثم كان ﴿نَعْبُدُ﴾ صفة فعل الياء بالضمير الذي فيه، والعبد فعل الحق فلم يبق في الوجود إلا الحضرة الإلهية خاصة غير أنه في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ في حق نفسه للإبداع الأوّل حيث لا يتصور غيره، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في حق غيره للخلق المشتق منه، وهو محل سر الخلافة، ففي ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ سجدت الملائكة وأبى من استكبر.

وصل: في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٦، ٧] فلما قال له: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال له: وما عبادتي؟ قال: ثبوت التوحيد في الجمع والتفرقة، فلما استقر عند النفس أن النجاة في التوحيد الذي هو الصراط المستقيم، وهو شهود الذات بفنائها أو بقائها إن غفلت قالت: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فتعرض لها بقولها: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ صراطان: معوج وهو صراط الدعوى، ومستقيم وهو التوحيد، فلم يكن لها ميز بين الصراطين إلا بحسب السالكين عليهما، فرأت ربها سالكًا للمستقيم فعرفته به، ونظرت نفسها فوجدت بينها وبين ربها الذي هو الروح مقاربة في اللطافة، ونظرت إلى المعوج عند عالم التركيب فذلك قولها: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧] وهذا عالمها المتصل بها المركب مغضوب عليه، والمنفصل عنها ضالون عنها بنظرهم إلى المتصل المغضوب عليه، فوقفت على رأس الصراطين، ورأت غاية المعوج الهلاك، وغاية المستقيم النجاة، وعلمت أن عالمها يتبعها حيث سلكت.

فلما أرادت السلوك على المستقيم، وأن تعتكف في حضرة ربها، وأن ذلك لها ومن نفسها بقولها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عجزت وقصر بها؛ فطلبت الاستعانة بقولها: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فنبهها ربها على ﴿ٱهْدِنَا﴾ فتيقظت فقالت: ﴿ٱهْدِنَا﴾ فوصفت ما رأت بقولها: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي هو معرفة ذاتك.

قال صاحب «المواقف»: لا تأثير للعلم، وقال: أنت لما هلكت فيه صراط الذين أنعمت عليهم، وقرئ في الشاذ (صراط من أنعم) عليه إشارة إلى الروح القدسي، وتفسير الكل من أنعم الله عليه من رسول ونبي غير المغضوب عليهم ليس كذلك ولا الضالين، يقول تعالى: «فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل» فأجابها، وأقام معوجها، وأوضح صراطها،

ورفع بساطها، يقول ربها إثر تمام دعائها: ﴿آمين﴾ فحصلت الإجابة بالأمن تأمين الملائكة، وصار تأمين الروح تابعًا له اتباع الأجناد بل أطوع لكون الإرادة متحدة، وصحَّ لها النطق فسماها: النفس الناطقة، وهي عرش الروح والعقل صورة الاستواء؛ فافهم، وإلا فسلم تسلم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

ومن نعم الله سبحانه وتعالى على هذا العبد الضعيف أنه وقع هاهنا اتفاق عجيب بلا قصد ولا رؤية بحيث وقع الافتتاح بهذه الرسالة في وصف الملامتية بتحقيق أسرار ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ [الفاتحة:١] في الباب الخامس في «الفتوحات المكية» ووقع الاختتام أيضًا بتفسير سورة «الفاتحة» في الباب الخامس من «الفتوحات المكية» وما هذا إلا بإمداد روحانية الشيخ ﷺ، ولله الحمد والمنة.

وفي وقوع توافق الفاتحة والخاتمة نكات غريبة التي لا تُعرف إلا بالذوق والمشاهدة، والعارف تكفيه الإشارة.

لاحقة: قال قطب أهل الحقيقة شيخ الصوفية صدر الدين القونوي في تفسير الفاتحة: فنقول ﴿ٱهْدِنَا﴾ سؤال من العبد ودعاء، والدعاء قد يكون بلسان الظاهر أعني: صورة، وقد يكون بلسان الروح، وبلسان الحال، وبلسان المقام، ولسان الاستعداد الكلي الذاتي الغيبي العيني الساري الحكم من حيث الاستعدادات الجزئية الوجودية التي هي تفاصيله، والإجابة أيضًا على ضروب: إجابة في عين المسئول وبذله على التعين دون تأخير أو بعد مدة، وإجابة بمعاوضية في الوقت أيضًا وبعد مدة، وإجابة ثمرتها التكفير، وقد نبهت الشريعة على ذلك، وإجابة بـ(لبيك) أو ما يقوم مقامه.

وكل دعاء وسؤال يصدر من الداعي بلسان من الألسنة المذكورة في مقابلته من أصل المرتبة التي يستند إليها ذلك اللسان نسب علم الداعي به، واعتقاده فيه إجابة يستدعيها الداعي من حيث ذلك اللسان، ويتعين بالوصف والحال الغالبين عليه وقت الدعاء، ولصحة التصور، وجودة الاستحضار في ذلك أثر عظيم، اعتبره النبي ﷺ وحرض عليًّا ﷺ لما علمه الدعاء، وفيه: «اللهم اهدني وسددني» فقال له: واذكر بهدايتك هداية الطريق، وبالسداد سداد التهم، فأمره باستحضار هذين الأمرين حال الدعاء؛ فافهم هذا تلمح كثيرًا من أسرار إجابة الحق دعاء الرسل والكمل والأمثل فالأمثل من صفوته، وأن صحة التصور، واستقامة التوجه حال الطلب والنداء عند الدعاء شرط قوي في الإجابة.

ومما ورد ما يؤيد ما ذكرنا قوله ﷺ في حديث طويل: «ولو عرفتم الله حق معرفته لزالت بدعائكم الجبال»[1].

(١) رواه الحكيم الترمذي في «النوادر» (١/ ٢٣٦).

فتنبه على ما ذكرنا؛ لأن الإثم معرفة بالشيء أتم تصورًا له كما نبهت عليه قبل هذا.

وقال طيب الله أنفاسه وﷺ في أواخر هذا التفسير: وأما فصول هذه الآية فهي كالأجوبة لا سؤل رباني معنوي، وكأن لسان الربوبية يقول عند قول العبد ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي صراط تعني فالصراطات كثيرة، وكلها لي؟ فيقول لسان العبودية: أريد منها المستقيم، فتقول الربوبية: كلها مستقية من حيث إني غايتها كلها وإلى مصير من يمشي عليها جميعها، فأي استقامة تقصد في سؤالك؟ فيقول لسان العبودية: أريد من بين الجميع صراط الذين أنعمت عليهم، فيقول لسان الربوبية: ومن الذي لم أنعم عليه؟! وهل في الوجود شيء لم تسعه رحمتي ولم تشمله نعمتي؟! فيقول لسان العبودية: قد علمت أن رحمتك واسعة كاملة، ونعمتك سابغة شاملة، ولكنني لست أبغي إلا صراط الذين أنعمت عليهم النعمة الظاهرة والباطنة الصافية من كدر الغضب، ومزجته وشائبة الضلال، فإن السلامة من قوارع الغضب لا تقنعني إذا لم تكن النعم المسداة إليَّ مطرزة بعلم الهداية المخلصة من تحته الحيرة، وبيداء التيه، وورطات الشبه والشك والتمويه، وإلا فأية فائدة في تنعيم ظاهري بأنواع النعم مع تألم باطني بهواجم التلبيات المانعة من السكون وزواحم الريب والظنون، هذا في الوقت الحاضر فدع ما يتوقعه الحائر من اليوم الآخر، فحينئذٍ يترتب ما ذكر ﷺ عن ربه تعالى أنه يقول: «ولعبدي ما سأل»[(١)].

فاعرف كيف تسأل تنل من فضل الله ما تؤمل.

ثم اعلم أن لأصل النعمة المشار إليها صورةً وروحًا وسرًّا، وصورتها الإسلام والإذعان، وروحها الإيمان والإحسان، وسرها التوحيد والإيمان، فحكم الإسلام متعلقه ظاهر الدنيا، والإيمان لباطن الدنيا، وباطن النشأة الظاهرة، والإحسان للحكم البرزخي، ونشأته، وإليه الإشارة في جواب جبرائيل صلى الله عليهما: «ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه»[(٢)]، وهذا هو الشهود، والاستحضار البرزخي؛ فافهم.

وسرُّ التوحيد واليقين يختص بالآخرة فالمح ما أدرجت لك من أسرار الشريعة في هذه الكلمات الوجيزة الشريفة تعلم أن كل شيء فيه كل شيء، والله المرشد.

وقال الشيخ نجم الدين الداية في تفسيره المسمى بـ«بحر الحقائق» أسكنه الله تعالى في الجنة العالية: واعلم أن ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] هو الدين القويم، وما يدل عليه القرآن العظيم، وهو خُلُق سيد المرسلين ﷺ كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣].

---

(١) رواه مسلم (١/ ٢٩٦).

(٢) رواه البخاري (١/ ٢٧)، ومسلم (١/ ٣٧).

وهو على نوعين: صراط مستقيم إلى الحق لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس:٢٥] أي: إلى الجنة وهذا لأصحاب اليمين لقوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ * فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ * وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ * وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٠]، والثاني صراط مستقيم إلى الله تعالى لقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى:٥٢] هو صراط الله، وهذا للتابعين لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة:١٠،١١] وفي الآيتين إشارة إلى أن منه هدى إلى صراط مستقيم فهو من التابعين المقربين، وأن كل ما يكون لأصحاب اليمين فيكون له، وهو سابق على أصحاب اليمين، فما يكون للمقربين من شهود الجمال وكشف الجلال.

وهذه المرتبة خاصة لسيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ ومتابعيه لقوله ﷻ قبل: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٨].

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٧] الإشارة فيه إلى طريق من أنعمت عليهم بكشف الحقيقة، وفي أمر الصراط إشارة إلى أن الصراط الحقيقي صراطان: صراط من العبد إلى الرب، وصراط من الرب إلى العبد، فالذي من العبد إلى الرب طريق محفوف كم قطع فيه القوافل، وانقطع فيه الرواحل، ونادى منادي العزة لأهل الغرة، فالطلب رجي، والسبيل سد لقوله تعالى حكاية عن قاطع هذا الطريق، ومنقطع هذا الفريق: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦].

والذي من الرب إلى العبد فطريق آمن، وبالأمان كائن قد سلم فيه قوافله، وبالنعم محفوفة منازله، يسيرون فيه سيارته، ويقادون بالسلاسل قادته ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ...﴾ [النساء:٦٩].

أنعم الله على أسرارهم بأنوار العناية، وعلى أرواحهم بأسرار الهداية، وعلى قلوبهم بآثار الولاية، وعلى نفوسهم في قمع الهوى، وقهر الطبع، وحفظ المشروع بالتوفيق والرعاية، وعن مكايد الشيطان بالمراقبة والكلاءة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بالنعمة الظاهرة والباطنة كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لقمان:٢٠].

وأما النعمة الظاهرة فبعثة الأنبياء - عليهم السلام- وإنزال الكتب، وإحكام الشرائع، وتوفيق قبول دعوة المرسل، وإجابة الحق، واتباع السنة، واجتناب البدعة، وانقياد النفس لأوامر الشرع الشريف ونواهيه، والثبات على قدم الصدق، ولزوم العبودية.

والنعمة الباطنة فإن الله تعالى أنعم على أرواحهم في بداية الفطرة بإصابة رشاش نوره؛ لقوله ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى، ومن أخطأه فقد ضل»[1] فكان فتح باب صراط الله إلى العبد رشاش ذلك النور، فالمؤمنون ينظرون بذلك النور المرشش إلى مشاهدة الغيب، ويستغيثون ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] وهو ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧] بجذبات ألطافك، وفتحت عليهم أبواب فضلك؛ ليهتدوا بك إليك؛ فأصابوا بها أصابهم منك بك ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧] هم الذين أخطأهم ذلك النور حين رش الله عليهم من نوره؛ فضلوا في تيه هوى النفس، وتاهوا في ظلمات الطبع والتقليد مثل اليهود، ولعنهم بالطرد حتى لم يهتدوا إلى الشرع والتحقيق، ووقعوا عن الصراط المستقيم عن المرتبة الإنسانية التي خلق فيها الإنسان في أحسن تقويم، ومسخوا قردة وخنازير، صورةً ومعنى أيضًا ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ بالخذلان وبالنسيان لما وقعوا عن الصراط المستقيم التوحيد في بئر البشرية؛ فنسوا ألطاف الربوبية، وضلوا عن صراط مستقيم التوحيد فأخذهم الشيطان بشرك الشرك كالنصارى فاتخذوا الهوى إلهًا، والدنيا إلهًا، وقالوا: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، وأيضًا ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بالغيبة بعد الحضور، والمحنة بعد السرور، والظلمة بعد النور، أعوذ بالله من الحور بعد الكور، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ في الفسق والفجور، وأيضًا ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بالرجوع عن الصراط المستقيم؛ فنودوا: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٣]. ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن كرم الكريم، ورحمة الرحيم بالإعراض عن الدين القويم، المحرومين عن القلب السليم، وجنات النعيم باستخفاف العذاب الأليم ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بالاحتباس بالمنازل والأسماء عن القائل، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ بالصدود عن المقصود.

وفي التفسير المسمى بـ «العرائس»[2] لروزبهان البقلي - قدس الله سره-: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: المطرودين عن باب العبودية، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يعني: المفلسين عن مقاييس الرأفة، وأيضًا ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بالكرب والاستدراج ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن أنوار السبيل والمنهاج، ﴿آمين﴾ استدعاء بالعارفين مزيد القربة مع استقامة المعرفة من رب العالمين. قال جعفر الصادق رضي الله عنه: ﴿آمين﴾ قاصدين نحوك، وأنت أعز من أن تخيب قاصدًا، والتأمين سنة بعد ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ كان في الصلاة أو خارج

---

(١) رواه الحكيم في النوادر (٤/ ١١٣).

(٢) انظر: «عرائس البيان في حقائق القرآن» (١/ ٣١) بتحقيقنا.

الصلاة، وروى وائل بن حجر ﷺ قال: «سمعت رسول الله ﷺ قرأ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقال: ﴿آمين﴾ مد بها صوته» هذا حديث حسن(١).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿آمين﴾ ختم رب العالمين على عباده المؤمنين»(٢).

قال فيه نجم الدين الداية - جعل الله مثواه الجنة العالية: فيه إشارات:

منها: أن العبد يكتب كتابه بقلم فعله، وكل حركة تصدر منه، وهي حرف، وكل عمل كلمة تكتب في كتاب طاعة ومعصيته، فكم من كتاب قد كتب من طاعة أو معصية وصعد به ملك اليمين والشمال، فلما بلغ الحضرة فلم يجد فيها حرفًا، أما السيئات قد محاها الحسنات، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤].

وأما الطاعات فقد أحبطها الرياء والشرك، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]، قال الله ﷻ من غاية كرمه مع عباده جعل ﴿آمين﴾ خاتمة كتاب صلاة العباد حتى لا يمحوها شيء من الأشياء، فيبقى بها مختومًا ثابتًا إلى يوم الجزاء؛ فإنه يمحو الله ما يشاء ويثبت، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «كل الختم على الكتاب»(٣).

ومنها: أن الله سبحانه قال: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل»(٤) والإشارة فيه: أن للعبد نصفها من الحمد والثناء والدعاء، فيبقى «نصفها لي» من الإجابة والهداية والرحمة والعفو والمغفرة والرضوان والنجاة من النيران ورفعة الدرجات من الجنان وكرامة لقاء الرحمن، فختمت على ما سأل بخاتم ﴿آمين﴾ ليوم يقوم الناس لرب العالمين، يقال في قبول القول: ختم به عليه.

ومنها: أن العبد محجوب عن الله سبحانه بحجاب أنانيته، ووجدان وجوده، ووجوده مركب عن الروحاني العلوي والجسماني السفلي، فالشرع إنما جاء ليخرجه من ظلمات حجابه الظلماني السفلي إلى نور الروحاني العلوي؛ لأن من بقي فيها في سفلي من النار، كما قال الله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران:١٠٣] فمن نجا من ظلمات نار سفلي وجوده، ووصل إلى نور جنته علق وجوده، فهو بعد محجوب بحجاب النور العلوي، كما قال رسول الله ﷺ: «إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة»(٥).

---

(١) رواه الترمذي (٢/ ٢٧).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) رواه مسلم (١/ ٢٩٦).

(٥) رواه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٨١).

فالروحاني بالنسبة إلى الجسماني نوراني، ولكن بالنسبة للنور القديم ظلماني، كما قال ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة»[١].

فالنور الحقيقي هو الله سبحانه وما سواه مخلوق ظلماني، وكمال العبد في العبودية بالخروج عن ظلمات أنانيته إلى نور هويته، وفقدان وجوده في وجدان وجود الحق. انتهى كلام شيخ الطريقة نجم الدين الداية رحمه الله.

والحاصل كلمات أهل الذَّوق والشهود ترجع إلى أمر واحد بلا خوف من حيث المآل بيت عبارتنا شيء وحسنك واحدة، وكل إلى ذاك الجمال يشير.

وقال قطب العارفين قرة عيون المحققين محيي الدين بن محمد علي بن محمد بن العربي المعروف بالشيخ الأكبر، بالموصوف بالكبريت الأحمر - قدس سره الأطهر- في الباعث الآخر في «الفتوحات المكية» في وصاياه للخاصة والعامة: «وصية: إذا قرأت فاتحة الكتاب فَصِلْ بسملتها معها في نفس واحد من غير قطع؛ فإني أقول: بالله العظيم لقد حدثني أبو الحسن عن أبي الفتح المعروف والده بالكناري بمدينة الموصل سنة إحدى وستمائة، وقال: بالله العظيم لقد سمعت شيخنا أبا الفضل عبد الله بن أحمد بن عبد القاهر الطوسي الخطيب يقول: بالله العظيم لقد سمعت من لفظ أبي بكر بن الفضل بن محمد الكاتب الهروي وقال: بالله العظيم لقد حدثنا أبو بكر محمد بن علي الشاشي الشافعي من لفظه، وقال: بالله العظيم لقد حدثني عبد الله المعروف بأبي نصر السرخسي، وقال: بالله العظيم لقد حدثنا أبو بكر محمد بن الفضل، وقال: بالله العظيم لقد حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن يحيى الوراق الفقيه، وقال: بالله العظيم لقد حدثني محمد بن يونس الطويل الفقيه، وقال: بالله العظيم لقد حدثني محمد بن الحسن العلوي الزاهد، وقال: بالله العظيم لقد حدثني أبو بكر الراجعي، وقال: بالله العظيم لقد حدثني عمار بن موسى البرمكي، وقال: بالله العظيم لقد حدثني أنس بن مالك، وقال: بالله العظيم لقد حدثني علي بن أبي طالب، وقال: بالله العظيم لقد حدثني أبو بكر الصديق، وقال: بالله العظيم لقد حدثني ميكائيل عليه السلام وقال: بالله العظيم لقد حدثني إسرافيل عليه السلام وقال: قال الله تعالى: يا إسرافيل، بعزتي وجلالي وجودي وكرمي من قرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ متصلة بفاتحة الكتاب مرّة واحدة اشهد عليَّ أني قد غفرت له، وقبلت منه الحسنات، وتجاوزت عنه السيئات، ولا أحرق لسانه بالنار، وأجيره من عذاب القبر، وعذاب النار وعذاب القيامة، والفزع الأكبر، يلقاني قبل الأنبياء والأولياء أجمعين»[٢].

---

(١) تقدم.

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/ ٤٢٠)، وعزاه لعبد بن حميد في تفسيره عن ابن عباس.

وخرج الشيخ الكبير صدر الدين القونوي ﷺ هذا الحديث النبوي في شرحه للحديث الأربعين في الحديث السادس والعشرين، هذا ترجمته: «عن طلحة عن مالك عن مكحول عن أبي بكر الصديق ﷺ قال: بالله العظيم لقد حدثني محمد المصطفى ﷺ، وقال: بالله العظيم لقد حدثني جبرائيل ﷺ وقال: بالله العظيم لقد حدثني ميكائيل عليه الصلاة والسلام، وقال: بالله العظيم لقد حدثني إسرافيل عليه الصلاة والسلام، فقال: قال الله تعالى: يا إسرافيل بعزتي وجلالي وجودي وكرمي من قراء ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ متصلاً بفاتحة الكتاب مرة واحدة اشهد أني قد غفرت له، وقبلت منه الحسنات، وتجاوزت عنه السيئات، ولا أحرق لسانه في النار....»[1] إلى آخر الحديث الشريف بتمامه.

ثم قال - طيب الله أنفاسه- في شرحه: وكشف سره، وإيضاح معناه ثبت عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ في صفة الصلاة: «إن العبد إذا قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يقول الله تبارك وتعالى: ذكرني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي...»[2] الحديث بطوله، وهذا القدر من هذا الحديث كالمفتاح والمقدمة لبيان معنى الحدث قبله.

وإذا عرفت هذا فاعلم أنه لا يخفى على كل عاقل أن مجرد اتصال قراءة البسملة بفاتحة الكتاب وصورة التلفظ بهما لا يوجب هذا الترجيح، والشرف الباذخ، وإنما السر المدرج في ذلك كله هو أنه سبحانه لما جعل البسملة ذكرًا، والحمد ثناءً ميز بينهما من هذا الوجه، ومن البين عند المحققين والأَلِبَّاء المتفطنين أيضًا أن الثناء من كل مثني على مثنى عليه تعريف من المثني للمثنى عليه من حيث هو مثنى عليه بالنسبة للمثني أي مثني كان وأي مثنى عليه، وحقيقة الذكر التام الصريح بما يدل على المذكور دلالة تامة، ويُغرب عن ذاته، واستحضار الذاكر المذكور في نفسه، وحضوره معه والحضور والاستحضار عبارة عن استجلاء المعلوم فجاء ضد أيضًا راجع إلى العلم، فهو من وجه غير مغاير للثناء، ولكن بالنسبة لمن يذكر الحق ذكر معرفة؛ فكأنه يقول: من اتحد ذكره بثنائه بحيث إن ذكره يعبر عن ذات مذكورة كتعريف المثنى عليه بثنائه تعريفًا محققًا، ولو من حيث هو مذكور أو مثنى عليه، فهو محقق مستحق كمال الإكرام.

والتعريف ولا شك في أن حصول هذه الصفة يغر ويتعذر على أكثر الخلق، وحاصله خليق بكمال التعريف والإكرام، وهذا هو الذي يندر وجوده لا ما سبق إلى الأذهان من اقتران التلفظ بالبسملة مع الفاتحة؛ فافهم والله المرشد. انتهى كلامه ﷺ جعلنا

---

(١) تقدم في سابقه.

(٢) رواه مسلم (١/ ٢٩٦)، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٩).

الله من الفائزين إلى درجة هؤلاء الذاكرين العارفين، والحامدين المتصفين بهذا الكمال بحرمة خاتم النبيين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

المناجاة إلى قاضي الحاجات

باسمك اللهم افتتحت، وبحمدك اختتمت، فبرحمانيتك تتضح رموز القلوب، وبرحيميتك ينفتح طلسم كنوز المحجوب، يا فتاح يا وهاب افتح لنا خير الباب.

إلهي أناجيك داعيًا، وأدعوك راجيًا، إليك أمد يد الافتقار، ولديك أبسط أكف الاعتذار، حاشاك أن تردها خائبة، أنت الجواد الغني، وتنزهت خزائن فضلك أن ترجعها صفرًا، أنت الوهاب المغني.

إلهي أنت في المواطن كلها جار حاضر، وفي الأمور ناصر وناظر، وللذنوب غافر، وللعيوب ساتر، خيرك لي شامل، وبرك لي كافل، يا مجيب السائلين، وكيف أصدر عن بابك بخيبةٍ منك وقد وردته على ثقة بك وكيف تؤيسني من عطائك وقد أمرتني بدعائك، وها أنا [...][1] عليك، ملتجئ إليك، وأنت الكريم الجليل.

أنت ربي وأنا العبد الضعيف الذليل، وأنت المعطي المنعم لمن ناجاك جلائل النعمة، يا ذا الجلال والإكرام غلبت عليَّ الغفلة وأنت الكريم، ولبست الأعضاء ثوب المعصية وأنت التواب الرحيم.

إلهي عملت سوء واعترفت بذنبي، ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكون من الخاسرين.

أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا، وأنت خير الغافرين فاغفر لي وارحمني واعف عني ما قدَّمت وما أخرت، وما أعلنت وما أسررت، أنت المقدم والمؤخر، أنت الأول والآخر، أنت الباطن والظاهر، أنت علام الغيوب والسرائر، لا تخفى عليك الخافية، فاجعل ملبسي العافية، وعافني من كل غل وعلة، وطهرني من أدناس الزلة، وألبسني خلع الهدى والتقى والعِفافة والعصمة، واجذبني بجذبات عنايتك، واسقني من شراب محبتك، لك الفضل والمنة، لك اللطف والنعمة، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] أنا لا أحصي ثناء عليك كما أثنيت على نفسك، لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك أستغفرك وأتوب إليك، أنت الحامد المحمود، أنت رب العالمين، أنت الرحمن الرحيم، يا أكرم الأكرمين، يا أرحم الراحمين، يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، أهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين، أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلمًا، وألحقني بالصالحين.

---

(١) كلام غير واضح بالمخطوط.

إلهي سيدي ومولاي أي نعمة أعظم من نعمائك عليَّ بمحض فضلك وإحسانك بأن جعلتني من أمه محمد سيد الأنبياء والمرسلين سيد الأولين والآخرين، شفيع المذنبين يوم الدين، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه بصلوات وافيات، وتسليمات وافيات تتجدد مع التضعيف أبدًا سرمدًا في كل وقت وحين مع ذكر الذاكرين، وسهو الغافلين، ولمح الناظرين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

***

وقد اتفق الفراغ من تنميق تأليفه بفضل الله وتوفيقه على يد مؤلفه قبيل صلاة الجمعة في اليوم السادس من جمادى الآخرة سنة تسع وستين وألف من الهجرة النبوية عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات ببلدة قسطنطينية، وهي دار السلطنة العلية - حميت عن البلية- وفي بلوغ سني إلى سبع وسبعين مع وهن قواي وبنيتي وضعف بصري بشيبي، وأنا أضعف عباد الله الأحد الصمد .. عبد الله بن السيد محمد القسطنطيني مولدًا وموطنًا، البيراني الجلوتي طريقةً، المولوي تربيةً نورانية روحانية، الشارح للمثنوي، غفر الله له، ولوالديه، ولمربيه، ولأستاذيه، ولمن قرأ وسمع هذه المجموعة اللطيفة، والرسالة الشريفة، ولجميع المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، بجاه سيد الكائنات، وسند الموجودات، آمين يا مجيب بالدعوات، ويا غافر الذنوب والخطيئات.

ثم كتبتُ هذه النسخة ثانيًا، وأتممتها بعناية الله أيضًا قبيل صلاة الجمعة في اليوم الحادي والعشرين من شوال المكرم من شهور سنة تسع وستين وألف، لمولانا وسيدنا الأفخم، فخر العلماء الهداة العظام، وصدر الشرفاء السادات الكرام، السيد عبد الرحمن بن أحمد الشهير بـ«زيرك زاده»- زاد الله عمره وقدره، وعمر الله أولاده، وجعلهم خير خلافة بمنه وبره.

وسبب كتابتي لما أتممتها فتشرفت بتعلق نظره الشريف إليها، وأظهر الرغبة فيها، وأشار إلى أن أكتبها له فامتثلت لأمره بإشارته محبةً خالصةً مني إلى جنابه السني، لأنا المحبون لمحبته آل يس بل مأمورون بمودة أهل بيت خاتم النبيين ﷺ وعلى آله الطيبين الظاهرين، بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣] كما قال الشيخ ﷺ في الباب التاسع والعشرين في «الفتوحات المكية» في وصف شأن أهل البيت: «ولما كان رسول الله ﷺ عبدًا محضًا قد طهره الله وأهل بيته تطهيرًا وأذهب عنهم الرجس، وهو كل ما يشينهم؛ فإن الرجس هو القذر عند العرب، هكذا حكى الفراء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣] شهد الله لهم بالتطهير وذهاب الرجس عنهم، وإذا

كان لا ينضاف إليهم إلا مطهر مقدس، وحصلت له العناية الإلهية بمجرد الإضافة فما ظنك بأهل البيت في نفوسهم، فهم المطهرون بل هم عين الطهارة، فدخل الشرفاء أولاد فاطمة كلهم إلى يوم القيامة في حكم هذه الآية فهم المطهرون اختصاصًا من الله، وعنايةً بهم لشرف محمد ﷺ وعناية الله به.

وينبغي لكل مسلم مؤمن بالله وبما أنزله أن يصدق الله في قوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فيعتقد فيما يصدر من أهل البيت أن الله قد عفا عنهم فيه، فلا ينبغي لمسلم أن يُلحق المذمة بهم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وبعد أن تبين منزلة أهل البيت عند الله، وأنه لا ينبغي له أن يذمهم بما يقع منهم، فإن الله طهرهم فليعلم الذَّام لهم أن ذلك راجع إليه، وإنما منعنا تعليق الذم بهم إذ ميزهم الله عنا بما ليس لنا معهم فيه قدم، وأن النبي ﷺ مما طلب منا من إجراء المودة في القربى، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ومن لم يقبل سؤال فيه فيما سأل فيه مما هو قادر عليه بأي وجه يلقاه غدًا، ويرجو شفاعته وهو ما استعفه بنبيه ﷺ فيما طلب منه من المودة في قرابته، فكيف بأهل بيته؟! فهم أخص القرابة، ثم إنه جاء بلفظ المودة، وهي الثبوت على المحبة؛ فإنه من ثبت وده في أمر استصحبه في كل حال، ولو استصحبه المودة في كل حال لم يؤاخذ أهل البيت بما يطرأ منهم في حقه مما له أن يطالبهم به فيكون ترك محبة وإيثار النفس لا عليها، فهذا فعل المحب الصادق في حبه، وثبوت الود في نفسه، فلو صحت محبتك لله ولرسوله أحببت أهل بيت رسول الله ﷺ ورأيت كل ما يصدر منهم في حقك مما لا يوافق طبعك ولا غرضك أنه جمال تتنعم بوقوعه منهم، كما قيل: وكل ما يفعل المحبوب محبوب.

فتعلم عند ذلك أن لك عناية عند الله بمحبتك لهم؛ فتشكر الله لهذه النعمة».

وكلام الشيخ ﷺ مبسوط في هذا الباب مبسوط، وهذا منتخب منه، فأضربنا عن إيراد هذا التفصيل مخافة التطويل، فمن أراد الاطلاع فليطالع ثمة.

ولنا قصيدة بلسان تركي أنطقنا الله بها بمنه وعنايته في تعريف الأبرار والأخيار والشطار، أعني: الملامتية، والمتشبهة، والمقلدة، وفي وصف المرشد الكامل، وتربيته المريدين المسماة بمسلك العشاق، وألحقناها بذيل هذه المجموعة بإشارته العليَّة أيضًا، أعني: مولانا وسيدنا المشار إليه طول الله عمره، فهذه القصيدة: [.....][1].

***

(١) كلام تركي.

هذه صنعة من الصنائع

اعلم أيها العارف، ربما تطلع على كيفية تجلي النقطة الذاتية التي كانت الحياة والسمع والبصر والكلام وصفاتها، والعلم مظهر الحياة، والإرادة مظهر السمع، والقدرة مظهر البصر، والحكمة مظهر الكلام، وهي صفاء النقطة الوحداية التي هي مظهر النقطة الأحدية، والعقل مظهر العلم، والنفس مظهر الإرادة، والصورة مظهر القدرة، والمادة مظهر الحكمة، والنار مظهر العقل، والهوى مظهر النفس، والماء مظهر الصورة، والتراب مظهر المادة، والجسم مؤلف من الصورة والمادة وكلما يزداد تركيبه يكون أقرب إلى مرتبة الاعتدال حتى يصل إلى مرتبة الإنسان، وهو أعدل التركيبات، وتكون مسمتة لمظهرية النقطة الذاتية، وهذه معرفة من طعم حويصلاء طعمها مر. تمت بحمد الله الملك المنان.

***

مراتب الوجود خمسة

(هاهوت. لاهوت. جبروت. ملكوت. ناسوت)

إذا كانت الذات في غيب الأحدية المطلقة الكنه حيث لا تعين، وانقطعت عنها الإشارات، وضاقت العبارات؛ فهاهوت.

وإن اعتبرت بمقتضاها بأسمائها وصفاتها وشئونها وتعيناتها وسائر مراتب تجلياتها؛ فلاهوت.

وإن اعتبرت من حيث محاط تعلق العلم بالأعيان الثابتة قبل تعين المثلاث، وتنزل الهيئات؛ فجبروت.

وإن اعتبرت من حيث إتيانه تعالى في الظلال، وتعين المثل الأعلى بلا مثال في نفوس كلية وعقول إلهية؛ فعالم الملكوت.

وإن اعتبرت من حيث كمال الجلاء والانجلاء، وطلعت الدورة الأحدية بما لها في صورة الوحداية، حيث خلق الله آدم على صورة الرحمن فتعين به الأزل والأبد، وحفظت به المراتب بالمَدَد في المُدَد، وكان له الحق سمعًا وبصرًا، وإعادة الدورة على منتهاها وآخرها في الحقيقة مبتداها؛ فعالم الملك، وهو الناسوت ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ انتهى، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

فهرس الموضوعات

سيصدر حديثًا ولأول مرة

النَّجاة عن حُجب الاشتباه في شرح مُشكل فَوائد كتابي الإسراء والمشاهد

للشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي

تصنيف

تلميذه الشيخ إسماعيل سويدكين بن عبد الله النوري

قدَّس الله سرهما

تحقيق وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

من إصداراتنا ولأول مرة

نتائج الأذكار في المقربين الأبرار

للشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي

قدَّس الله سرّه

تحقيق وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي